REDLINE | VERLAG

الولايات المتحدة الأمريكية في الألفية الثالثة

قوة عُظمى في مفترق الطرق



تأليف
جون سي كورنبلم
دايتر كرونزوكر

ترجمة
هبة سري
رانيا محمد خليف

مجموعة النيل العربية

الولايات المتحدة الأمريكية في الألفية الثالثة

قوة عُظمى في مفترق الطرق



تأليف

جون سي. كورنبلم

دايتر كرونزوكر

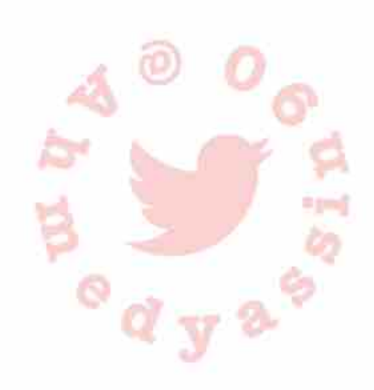
ترجمة

هبة سري

رانيا محمد خليف

مجموعة النيل العربية


@Ahmedyassin90

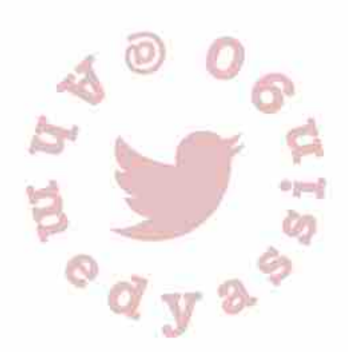


الولايات المتحدة الأمريكية


@Ahmedyassin90

المحتويات

الموضوع | الصفحة


@Ahmedyassin90

شكر وتقدير

يتقدم المؤلفان بخالص الشكر والتقدير لكل من

تيسا فانيلسا Tessa Fanelsa وتوماس منتصر Thomas Montasser على متابعتهما الاحترافية للكتاب و إسهاماتهما القيمة حتى خرج إلى النور.

جون سي. كورنبلم
دايتر كرونزوكر


@Ahmedyassin90

المقدمة

«إن أول شروط الاستمتاع بجولة في الولايات المتحدة، هو عدم التحيز واستعداد المرء لاستيعاب عادات وتقاليد ذلك البلد، وإذا توفر لدى المسافر القليل من الصبر، سيجد أن العديد من تلك العادات والتقاليد التي في بعض الأحيان قد يجدها صادمة لكونها غير معقولة أو حتى غير مستحبة، هي الأكثر ملاءمة لتلك البيئة، من تلك التي تنتمي لبلاده».

بايديكرز Baedekers الولايات المتحدة الأمريكية، 1893

لقد اخترنا «الولايات المتحدة الأمريكية في الألفية الثالثة: قوة عظمى في مفترق الطرق» عنوانًا لهذا الكتاب. إن تلك الكلمات التي تم اختيارها للتعريف بهذا الكتاب، هي نفسها الدليل على الغرض من وراء كتابته؛ حيث منذ ما يقرب من 80 عامًا مضت، أعلن الناشر «هنري لوس Henry Luce» أن القرن العشرين هو القرن الأمريكي، ولقد تبين صحة هذا بالفعل؛ حيث لم يسبق لأمة في التاريخ أن ذكرت لها مثل تلك القوة أو مارست مثل ذلك التأثير، كالولايات المتحدة الأمريكية خلال الثمانين عامًا الماضية. لم يحدث منذ أيام الإمبراطورية الرومانية (روما)، أن حدد شعب واحد وثقافته شكل الحياة علي كوكبنا، ولا توجد دولة تستطيع تجاهل التأثير الأمريكي، إذا كانت ترغب في النجاح في تحديد أهدافها وأغراضها.

لهذا السبب فقط، فإنه من الكافي النظر إلى أمريكا بنظرة جديدة، كذلك النظر إلى أهدافها، وتوجهاتها في الألفية الجديدة، وبينما نحن نكمل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أصبح من الأمور الملحة أن نتفهم الولايات المتحدة الأمريكية ودورها العالمي بشكل أفضل.

نحـن نكتـب في وقت نجد فيه أن العالم الذي رسـمت معالمه القـوة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية قد اختفى تقريبًا من أمام أعيننا، وفي الوقت الذي تتلاشـى فيه الثوابت القديمة، هناك شخص مثير للاهتمام يظهر على المسرح العالمي بصفته الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحـدة الأمريكيـة. لا نجد باراك أوباما Barack Obama يمثل فقـط نوعًا جديدًا من القادة، بل يمثل أيضًا نوعًا جديدًا من المجتمع الأمريكي؛ حيث يبدو أنه يقدم لأمريكا والعالم شـعورًا متجددًا بالأمل بحيث يمكن تخطي صراع السـنوات الأخيرة، ويمثل أيضًا التحديات الصعبة من أجل إعادة بناء أمريكا.

نجحت الولايات المتحدة على مدار السـتين عامًا الماضية، مهما كانت نقاط ضعفها، في مد العالم بنظام أساسي حيوي مبني على المبادئ المستنيرة للانفتاح والعدالة. على الرغم من أن تلك العقود السـتة تمزقت بالحروب والكوارث فإنها في الوقت نفسـه شهدت أقصى درجات توسع الحرية والرخاء في تاريخ الحضارة البشرية.

اعتقد الكثيرون منذ عدة سنوات أن توليفة الرؤية الأمريكية، التقنية واسعة النطاق، ونشر الديمقراطيـة، قد ينتج عنها عصر توحيد الجهود على المسـتوى العالمـي من أجل تحقيق التقدم، لكننـا نعلـم الآن بشـكل أوضـح أن التناقضـات في عصر التغـير الجذري قد طغـت حتى على القـدرات الأمريكية للبقاء على هذا المسـار. إن العالم حاليًـا يواجه عدة عقود من الاضطرابات والتغييرات الجذرية.

إن رد الفعل الأمريكي تجاه تلك التحديات من شأنه أن يغير من توجهها السياسي في نهاية المطـاف. إن قائدهـم الجديد هـو وافد جديد لم يختبر بعد. أنتج الشـعب الأمريكي في تحول غير مسـبوق ولم يسـمع بمثله عبر عقد مضى، سـيناتور مختلط العرق من ولاية إلينوي Illinois، ذا خبرة سياسية بسيطة، والذي امتلك رؤية من الأمل والتعاون لم تختلف كثيرًا عن تلك التي أتى بها من سبقه في هذا المنصب.

اعتاد العالم على أمريكا العدوانية الأحادية (الانفرادية)، وذلك على مدى الثماني سنوات الماضية، والتي من الصعب التعاون معها... تواصل باراك أوباما خلال خطابه الافتتاحي مع العالم واعدًا إياه بأن الولايات المتحدة ستعود لتكون شريكًا جيدًا مرة أخرى، ودعا أوباما كذلك «لإعادة صنع أمريكا»، ما الذي كان يعنيه أوباما بالضبط؟! وكيف يجب أن يتفاعل العالم مع أمريكا جديدة منتظرة والتي تحل محل «سنوات بوش».

إن أوباما يتمتع بشخصية فريدة، ولكن الأسباب وراء انتصاره تعود لما هو أبعد من مهاراته الشخصية، فقد كانت هناك هوية سياسية جديدة مختلفة جذريًّا تظهر في الولايات المتحدة في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تعلن عن رؤيتها للمستقبل، هذه الهوية كانت تمثل حقبة ما بعد الحداثة، ومن هنا نجد أن نجاح أوباما سيعتمد على مساحة معقولة من قدراته ودمج الوعي الأمريكي الجديد مع الأساسيات التاريخية للهوية الأمريكية، وقيادة الشعب الأمريكي خارج تلك الأزمة.

إن هذا الكتاب لن يكون حول «باراك أوباما»، ولكنه سيهيمن عليه بعدة طرق. إن أي وصف لأمريكا وحالتها الفكرية أو الذهنية يجب بالضرورة أن يكون وصف لظاهرة أوباما وأثرها على الدولة.

إن الغرض الرئيسي من هذا المشروع هو وصف وشرح هذا التحول بمصطلحات عملية توضيحية، والتي ستكون مفيدة للقارئ من أجل فهم واستيعاب ما الذي يحدث في أمريكا الجديدة.

إن هدفنا هو توفير صورة للأمة الأمريكية وثقافتها السياسية، وفي هذا الكتاب لن نتناول بالنقاش أي وجهات نظر سياسية محددة، وسوف نجد أن هذا الكتاب يدعو القراء إلى الوصول إلى استنتاجاتهم بناء على الحقائق والانطباعات التي قدمها المؤلفان.

إن المهمة التي وكلنا بها أنفسنا هي وصف أمة في حالة انتقالية؛ حيث نحلل الشخصية والخيارات المطروحة التي تواجهها الولايات المتحدة، وذلك من أجل مساعدة القراء على فهم

أفضـل لكيفيـة التعـاون مع التحولات التـي يقودها باراك أوبامـا. إن هدفنا هـو إعطاء القراء الإحسـاس بكيف تعيش وتشعر الولايات المتحدة، كذلك رسم صورة للحياة والتي تساعدنا على كيفية التعامل مع ما أسـماه الرحالة الكاتب الألمـاني آرثر هوليتشر Arthur Holitscher في عام 1913 «إن هذه لدولة مضطربة».

كـما يتضـح في دليـل باديكرز لعـام 1893، فإنه مـن الأفضـل أن «تتحلى ببعض الصـبر» عندما تواجهك التناقضات الشديدة بين صورة الولايات المتحدة، والحياة الفعلية فيها. إن الأمريكيين لديهم حس فطري بماذا يعني أن تكون أمريكيًا، ولكن غالبًا من الصعب وصف كيف يعمل مجتمعهم.

سوف نسعى نحو إجابة تلك الأسئلة، وذلك بالبحث داخل العقلية الأمريكية والسلوك الأمريكي، حيث تطورت عبر أربعة قرون، وكذلك القيام بالبحث عن قرائن مستقبلية. سوف نسـتخدم منهـج «من الداخـل إلى الخارج» لفحص أكثـر القضايا الحرجة التـي تواجه أمريكا، أصدقائها، وخصومها، وسوف نخاطر بالتنبؤ بكيفية تحول الأمور.

سـنعتمد في وصفنا بشـكل أسـاسي عـلى قصة أمريكا وسـكانها (شـعبها) كـما تم سردها بواسـطة الأمريكيـين أنفسـهم، حيـث يقومـون بالتعريـف بدولتهم. لـن نتعامل مـع القضايا المصيرية والحرجة على أسـاس إنها صور ثابتة تعكس السياسـة، التاريخ، والسلوك الأمريكي، ولكننا سنتعرف على تلك القضايا من خلال الحوار الذي يقيمه الأمريكيون بينهم وبين أنفسهم بينما يتطور وعيهم الوطني.

سـوف نقوم بوصف كيف أثرت تلك القصة على تكويـن أحلام وأهداف الناس، كذلك سـوف نـزور الأمريكيين في مدنهم ومزارعهـم، وذلك لإلقاء نظرة أولية عـلى كيفية تأثير تلك الذاكـرة التاريخية على سـلوكيات الناس، ومن هذا المنطلق نجد أنـه لا يمكن فهم باراك أوباما بـدون فهـم قصة حياتـه، وكيف أنه يشـبه عامل من مدينـة بيوريا Peoria في ولايـة إلينوى أو جنـدي من سـاوث كارولينا South Carolina؛ حيث كل منهما نتـاج لتلك الخلفية الاجتماعية الخاصة به.

أثناء القيام بذلك ستجد أننا سنلقي الضوء على العديد من الأسباب التي جعلت أمريكا الأقوى والأكثر ديمقراطية في تاريخ العالم، وستجد الموقع الجغرافي، الموارد، الناس، والفلسفة السياسية هي أكثر تلك الأسباب أهمية. كان جوته Goethe محقًّا في نواحٍ كثيرة عندما قال «أمريكا، ما زال لديك الأفضل....».

لكن الطبيعة الخاصة للمجتمع الأمريكي، من حيث العلاقة الوطيدة بين الاحتياج إلى ترويض بيئة برية وفي الوقت ذاته الإحساس بالمسؤولية الشخصية، وأيضًا الإحساس بأن العالم الجديد مختلف بالفعل عن القديم، كل ذلك لعب دورًا محوريًّا في تطور أمريكا.

سوف نبحث أيضًا في الأسباب التي قد تؤدي إلى توتر العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أقرب أصدقائها، وسنجد أن قوة أمريكا العظمى لا تجعل منها شريكًا سهلًا؛ حيث هناك مشاعر ودوافع عميقة في السلوك الأمريكي مرتبطة بكون أمريكا قوة عظمى، وأيضًا سنجد أن الأوربيين يتفاعلون بشكل محدد مع ذلك المجتمع الفريد والذي نشأ على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي.

عاشت كل من أوروبا وأمريكا الشمالية من خلال هُوية واحدة لأكثر من 400 عام، ومثلت المشاعر التي اجتازت المحيط الأطلنطي ذهابًا وإيابًا أساس لسلوكياته الفردية، وسوف نشرح لماذا يمثل فهم تلك المشاعر والدوافع العميقة أحد مفاتيح فهم كيفية التعامل مع أمريكا والأمريكيين.

نجد أنه من النادر أن تغرق قوة عظمى بتلك السرعة والعمق في عيون مواطنيها وعيون العالم مثلما حدث ذلك لأمريكا في الثماني أعوام التي مثلت فترة حكم جورج دبليو بوش George W. Bush ومن النادر أيضًا أن تستعيد بسرعة كبيرة ثقتها بنفسها واحترام العالم لها، وذلك خلال الأشهر التي تلت تولي باراك أوباما كالرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية، ويبدو أنه ما زالت أمريكا تؤمن بكلمات القائد الثوري توماس باين Thomas Paine «بمقدورنا أن نعيد بناء العالم مرة أخرى».

يعتبر هذا المشهد الخاص بإعادة بناء العالم مرة أخرى هو بالضبط ما يجعل فهم الولايات المتحدة من الأمور الصعبة، حتى بالنسبة لأقرب أصدقائها، وكما سنناقش لاحقًا، لقد هددت نفس فكرة العالم الجديد العديدين من الأوروبيين منذ بداية عصر الاستكشاف، ومثلت أمريكا عبر القرون، تحديًا صعبًا وثابتًا للمجتمعات الأوروبية والآسيوية.

يفشل الأمريكيون في الغالب في فهم لماذا تصبح سلوكياتهم مصدر إزعاج للآخرين، وذلك لأنهم يعيشون في مجتمع تعتمد هُويته على الاعتقاد بقدرته المتواصلة على التحسن، فهم لا يستطيعون قبول فكرة أن الشعوب الأخرى تفضل التطور الثابت المبني على تحسين الأوضاع الراهنة على التغير الحماسي والذي غالبًا ما تسعى وراءه أمريكا.

يأتي خليط قوة التحول الأمريكية والمنظور التاريخي الأوروبي والآسيوي بالعديد من المزايا، وذلك في أوقات الأزمات والتغير، وسيكون اكتشاف كيفية استغلال تلك المزايا أحد أهم المهام المنوطة بفن الحكم الدولي في السنوات القادمة.

إن مطلبنا الوحيد هو أن يقترب القراء من فهم موضوع أمريكا ودورها العالمي، مع الوعد بالسعي للحصول علي نظرة جديدة ومنهج متفتح لفهم ما يقرؤونه. لقد أدت الحرب الثقافية التي دارت على مدى الأربع عقود الماضية، إلى ظهور مشاعر عميقة مدفونة تجاه الولايات المتحدة وأوروبا، وعلاقة كل منهما بالآخر، لقد تركت تلك الحقبة لدينا جميعًا مشاعر مليئة بالغضب والإحباط نتيجة للصراعات والخلافات الموجودة داخل مجتمعاتنا. إن أحد أهم المقتضيات التي نستنتجها من تناول العهد الجديد هي أن الحياة السياسية على جانبي الأطلنطي أصبحت على الأرجح أهدأ وأكثر واقعية، لقد استهلكتنا المناقشات والهموم حول فرضية أن مجتمعاتنا لم تعد صالحة للعمل بعد الآن، ونستشعر رغبة كبيرة على جانبي الأطلنطي في الحصول على وسائل ومناهج جديدة للتعاون الواقعي والتي تنبذ القوالب المكررة وصراعات الماضي. إن هدفنا في هذا الكتاب القصير هو تقديم بعض النقاط الإرشادية التي تساعد على اكتشاف الطريق نحو الطريقة الجديدة للحكم.

نحـن اثنان من الخبراء المراقبين المحنكـين، أحدنا أمريكي والآخر ألماني، وقد راقبنا تاريخ الخمسين عامًا الماضية، تارة كمشاركين مباشرين وتارة أخرى كصانعي قرار، أما بالنسبة لمهنتينا فأحدنا يعمل صحفي، والآخر يعمل دبلوماسي، وكلتا مهنتينا علمتنا تفسير الأحداث بصورة موضوعية بقدر الإمكان، وسـنبذل قصارى جهدنا للحفاظ على ثقة قرائنا الذين انضموا إلينا في هذا البحث.

نأمـل أن نقـدم مـن خلال هذا الإصـدار (الكتاب) أداة عملية تسـاعد على فهـم ما الذي يفكـر فيـه الأمريكيون في الوقت الحالي، وكيف سـيكون رد فعلهم نحـو العديد من المصاعب والمشـكلات القادمـة. إن هدفنا هو توفير دليل وقائـع (حقائق) وانطباعات، والذي يسـتطيع مسـاعدة الأمريكيـين وغير الأمريكيين في الوصول إلى فهم أفضل حـول كيفية تعامل المجتمع الأمريكـي مع التحديات العديدة التي تواجهه، ولماذا من المرجح أن تسـتمر الولايات المتحدة في ممارسـة دور بهـذا الحجم من الأهمية في العالم، وكيف يمكـن لها وللدول الأخرى أن يعملوا معًا من أجل إنجاح هذا الدور في المستقبل.

لقد صاغها دانييل بورشـتاين Daniel Boorstein على هذا النحو في دراسـته الكلاسيكية «الأمريكيون ..... التجربة الديمقراطية»:

«منـذ البدايـة، أبـدى الأمريكيـون عـدم رغبتهـم في تصديـق أن هجرتهـم، توسـعهم، دبلوماسـيتهم، وحروبهم لم يكن لها غرض سـامٍ، ولطالما قاموا بتقديم ذلك الغرض غالبًا على أنه «مهمة..... Mission».

الفصل الأول

تنصيب الرئيس ـــ أسطورة أمريكية

كان ذلـك في العشريـن من شـهر نوفمبر في السـاعة الثانية عـشرة ظهـرًا في أمريكا عندما بدأ الرئيس المنتخب في تلاوة اليمين الدسـتورية ليتوقف في منتصف الطريق، انقطعت أنفاسي باعتبـاري معلق أسـتوديو برلين الإخباري على حفل تنصيب الرئيس هـل غيَّر الرئيس رأيه في آخر لحظة؟ هل أدرك أنه لا يمكن عبور الهوة السـحيقة بين التطلعات وبين تحقيقها، هل اختار رسـول التغيير أن يسـلك طريـق الراهب في الصحراء بـدلًا من طريق الواعظ فـوق المنبر كأن وحيًا قد هبط عليه؟

منذ بداية الصعود العجيب لباراك أوباما من الكتلة الديمقراطية والمعجبون والمهووسون المؤيـدون والمعارضـون مهـدوا طريقه السـياسي والمتحولون عنـه العرافـون وقارئو الكف يخشـون من أن يفشـل البطل أو يختفي أو يحكم عليه القدر بطريقة أخرى؛ لأن باراك أوباما من وجهة نظرهم لم ينتخب وإنما تم اصطفاؤه، وقد أسمته «أوبرا وينفري Opra Winfrey» سـيدة البرامج الحوارية الأنجح على مسـتوى العالم (المختار) وسـار على نهجها الملايين ممن يتابعون برامجها.

إن أوباما يجسد تلك الوحدة المتآلفة من مجموعة من الصفات المتناقضة: التواضع والكبرياء الأناقة والجدية البلاغة ولغة الجسـد، فهو رياضي ذو بطن مشـدود يؤلف الكتب الجدلية، وهو عاشـق للسـفر يحـرص على عائلته، كما أنه صاحب رؤية يعشـق التشـيز برجـر، فتجده خفيف

الظـل صاحـب أذنين طويلتين مثل ويل سـميث وجذابًـا مثل جورج كلـوني.. معجبًا بروس سبرنجسـتين Bruce- Springsteen وفي نفس الوقت عاشق لباخ يجمع بين شخصية المخلِّص والسـخرية الذاتية فنجده يقـول: «أنا لم أولد في المذود ولكن على كوكـب كريبتون Krypton» (الكوكب الأصلي الذي جاء منه سوبرمان) وإذا صح أن هناك رئيسًا أمريكيًّا يجمع بين وجاهة الملوك وقوة رؤسـاء الوزراء، فإن أوباما أوتي علاوة على ذلك بسـحر (صن بويز)[1] فهو يجمع بين الموهبة والاحتراف.

نظـرًا لأن كل الآمـال فيـما يتعلق بالخروج مـن الأزمة الكبرى باتت معلقـة على «المختار» فـإن البدائل تبـدو رديئة جدًّا.. تلك البدائل التي كان من الممكن أن تتحول إلى واقع منذ وقت غير بعيد، فقد حصد الجمهوري المحترم جون ماكين John MacCain من أصوات الأمريكان البيـض و46٪ مـن مجموع أصوات الناخبـين. أما البارعة هيلاري كلينتـون Hillary Clinton فكانـت في عدة مراحل على قدم المسـاواة مع أوباما في الصراع على السـلطة داخل الحزب، أما الخبير جو بايدن Jeo Biden الذي كان في البداية أيضًا مرشحًا للرئاسة فقد سجل انطباعًا جيدًا باعتباره ممثلًا للحزب.

غـير أن الثلاثـة جميعهـم وغيرهم ممن كانوا يحلمـون بالمكتب البيضاوي بـدوا كأنهم شيء عفـا عليـه الزمـن، ولم يحتملوا المقارنة مـع البطل الذي كان يبدو شـابًّا جديـدًا مختلفًا وعصريًّا جذابًـا وجديرًا بالثقـة. ففي هذه الأثناء كان عدد كبير من الأمريـكان عبر الأحزاب يثقون به، ويعتقدون أن لديه هو وحده القدرة على توجيه الأمة للخروج من الشك وعدم الثقة بالنفس، وعندما سكت فجأة وهو يتلو اليمين الدستورية، ربما قد طرأت للمشاهد فكرة أن حتى أوباما الواثق بنفسه قد يعيد النظر في مسألة المكتب البيضاوي.

هـل يـترك بطل المسرحية الأمريكية (في ذروة الظهيرة) شـعبه في ورطة؟ أم أن نمطه المرح سمح له بالمزاح مع اثنين مليون مواطن متواجدين بالمكان، والملايين في جميع أنحاء العالم الذين

---

(1) فرقة موسيقية أسترالية. (المترجمة).

كانوا يحدقون مشدوهين في ذلك المشهد؟ أو أن المرشح المثالي أبدى ضعفًا؟ وهي الفكرة الأكثر رعبًا، وكما اتضح: لا شيء مما سبق، فالعصبية أفقدت القاضي الأعلى الذي كان يتلو اليمين الدستورية توازنه، فأمهله الرئيس المنتخب بعض الوقت كي يستجمع قواه، لكن أوباما نفسه لم يختل، فقد أبقى يده اليمنى مرفوعة أما اليد الأخرى فكانت مستقرة فوق إنجيل لنكولن Lincoln بجوار يد ميشيل Michelle زوجته والسيدة الأولى رسميًّا: فيا لها من صورة رائعة بعثت الطمأنينة في نفوس الأمريكيين.

نشر المشاعر

في مساء التحليف انسل الزوجان الجديدان فوق أرضيات الرقص هذه أو تلك في قاعات الرقص والاحتفالات الكثيرة التي أقيمت في واشنطن Washington، وقد أعلن الرئيس الجديد على الملأ إعجابه بالسيدة الأولى وسأل الجماهير: «كيف تبدو زوجتي؟» ودعاها أمام العامة بلا حرج «حب حياته» وفي ليلة فوزه في الانتخابات أقر أمام ملايين المشاهدين قائلًا: «ماليا Malia وساشا Sasha لن تدركا مدى حبي لكما» فهل كان يتباهى؟

لا إن الجهر العلني بالمشاعر ليس فقط أمرًا مسموحًا به في أمريكا وإنما مرغوب فيه أيضًا. وهذا لا ينطبق فقط على البوتوس (POTUS) (اختصار يرمز إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية) ولكن أيضًا على الفلوتوس FLOTUS (السيدة الأولى) فكانت ميشيل أوباما تظهر ذراعيها وترتدي فستانًا بلا أكمام وبدت غير متكلفة، ولم تكن ترتدي ملابسها وفقًا للموضة وإنما كانت تجعل من نفسها نموذجًا للموضة.

«إنها جاكي السوداء الجديدة» هذا ما كان يراه مصمم الأزياء فولفجانج جوب Wolfgang Joop وقد امتدح ذوقها العجيب الذي كان يذكره بجاكلين كينيدي، أما الطفلتان ساشا وماليا فكانتا تشبهان موديلات العرائس، أما ميشيل أوباما فقد كانت قادرة على منع مثل

هذه العرائس من أن تحمل اسميهما. وعلى أية حال كان باراك أوباما بالنسبة للكثير من الأطفال أميرًا أسطوريًّا فهم أخلص أتباعه كما أوضحت الإحصائيات.

ويسمى الأمير الشعبي الجديد بلغة المخابرات السرية «المتمرد Renegade» وزوجته ميشيل «النهضة Renaissance» أما الابنة الكبرى ماليا فتسمى «تألق Radiance»، وفي هذا إشارة إلى جوهرها المتألق وتسمى الابنة الصغرى ساشا «البرعم Rosebud» أي برعم الزهرة وقد نظمت المخابرات داخل البيت الأبيض قصيدة من أجل الرباعي الجذاب.

توقفت الحكاية للحظة ثم استأنفت كتابة الأسطورة الأمريكية، ففي نفس اليوم وقَّع الرئيس الجديد على أول مشروع قانون غير أنه لم يفعل ذلك بيده اليمنى نفسها؛ لأن باراك أوباما أعسر، ومن أجل الاطمئنان ومن أجل التاريخ كرر الرئيس الجديد حلف اليمين مرة أخرى أمام القاضي الأعلى والشهود خلف أسوار البيت الأبيض. فاللحظة التاريخية خالدة ليس فقط بسبب المرشح وسيرته الذاتية غير العادية ومواهبه الاستثنائية ـ لكن أيضًا بسبب استكماله لملحمة أمريكا باعتبارها أرض الميعاد.

النظام الملكي الانتخابي

في الخامس والعشرين من شهر مايو عام 1787، اجتمع تحت الأمطار الغزيرة في فيلادلفيا Philadelphia ممثلو ثلاث عشرة دويلة كانت قد حاربت حتى تحررت من التاج الملكي الإنجليزي، وأراد هؤلاء أن يكونوا وطن بلا ملك وبلا أرستقراطية من اتحادهم الهش الذي كان يضم آنذاك أربعة ملايين أمريكي، وبعد الكثير من الاختلاف والفتن أصدر ميثاق الأمة دستورًا وصفه الكاتب الناجح جيمس ميشينر James Michener كالتالي: «إذا كان الأمر يتعلق بمن أوجد الشكل المناسب للحكومة فنحن الأسبق في هذا المضمار».

غير أن الديمقراطية ولدت أولًا في اليونان وتعلمت السير في إنجلترا لكن في أمريكا ظلت الديمقراطية في بيتها منذ ولادتها، كما كان للأمة أيضًا قائد يقوم على خدمتها، قائد

يسمو فوق كل المشاحنات والمهاترات مارشال لا يحمل لقب نبيل: إنه جورج واشنطن George Washington فلم يجعل واضعو الدستور في ذلك العصر من جورج واشنطن إمبراطورًا ليس لأنهم أحجموا عن هذا المطلب ـ لا فوقت تأسيس أمريكا تم تصميمها بالفعل لتكون قوة عالمية قادمة ذات أبعاد ملكية إلا أن الثورة الأمريكية كانت قد اندلعت لتوها ضد الملكية في أوروبا.

حارب وزير الخارجية ومؤلف إعلان الاستقلال توماس جيفرسون Thomas Jeferson الملكية، وكذلك الرئاسة مدى الحياة وأعلى من شأن البرلمان ليتفوق على مكتب الرئاسة ووفقًا لرغبته كان لا بد أن يعلو كابيتول Kapitol العالم الجديد فوق بيت الرئيس: الشعب فوق المنصة والخادم الأول راكعًا عند قدميه، وعليه أن يقطع الطريق من الأسفل إلى الأعلى على قدميه، وأن يؤدي اليمين الدستورية أمام البرلمان والشعب.

إذن فإن جيفرسون كان أول رئيس استطاع أن يسلك هذا النهج لأنه فقط في عام 1801 ارتفع بيت الرئيس الصغير والكابيتول من مستنقع يقع على نهر بوتوماك Potomac، وفي تلك الأثناء تمت المسيرة إلى الكابيتول بمرافقة السلف لتجنب اندلاع العداوة المحتملة بين فريق الحكومة القديم وفريقها الجديد، ومنذ ذلك الحين والقطاع العسكري يتواجد أثناء تلك المسيرة للحماية ولأن الرئيس كان أيضًا القائد الأعلى للجيش.

كما أدخل جيفرسون أيضًا لغة الخطابة التبشيرية في الثروة اللغوية السياسية، كما يبين إعلان حقوق الإنسان الذي قام بتأليفه: «إننا نعتبر هذه الحقائق أمرًا بديهيًا، وأن الناس قد خلقوا سواسية وقد منحهم الخالق حقوقًا محددة وثابتة...».

إن وعي الأمريكان يتغذى دائمًا على المثل النبيلة والأهداف الواقعية، وقد أطلق علماء الاجتماع على ذلك مصطلح «الديمقراطية الشعبية Grassroots democracy» كما أنهم نسبوا هذا المصطلح أيضًا إلى جيفرسون الذي لم يكن فقط سياسيًا محنكًا، وإنما كان مالك مزرعة ناجحًا إلى حد متوسط، وفي النهاية خرج إلى الضوء النظام الملكي الانتخابي الذي انطلق من

قاعدة الديمقراطية الشعبية وسيطر عليه بيتيّ الكونجرس، كما أبرزت هذه الملكية الانتخابية الأسر الحاكمة: أسرة روزفلت وكينيدي وكلينتون نعم وحتى أسرة بوش الحاكمة.

جرت العادة في بعض العائلات الأخرى الناجحة أن يميزوا الأجيال بأرقام رومانية مثل جيمس بيكر الثالث James Becker III أو إدموند مييز الثالث Edmund Meese III وتوضح نماذج القصور الفرنسية والراينية على نهر هدسون Hudson بالقرب من نيويورك أو على المحيط الهادئ بالقرب من لوس أنجلوس أن بعض هذه العائلات كانت تحيا حياة الأمراء. وفي الثمانينيات قام ستيفان هيس Stefan Hess أحد المؤرخين المهتمين بدراسة علم الأنساب بتتبع بعض شجرات هذه العائلات، واكتشف أن ست عشرة من هذه العائلات أخرجت ثمانية رؤساء وثلاثة نواب رؤساء وثلاثين سيناتورًا واثنا عشر محافظًا. وهناك بعض الأمثلة على أن الرئيس كان أحيانًا يأتي مباشرة من الشعب ـ أساس القاعدة ـ مثل جيمي كارتر Jimmy Carter مزارع الفول السوداني وبيل كلينتون Bill Clinton اليتيم والممثل رونالد ريجان Ronald Reagan ـ وهم شواذ عن القاعدة.

بالرغم من أنه لم يصبح قط رئيسًا إلا أن السيناتور إدوارد كينيدي Eduard Kennedy كان يُحترَم ويُبجَّل كرئيس صوري لأمريكا الأسر الحاكمة. وبدورها قامت عائلة كينيدي بتلميع باراك أوباما الموظف الاجتماعي في الجنوب الأسود الفقير لشيكاغو وجعلت منه وليًا للعهد، فقد كانت كارولين كينيدي Caroline Kennedy شقيقة الرئيس جون إف كينيدي John F. Kennedy الذي تم اغتياله هي مساعدته في الانتخابات وقد كرمته إيثيل كينيدي Ethel Kennedy أرملة الرئيس جون كينيدي في لقاء معها في عام 2006 قائلة: «الآن أنت من يحمل الشعلة».

كان جون إف كينيدي ذات يوم الكاثوليكي الأول أما أوباما فهو الأسود الأول، في البيت الأبيض وإذا صدق القول بأن الأمريكان يحصلون دائمًا على الرئيس الذي يستحقونه فإن انتخابهم لأوباما، أمر استثنائي للغاية لأن كل تغيير رسمي يحمل نفس معنى إضافة فصل جديد في ملحمة الأمة، ويؤمن الكثير من الأمريكان في هذه الأثناء بالعناية الإلهية

والوعـد بـأن كل الناس قد ولدوا سواسـية، وقد حـاول أبراهام لينكولن أن يشـكل من هذا الوعـد دينًا شـعبيًا بأن يجعل من واضعي الدسـتور أنبيـاء، ومن إعلان الاسـتقلال نوعًا من العهد الجديد.

ابتسامة البشراء

لهـذا كان الكابيتول بالنسـبة للديمقراطيـة بمنزلة بازيليك القديس بطـرس، ويعود طابع المعبـد الخـاص بـه إلى البـشراء تلـك الطائفة مـن القساوسـة في العصـور القديمة التـي كانت تستكشـف إرادة الآلهة، وكانت على علم بالوعد، وكان القساوسـة يعبرون عن سـموهم على الشـعب «بابتسـامة البشراء» وهـذا ينطبق على بعض جماعـات الضغط (اللـوبي) في الكابيتول الذي يدافع بغيرة وفخر عن معبده المقدس.

عـلى أيـة حال يطلـق الأمريكان على تـولي المنصب مصطلـح التنصيب وهـو يحمل حتى اليـوم طابعًـا مدنيًـا ودينيًا حيث يقسـم الرئيس عـلى الإنجيـل «ليعينني الرب عـلى ما أقول» فمن المسـتحيل في الولايات المتحدة الأمريكية تلاوة القسـم دون الإشـارة إلى الرب كما فعل جرهارد شرودر Gerhard Schröder ويوشـكا فيـشر Joschka Fischer، ويسري هذا أيضًا على الدسـتور الأوروبي الذي لا يشـترط الديباجة الإلهية، فعدد رجال الأديان المختلفة الذين يطلبـون أيضًا بركات الـرب كبير جدًا. تنازل باراك أوباما عن قسـه جيرميا رايت Jeremiah Wright القادم من شـيكاغو؛ لأنه كان يحفز الأفروأمريكيـين على الرد على «عنصرية البيض» و«التعسف في واشنطن».

صلى أوباما صلاة التنصيب مع ريك وارين Rick Warren وهو قسيس لا يتبع أي كنيسة، لكنه ذو شأن كبير، في أكبر الدوائر الكنسية في كاليفورنيا ففي العطلة الأسبوعية تصل كلمات هذا القسـيس إلى 20.000 مؤمن في كنيسة سادل باك ميجا Saddleback Mega التي تقع على بحيرة فورست Forest و50.000 مشاهد في التلفزيون وريك وارين هو عالم لاهوتيات محافظ

يعتبر الإجهاض شيئًا مساويًا للهولوكوست ويعتبر شراكة المثليين عملًا من صنع الشيطان. وردًا على سؤاله في هذا الشأن في مناقشة معه قبل عام 2000 قال أوباما: «أنا لا أروج لزواج المثليين، لكنني أؤمن بوجود الشراكات المسجلة، وأنا أؤيد حق الإجهاض؛ لأنني أعتقد أنه لا يمكن لأي امرأة أن تتهور في اتخاذ مثل هذا القرار» حتى في هذه الآراء الأخلاقية الأكثر أهمية في أمريكا يبدي كل من أوباما والقسيس وارين الاحترام المتبادل بينهما.

أثنى الإنجيلي على انتخاب أوباما قائلًا «مارتن لوثر كينج سيبتهج في السماء» إنه مدح أهلًا للثقة؛ لأنه يأتي من المعارضة وهو اعتراف لأوباما بأنه وريث مارتن لوثر كينج Martin Luther King الذي صاغ في قوله عام 1963 «لدي حلم I have a dream» رؤيته حول المساواة بين البيض والسود.

أثناء وجبة الغداء مع كبار رجال الكابيتول ومن بينهم إدوارد كينيدي الذي كان مريضًا، غير أنه لم يرغب أن تفوته طقوس التتويج ألقيت الشفاعة الكهنوتية وكلمة شكر وفقًا للتمثيل النسبي الديني، وهو أمر معتاد في واشنطن السياسية، وفي ذلك المضمار نجد أن أمريكا هي أول دولة في العالم ليس لها دين رسمي، لكن كما ذكرت مجلة (تايم Time) فإن «الشعب الملحد يبحث عن مسيح». كانت هذه الطقوس البسيطة بالنسبة للهراطقة بين مشاهدي التلفزيون تعتبر كثيرًا من التقوى، لكنها تظهر أيضًا استمرار الرئاسة ويشدد القانون على الفصل التام بين الدين والدولة، لكن الحقيقة هي أن الدين والسياسة مرتبطان ارتباطًا وثيقًا.

يتمسك أوباما بالرب الرحيم في حين أن سلفه جورج دبليو بوش كان يؤمن أكثر بالرب العادل، فقد أمَّ ذلك المسيحي الذي ولد من جديد أمته في الصلاة وقاد معها تسليحه الأخلاقي والعسكري، وبعد الهجوم على مانهاتن Manhattan في سبتمبر 2001 أخذت تقوي الشعب دفعة أخرى وفي الحقيقة يعزى الفضل في انتخاب الرئيس الثالث والأربعين لدورة ثانية إلى عودة التدين إلى قلوب الأمريكيين في الجنوب الديني وصولًا إلى الغرب المقاوم، فقد أقسم

بوش في حربه ضد ما أسماه «بقوى الظلام» على فضيلة الجهاد الأمريكي والتمسك بالإنجيل ومنحه الهجوم على برج التجارة العالمي هو وأتباعه دفعة قوية.

أما إعادة انتخاب بوش للمرة الثانية في العشرين من يناير عام 2004 والذي كلف حفل تنصيبه 40 مليون دولار ليصبح الأكثر بذخًا في تاريخ هذه الدولة، فقد اعتبرها بمنزلة هدية عن الثقة التي منحه إياها أغلب الأمريكان ولإيمانه بالوعد الإلهي، وكان على المشاركين أن يدفعوا ثمن هذه الهدية غاليًا: بإنفاق ما يصل إلى 250.000 دولار لكل مقعد قرب المنصة ومن أجل العشاء الذي أقيم على ضوء الشموع.

كان الممولون على وجه الأخص هم شركات التكنولوجيا المتطورة وصناعة الأسلحة أو شركات إنتاج الطاقة وبورصة وول ستريت Wall Street، فقد مهدوا لجورج دبليو بوش الطريق لفترة رئاسة ثانية، وانتظروا منه رد الجميل مثلًا تنمية الموارد المعدنية لألاسكا أو مكافأتهم بإرسالهم كسفراء في جميع أنحاء العالم أو تخفيض الضرائب أو مواصلة بناء حزام الصواريخ في الفضاء الذي من المفترض أن يجعل الولايات المتحدة الأمريكية ذات يوم حصينة منيعة، أيضًا كانت هناك الكثير من الوظائف الشاغرة في سياسة مواصلة الحرب الوقائية، وكان ذلك سببًا لسعادة البشراء الورعين.

لكن لم يحدث من قبل أن سقط رئيس في فترة رئاسته الثانية بالسرعة التي سقط بها جورج دبليو بوش فتحت حكمه فقدت الأمة احترامها، وخسرت قوتها الاقتصادية، وتداعت من الناحية الأخلاقية والسياسية كما زادت الفجوة الاجتماعية، وقد بحث الكثير من الأمريكان بعد تجربة الاستنزاف الذاتي بالإرهاب ورد الفعل المتزمت والانتقامي عن طريق آخر لتجاوز هذا القلق الداخلي.

لقد ترجم جميع المتنافسين على الرئاسة في انتخابات 2008 تلك الرغبة في التحول والتغيير إلى اللافتات الانتخابية، فكانت تهدف إلى الأمل بدلًا من اليأس، وكانت تتحدث عن التأمل الذاتي بدلًا من التفاخر بالذات، وكانت الأمة على وشك أن تجد نفسها من

جديد، فأثناء تلك القضية لم تحدث السنوات الثماني الرصاصية فقط الأضرار بالأمة، وإنما أيضًا كانت دليلًا قاطعًا على أن أنها تسير في الاتجاه الخاطئ، ودليلًا على حتمية تجديد الذات بالطريقة المناسبة.

لو لم يأتِ فاشل مثل جورج دبليو بوش لربما كان قدوم مجدد مثل أوباما أمرًا غير محتمل، لكن كثيرًا ما قام الأمريكان على مر تاريخهم بمثل هذا التغيير، ودائمًا ما كانت مراجعة الماضي والعودة إلى فضائل العهد الرائد والأيام الأولى تساعدهم في تحقيق هذا التغيير، فالأمريكان يبدؤون في الإطراء عندما يتحدثون عن مثلهم العليا: الحرية والتطور الحر للشخصية كرامة الإنسان وحقوقه تكافؤ الفرص والتسامح.

لقد قيست فكرة تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية وحقها في السلطة والتوسع، وثبت أن تحقيق هذه الفكرة ممكنًا، لكن عندما كان الأمريكان يتأكدون من أنهم قد ابتعدوا عن أفكار المؤسسين أو تجاوزوها من الناحية الإيديولوجية كانت آلية التصحيح السياسي والاجتماعي تتدخل الدين الآخر، الرأي الآخر، اللون الآخر، الجنس الآخر، التمرد الحزبي، وحتى مثيرو الشغب كانوا يمنحونها القوة ويعيدون أجواء التفاؤل إلى الهياكل والعقليات البالية التي عفا عليها الزمن، فيحدث تغير المجتمع وقواعده بسرعة كبيرة جدًّا.

كذلك ينمو الوعي بالخطوط الفاصلة غير المتوقعة مثل التمييز بين التأمل والاكتفاء، وبين من يمتلكون غزارة الأفكار والقدرة على الختراع من ناحية، وبين ما لا يمكن تدريسه وما لا يمكن لمسه وما هو منزه من ناحية أخرى، ويأخذ هذا الفصل شكل تحدٍّ جديد للأمة، فقد غزت الأمة البلاد وهاجمت العالم، ويبدو الآن أنها تخترق مجهول الروح الذاتية، لكن في كل ذلك يحتاج الأمريكان إلى قائد شريف رائد نبيل من داخله مهيب الهيئة (الملكية)، ونظرًا لأن شبح الآلام الملكية يعيش في هذا الشعب الجمهوري فقد تبدت الرغبة في قائد جديد يمكن للشعب أن يحترمه ويحبه يبجله ويحبه، ويكون قادرًا على ملء الفراغ الأخلاقي والسياسي الذي ظهر بفعل البرامج والأفراد المستهلكين.

لم يحدث قط أن جذب تنصيب أي رئيس جديد هذا العدد من الجماهير مثلما حدث في العشرين من يناير 2009، فقد أراد مليونا مشاهد رؤية بوش يرحل وأوباما يأتي، ووفقًا للتقاليد كان على بوش أن يرافق أوباما إلى الكابيتول وعلى أوباما بدوره أن يقود بوش حتى المطار بعد حلف اليمين، ويعتقد الساخرون أن المغزى من وراء هذا التقليد: هو أن يتأكد الرئيس الجديد أن الرئيس القديم قد رحل، والمعنى الديمقراطي في هذا التقليد هو نقل السلطة، أما الشيء الأمبريالي فيه هو أن التنصيب يتحول في الغالب إلى حفل تتويج.

حيث تلوح النجوم والمشارب وتنطلق طلقات التحية وتعزف الطبول ويغني الكورال، ويسير آلاف الجنود ومواكب الوفود من جميع الولايات ليضفوا على الحفلات الراقصة بريقًا اجتماعيًّا، وتضيف كل لجنة رئاسية شيئًا ما على تلك الطقوس، وغالبًا ما تكشف طبيعة التغيير في تلك الطقوس شيئًا من أسلوب الرئاسة الجديدة.

جعل جون إف كينيدي الشاعر ديفيد فروست David Frost يؤلف له قصيدة، وجعل فرانك سيناترا Frank Sinatra يغني له أغنية، وأحاط نفسه بصفوة الأمة وأدخلت زوجته جاكلين كينيدي الموضة إلى الطقوس، ويعتقد كلاوس هاوبريشت Klaus Haupprecht وهو مراسل تلفزيوني ألماني بارز في فترة ما بعد الحرب أن من بين رؤساء القرن العشرين كان جون إف كينيدي هو من حقق على أتم الرضا مطلب الملكية الانتخابية التي تنتمي لهذا المنصب، والأرجح أن ذلك هو جوهر الأسطورة التي أحاطت به بعد موته مثل الدرع اللامع، لقد فجعت طلقات دالاس 1963 أمريكا في شبابها المتحمس، وقد شعرت أنا كشاهد على العصر أن موكب جنازة كينيدي كان يشبه الجنازات الرسمية لقياصرة الرومان الذين حكموا الأمة الألمانية.

أما بيل كيلنتون فقد سافر بالأتوبيس العمومي من عزبة جيفرسون Jefferson السابقة إلى العاصمة، وكان على متن الأتوبيس حشد من الضيوف متعددي الثقافات، وكانوا يمثلون ألوان الأعراق المختلفة داخل الأمة مثل ألوان قوس قزح، وسمح بإقامة حفل بوب أمام نصب

لينكولن وقرعت الأجراس فوق مقبرة أبطال أرلينجتون وفي مساء التنصيب انطلقت الألعاب النارية العملاقة تدوي في سماء واشنطن، ولم يكتفِ فقط بالرقص في الحفلات وإنما أخذ يعزف على الساكسفون.

أيضًا حقبة ريجان كانت ضمن الرئاسات الإمبريالية، فقد انتقل الممثل المثقف من الكابيتول إلى البيت الأبيض في سيارة كابريوليت فخمة مفتوحة بسواق، وكان ريجان يبدو كنجم من نجوم هوليوود، وبعد تولي الجمهوري المحافظ منصبه قال لي في عام 1981 جيمس ريستون James Reston المحرر الليبرالي اليساري في جريدة نيويورك تايمز New York Times: إنني لم أنتخب ريجان لكن آخر رؤساء أمريكا كانوا عصبيين ومعقدين، فقد كان جيمي كارتر يريد أن يغسل بنفسه كل صحن، وكان ريتشارد نيكسون Richard Nixon مشدودًا مثل الطبلة أما ريجان هذا فهو يبدو هادئًا وودودًا ومرتبًا.

في عهد ريجان ملئت العاصمة الإمبريالية بالآثار الجديدة، وارتدت جادة بنسلفانيا التي كانت قبل ذلك فاصلًا مهجورًا بين الكابيتول والبيت الأبيض رداءً متألقًا جديدًا، وأصبحت الكرنفالات تعيش على طراز القصور، وعلى مدار فترة رئاسته كان ريجان يستخدم دائمًا ضمير «نحن» الذي كان يبدو أنه جمع التفخيم على كل حال كان رونالد ونانسي ريجان يشاركان الأمة في الشعور الجماعي: أن تكون أمريكي ليس معناه أن تكون تافهًا أو عاديًا لكن معناه أن تعرف أن الحرية نعمة وحق أساسي».

بالمناسبة لقد ظل ريجان أثناء حلفه اليمين للمرة الثانية بالداخل، فقد بلغت درجة البرودة في العشرين من يناير عام 1985 عشرين تحت الصفر لتصبح الأكثر برودة في تاريخ التنصيب الأمريكي، وربما كان الرئيس ويليام هاريسون William Harrison خير مثال بالنسبة له، فقد ألقى الرئيس الجديد في عام 1841 خطبة استمرت ساعتين في الصقيع دون أن يرتدي قبعة أو معطف، وبهذا جلب على نفسه الوفاة نتيجة لإصابته بالبرد.

احتل ويليام هاريسون الأكثر إثارة للشفقة في التصنيف الشائع في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أي تقييم الرؤساء ـ المرتبة التاسعة والثلاثين بالقرب من جورج دبليو بوش في المرتبة السادسة والثلاثين في قائمة أفضل الرؤساء التي صدرت في عام 2009، بينما ظل واشنطن وجيفرسون ولينكولن روزفلت في المراتب الأولى وبعد المراتب العشرة الأولى جاء كينيدي وأيزنهاور وريجان، وكانت الخصائص الحاسمة بالنسبة للمؤرخين الخمس وستين في هيئة المحلفين هي إدارة الأزمات والسلطة الأخلاقية والحكمة الاقتصادية والعلاقة بالكابيتول والعلاقة بالخارج وحس العدالة وقوة الإقناع، وقبل كل شيء الرؤية، أما باراك أوباما فقد فكانت شعبيته كبيرة لكنه يعرف ويقول بلسانه أن التنبؤات والسلوكيات ملونة ومبهرة، أما الحياة اليومية والتصرف فيها فهو رمادي.

رجل بلا بيئة

تم تنصيب الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية تحت البرودة القارصة، وعانى من تلك البرودة البرنامج الجانبي، فقد كانت أريثا فرانك Aretha Frank تغني بصوت أجش، ولم تستطع الفرقة الرباعية عالية المستوى التي كان عليها أن تعزف مقطوعة إضافية ملحنة خصيصًا من أجل أوباما أن تقوم بعزفها مباشرة، وإنما فعلت ذلك بطريقة التسجيل المسبق Play back وظلت الكاميرا عالقة على عازف التشيللو يو يو ما Yo-Yo Ma وعازف الكمان إتساك بيرلمان Itzhak Perlman وعازفة البيانو جابريلا مونتيرو Gabrielle Montero وعازف الشبابة أنتوني ماكجيل Antony MacGill الذين كانوا يؤدون بطريقة دراماتيكية ما سجلوه منذ يومين قبل ذلك، ويعتقد بيرلمان «أن كل ما عدا ذلك كان سيئًا للغاية في ظل تلك البرودة القارسة».

تم تلحين مقطوعة جون ويليامز John Williams المشهور جدًّا والذي تنسب إليه موسيقى أفلام «حرب النجوم Krieg der Sterne» و«إنديانا جونز Indiana Jones» و«هاي

الأبيض Weiße Hai» من بين أفلام أخرى، وكانت تلك المقطوعة مستوحاة من أناشيد شاكر وهي كنيسة مسيحية حرة تتمتع بالاحترام في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب نمط حياتها الصفائي وفن الأعمال اليدوية الخاص بها، وكانت هذه الكنيسة تعمل كمستشار سياسي على سبيل المثال للرئيس لينكولن وروزفلت. عبرت المقطوعة التي كان اسمها مركبًا من آير Air وسيمبل جيفتس Simple gifts عن ميل أوباما للرمزية.

ينطبق نفس الشيء على قصيدة عهد بها أوباما إلى الشاعرة إليزابيث ألكسندر Elizabith Alexander وهي صديقة له من شيكاغو، وكانت القصيدة تدور حول يأس البسطاء الذين يحيطهم الأمل وهو موضوع أساسي للرئيس الجديد. كان التواضع مطلوبًا؛ ولهذا استغنى حفل التنصيب عن فخامة الأعوام السابقة، وبلغت التكلفة المالية لحفل التنصيب ما يقدر بسبعين مليون دولار وهو رقم قياسي جديد، ويرجع هذا إلى اللوجستية وإجراءات الأمن والإقبال وليس إلى التباهي وفخامة الحفل.

أبطال السماء السود

دعا أوباما إلى موكبه بمناسبة تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية طياري توسكيجيه Tuskegee وهم مجموعة من الأمريكان ذوي الأصول الأفريقية (الأفروأمريكيين) الذين ثم تجنيدهم أثناء الحرب العالمية الثانية في سلاح الطيران الأمريكي، وتم تعيين أولهم رغمًا عن مقاومة الكثير من الأمريكان البيض في عام 1941، وتعرض هؤلاء الطيارين لمتطلبات عالية جدًّا وخصومات شديدة وظلوا معزولين عن زملائهم البيض.

لكن مع استمرار الحرب أثبت الطيارون السود كفاءتهم وقوة أدائهم، وشيئًا فشيئًا استطاعت كتيبة الطيارين المكونة من ألف رجل إصابة 260 طائرة للقوات الجوية الألمانية وتحطيمها وإسقاطها، وأصبحت شهرتهم أسطورية باعتبارهم حامية مرافقة للقاذفات يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها.

لكن الاعتراف برجال توسكيجيه تأخر كثيرًا، وبهذا كان قدرهم كقدر الكثير مـن الأمريكيين السـود الذين حاربـوا من أجل وطنهم ولم يحظوا بالشـهرة إلا بعد وقت طويل على سـبيل المثال 150.000 من العبيد تم تحريرهم وجرهم للمشـاركة في الحرب الأهلية في صف الشمال أو جنود بافالو Buffalo الذين أثبتوا شجاعتهم في حرب الهنود.

حضر موكب العشرين من يناير 180 من طياري توسكيجيه، ويعتقد أنهم جميع من بقوا منهم على قيد الحياة ،فلم يكونوا ليفوتوا شرف السير أمام أول رئيس أسود، وكما قـال الرائد العجوز ويليـام برودووتر William Broadwater بمنتهـى التأثر: «أخيرًا أنجزنا مهمتنا» في هذه الأثناء كانت هوليوود قد اكتشفت أيضًا الأبطال السود: فكان من المفترض أن ينتج في عام 2008 فيلمًا لجورج لوكاس يتناول قصتهم الدارمية.

ديتر كرونتسوكر

كانـت مهمة الموكب المصاحـب للتنصيب أولًا تمثيل الولايات الخمسـين لأمريكا، وثانيًا تحيـة الرئيس القـادم وزوجته، وقد تـم انتقاء الجماعـات الطلابية من هاواي وشـيكاغو لتحية البوتوس (اختصار يرمز إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية) والفلوتوس (السـيدة الأولى) وسـار طلاب مدرسـة ويتني يونج Whitney Young الثانوية بجنوب شـيكاغو بكل فخر في الموكب أمام السـيدة الأولى التي التحقت بهذه المدرسـة لعدة أعوام عندما كانت لا تزال تحمل اسم ميشيل روبنسون Michelle Robinson.

كـما جاء وفد رسـمي مـن مدرسـة بوناهـو Ponahue الثانوية وهي مدرسـة خاصة كان أوبامـا يـدرس فيها تحت رعاية جديه البيض، أما طلاب هذه المدرسـة فهم من ذوي الأصول البولندية واليابانية والصينية والبرتغالية والإنجليزية، لكن أوباما الذي كان ينادى وقتها باسم باري Barry فكان هجينًا نصف أبيض والنصف الآخر أسـود، وكما ذكرت الموسـوعة المحلية

فقد كان ذلك التنوع العرقي يتسم بالتسامح، وكان ستيف كيس Steve Case مؤسس «أمريكا أونلايـن America Online» زميل لأوباما في الفصل، ويصفه بأنه متعاطف ومدمن للتوازن وماهر جدًّا في لعبة كرة السلة.

وقـت ولادته في عـام 1961 لم تكن هـاواي Hawaii قد انضمت بعـد إلى الاتحاد بصفتها الولاية الخمسـين، ولـو كان أوباما قد ولد قبل ذلك بعامين لما أصبح رئيسًـا للولايات المتحدة الأمريكية، فمن الناحية الجغرافية لا يوجد أي سـياسي في تاريخ الولايات المتحدة ادخر طريقًا آخر للوصول إلى البيت الأبيض.

تعرفـت والـدة باراك أوباما البيضاء عـلى والده الكيني الأصل في عـام 1960 في هاواي، لكـن والـده تخلى عـن عائلته بعد مولد ابنه بوقـت قصير، أما والدته فقد لحقـت برجل آخر إلى إندونيسـيا وذهـب معهم بـاري وخـلال الأعوام الأربعـة التي قضاهـا في جاكرتـا بقصورها ومقصوراتها وفي مدارسـها الإسـلامية والكاثوليكية تعرف باري ببيئة أخرى غريبة عليه، وإذا افترضنـا أنـه كان يحمل آراءً مسـبقة فلا بـد أنها تداعت في ذلـك المحيط المتعـدد الثقافات، ولم يـدرك أوباما أنه أفروأمريكي إلا أثناء دراسـته في نيويـورك، وأثناء عمله كموظف اجتماعي في شـيكاغو، ونظرًا لأنه عاش في الكثير من البيئات، فقد كانت كلها تبدو بالنسـبة له مجرد بدائل غير أن أيًّا منها لم يستطع أن يأسره.

إن شخصًا تنويريًّا مثل جوتهولد إفرايم ليسينج Gotthold Ephraim Lessing كان ليعتبر أوباما المواطن العالمي المثالي في عصره؛ لأن طريقه ظل خاليًا من أخلاقيات التبعية للسلطة، أما من الناحية الطبية فكانوا سـيعتبرونه الخلية الأصل، ومن الناحية الفسـيولوجية فهو الإسـقاط الـذي يمكـن أن تنعكس عليه تشـكيلة هائلة متنوعة مـن الآراء والاتجاهـات، وهناك آخرون يتعجبون من قدرة أوباما على أن يضع نفسـه في الكثير من حالات التجمع المختلفة كل حسب جمهورهـا، وكتب نورمان ميلر Norman Mailer: «إن شـخصية الرئيس تحدد الأمة» لكن أي شخصية يمتلك هذا الرئيس؟ هذا ما يحير المخططون السياسيون.

لقد تطور هذا الرجل عديم البيئة بسرعة كبيرة ليصبح قائدًا «لشعب دونما خصائص» مثلما يطلقون على الشعب الأمريكي نظرًا لتنوعه العرقي، ومن الواضح أن هذا الشعب كان ينتظر رجل مثل أوباما، وكان يطمح بذلك أن يتخلى أوباما بتوليه هذا المنصب عن أي نوع من الجعجعة وجاء الموكب والحفلات الراقصة الكثيرة والأحداث الإضافية نابعة من مبادرات خاصة.

أثناء رحلة أوباما الطويلة إلى منصب الرئاسة وقبل وصوله إلى الهدف بقليل نظم عالم الأضواء أمام نصب لينكولن عرضًا من أجل أوباما ستيف وندر Steve Wonder وبروس سبرينجستين توم هانكس Tom Hanks وفوريست ويتيكر Whitaker بيونسيه وكوين لاتيفا ـ معبودة الجماهير التي كانت تقف بنفسها في الوسط، كل هؤلاء شكلوا ما يشبه الحاشية من أجل تتويج أوباما، إنه لم يوجه إليهم الدعوة بل على العكس كان يحافظ على وجود مسافة بينه وبينهم منذ أن تذرع خصومه السياسيون في أماكن انتخابه برؤيته بمصاحبة بريتني سبيرز Britney Spears وباريس هيلتون Paris Hilton والآن تسجد هوليوود عند قدميه، وأطرى عليه جورج كلوني قائلًا: «لقد جاء إلينا ونريد أن نتبعه إلى أي مكان وإلى كل مكان» أما هال بيري Halle Berry فقد قالت: «أنا مستعدة حتى لأن أرفع الأكواب البلاستيكية لأفسح له الطريق» لقد نظمت هوليوود عرضًا تمهيديًّا «للمهمة المستحيلة» غير أن عرض النجوم جذب جمهورًا أقل من التنصيب.

ظهر من الواضح أن الملايين التي كادت تتجمد من البرودة القارصة هناك لم تأتِ من أجل العرض، ولكن من أجل رسالة أوباما، ومن أجل أوباما نفسه وبشيء من المفاخرة والثقة بالنفس استقبل أوباما ذلك الإجلال، وقد استطعنا نحن الألمان أيضًا أن نلاحظ هذه الظاهرة عندما حضر أوباما إلى برلين في شهر يوليو، لقد كان المرشح في حاجة إلى صورة مستقبلية من أجل الناخبين الجالسين في منازلهم والكثيرين الذين كانوا يصغون إلى رسالته، فاختار أعمدة النصر لأن بوابة براندنبورج Brandenburger كانت بمنزلة الكواليس بالنسبة له.

كان شـارع 17 يونيو وهو الطريق الذي يربط الأثرين لا يبدو جذابًا إلا عندما تحتله أميال مـن الجماهـير المعجبة، قام أوباما بالمخاطرة وكوفئ من قبل المائتي ألف مشـاهد الذين شـهدوا لـه بالإعجاب أمام شاشـات التلفاز، أما كبار الصحفيين الذين كانـوا برفقته مثل ديانا أمانبور Diana Amanpour فقـد احترمـوا خطبته فقد صيغت هذه الخطبـة أولًا وأخيرًا من أجل آذان وأعين المشاهدين الأمريكان لكنها كانت تحمل طابعًا منهجيًا؛ حيث كان موضوع الخطبة يتناول سـقوط وتحطم السـور بين الأصدقاء والأعداء بين الأغنياء والفقراء بين الأجناس والطبقات وبين المسلمين والمسيحيين واليهود تلتها مقارنة بين عامي 1989 و2009.

كانـت سـنة 1989 هي سـنة الآمـال والتغيير والوحـدة التي تحيط بهـا الشـفافية الجديدة والمكاشفة أو الجلاسنوست كما وصفها ميخائيل جورباتشوف Michail Gorbatschow، ففي عام 1989 انسـحبت الشـيوعية إلى بروسـيا الشرقية، والذي كانت إحدى نتائجه أن البرنامج المضـاد أو الرأسـمالية لم تعد هـي النظام الأفضل، وقـد علق زميلي الصحفي جوسـتاف ترامبه Gustav Trampe على ذلك الخطاب قائلًا بلهجة سـاخرة: «دون التأثير الكابح للاشـتراكية لم تكن الرأسمالية لتخرج عن السيطرة فالهجوم على وول ستريت في سبتمبر 2001 لم يصب سوى برجين توأمين فقط وليس النظام بأكمله».

بعد عشرين عامًا من سـقوط السـور، جاءت أحداث وول ستريت بإباحيتها الخاصة، ولم تمنـع حكومـة بوش ذلك، وربما تكون قد سـمحت به، عـلى أية حال هذا مـا يعتقده الصحفي الأسود المشهور ديفيد بينكني David Pinckney.

«أنـا لا أريـد أن أحـدث انطباعًا بـأن بوش وتشـيني والجمهورين الآخريـن مثل هونيكر Honecker أو الشـيوعيين في ألمانيـا الشرقيـة ـ لكـن الحدثـين كليهـما: سـقوط السـور وانتقال الحكومـة إلى أوباما أحدثا ثورة مشـاعر عامة في شـوارع العالم، إنه الانطبـاع بأن هناك حقبة قد ولت وانتهت وإنه قد يحدث تغيير جذري.

سـواء كان مدفوعًا من قبل التاريخ أو مسترشـدًا باقتناعه الخـاص، فإن أوباما قاد المعركة الانتخابيـة بتلـك المصطلحات المألوفة تمامًا، وهـي الأمل والتغيير والوحدة، واسـتند في ذلك على وعده بأكبر قدر ممكن من الشـفافية، وبعد المائتي ألف متفرج الذين شـاهدوه في برلين كان هنـاك مليونا متفرج في المتنـزه الواقع بين الكابيتول ونصب لينكولن، وقـد جاؤوا ليروا أوباما يعلن عهدًا جديدًا.

لقـد توقع الجمهـور الرثاء كما تعود دائـمًا عندما تكون الأمة في مـأزق وتنتظر قدوم رجل الأزمات إلى البيت الأبيض، وأحس جميع الرؤساء بهذا النداء وبعضهم خلده بعبارات لا تزال عالقـة في ذاكـرة الأمة، وكلما كانت أعمق في التاريخ كلما كثر اقتباسـها والاستشـهاد بها، فعلى أحجار قبره نحتت جملة كينيدي: «لا تسـأل ماذا يمكن أن يقدم وطنك لك، ولكن ماذا يمكن أن تقدم أنت لوطنك».

كما تصلح كلمات فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin Delano Roosevelts الذي أخرج أمتـه من الإحباط ثـم قادها للدخول في حرب عالمية لكتابة التاريـخ: «إن الشيء الوحيد الذي يجب علينا أن نخشاه هو الخوف نفسه».

وجـاءت دعوة إبراهـام لينكولن لوحدة الأمـة بعد الحرب الأهلية الدمويـة وقبل اغتياله بشـهر واحد كالتالي: «عدم الاسـتياء من أحد والشـفقة تجاه الجميع.... دعونا نطمح إلى ذلك وننهي عملنا ونضمد جراح الأمة».

أما جيفرسـون فقد قال بعد معركة انتخابية سيئة وعدد قليل جدًّا من الناخبين: «لا يوجد فرق رئيسي بين الآراء المختلفة جميعها غير أننا نسميها بأسماء مختلفة، أما الإخوة في الفكر فلهم نفس المبدأ».

أو واشنطن في فترة اليأس الكبير حيث أوشكت على الهزيمة في معركة الاستقلال: «يجب أن يعـرف العـالم المسـتقبلي أن في منتصف الشـتاء حيـث لا يمكن لشيء أن ينجو سـوى الأمل والفضائل، كانت المدينة والدولة مستعدتين لمواجهة الخطر المشترك».

استخدم باراك أوباما تلك العبارة التي تعود إلى أب هذه الأمة على سبيل التشبيه في خطاب توليه الرئاسة.

«أمريكا بخصوص تلك الأخطار التي تحيق بنا جميعًا وفي هذا الشتاء القارص.... دعينا نتغلب مرة أخرى على التيارات الجليدية، ونعترض العواصف التي تريد أن تهب علينا، ولنهتم بأن يقول أبناء أبنائنا إننا رفضنا الانسحاب والتوقف عن الرحلة عندما وضعنا على المحك، وإننا لم ننقلب صاغرين، وإننا واصلنا موجهين أعيننا إلى الآفاق وببركة الرب الحفاظ على تلك الهدية الغالية الرائعة هدية الحرية، وإننا سلمناها للأجيال القادمة».

إن أوباما يجيد الرثاء على نحو رائع لكنه لا يكتبه بنفسه، فهو يستشهد بأقوال سابقيه إما حرفيًا أو من حيث المعنى، إنه يسعى إلى سياسة جديدة سياسة المسؤولية مثل كينيدي فهو يرفع الأمل فوق الخوف مثل روزفلت، ويقسم بالوحدة مثل لينكولن أو جيفرسون، لكنه أيضًا اختصم مع سلفه بوش قائلًا: «يجب أن نحرض أنفسنا وننفض من علينا التراب» أو » ليس صحيحًا أنه يجب علينا الاختيار بين الأمن والمثل العليا» يا له من نقد لاذع لسياسة التحريض والقلق التي سادت في السنوات الماضية.

هتفت الجماهير فقط جورج دبليو بوش كان يصغي بوجه شاحب، وكان نائبه تشيني الذي كان جالسًا على كرسي متحرك بسبب شد عضلي أصابه وهو يحزم أمتعته يبدو كرجل ظل قادم من الحقبة الماضية، فما من عدو أو صديق إلا اعتبرا الاثنين مسؤولين عن أصل الأزمة، لكن المشاكل لن تختفي في عهد أوباما غير أن العالم يعتقد أنه سيخرج بها للضوء.

لم يصغ أوباما عبارات تنحت على الحجر ولكنه صمم إستراتيجية لتخطي الأزمة، وهذا يتفق مع متطلبات الأزمة وتوقعات الجماهير كما بينت ردود الأفعال، وقد مدحه جورج باركر George Parker من «نيويوركر New Yorker» قائلًا: «لقد قدم لنا ما هو أفضل من التألق البلاغي ـ لقد كان صادقًا وسوف يجد هذا الصدق مكانًا له في التاريخ، وسوف يكتب قصائده الخاصة».

جيل الألفية

استطاعت الواقعية أن تحطم الرومانسية في ذلك العشرين من يناير، فقد أثار خطاب أوباما دويًّا كبيرًا لدى أتباعه من الشباب على شبكة الإنترنت، فعلى الفيس بوك وماي سبيس MySpace وفليكر Flicker وتويتر Twitter وعلى جميع البوابات الإلكترونية وقواعد الاتصال كان هناك تبادل للآراء فاق كل التوقعات، ولم يحدث من قبل بهذا البعد فقد نُظمت آلاف الحفلات عبر الرسائل القصيرة أو أقيمت ببساطة عبر الإنترنت، وكان تغيير السلطة هو البداية لعصر جديد تحل فيه الشفافية وروح الفريق محل السرية والمشاحنات الحزبية والقوة تكمن في يد المدونات الشبابية هكذا كانوا يعتقدون بسبب عددهم الهائل فموقع ماي سبيس وحده يهيمن على 37 مليون مؤيد.

من ناحية نجد أن لهذا علاقة بالانتشار الهائل للإنترنت ومن ناحية أخرى بالاستخدام الأول من نوعه للإنترنت في السياسة، والذي كان نتيجة لذلك الانتشار فجميع الأحزاب استخدمت قواعد الاتصال المختلفة لخدمة أغراضها، لكن باراك أوباما كان أول من سخر إمكانات التواصل عبر الإنترنت لصالحه ولصالح حملته الانتخابية على نحو غير مسبوق فقد تعلم ذلك من عمل أسلافه المشتغلين بالسياسة أو الاجتماع، فقد كان هدفهم هو بناء مجموعات أساسية تعمل عبر الإنترنت من أجل مشروع معين، وقد ابتكر المفكر اليساري جيروم أرمسترونج Gerome Armstrong في عام 2002 من أجل ذلك مصطلح الديمقراطية الإلكترونية netroots التي تتألف من الديمقراطية grassroots والإنترنت net.

في عام 2004، تمكن الديمقراطي هوارد دين Howard Dean من أن يخطب ود مجتمع الإنترنت بنجاح ويستعمل الديمقراطية الإلكترونية في حملاته، فقد أفادته كمعاون انتخابي ووسيلة لجمع التبرعات الصغيرة كما أنها خدمته كقاعدة للحركة الاجتماعية التي استطاعت أن تتطور إلى جانب الحزب، أما الديمقراطية الإلكترونية فقد سارت وراء دين بسبب معارضته للحرب على العراق ولاستقطاب المجتمع تحت سيطرة اليمين المحافظ لكن في عام 2004 لم

تكـن الحـرب على العـراق قد أصبحت بعد حربًا غير شـعبية، وبهذا لم تتفق رسـالة دين وروح العصر معًا، علاوة على أن هذه الرسالة لم تكن مركزة بالقدر الكافي، وأظهرت خللًا تنظيميًّا في تطبيقها من قبل رئيس الحملة جيو تريبي Geo Tripi.

غـير أن الديمقراطيـة الإلكترونية ظلـت فعالة، لكنها فقـط كانت تنتظر الفرصـة التالية، وجاءت تلك الفرصة تحمل عنوان التغيير الصادق «يمكننا أن نؤمن بالتغيير change we can believe in» ونشاط أوباما الإلكتروني البارع، وقد قال جيو تريبي وهو يقارن باحترام وبقليل من الحسد:

«كنـت أعتقـد أننا كنـا الأخوين رايت... فقد كنا نحلق في السـماء بعصـا التحكم الرفيعة والمروحة الخشـبية... لكن شباب اليوم ارتقوا إلى مرحلة جديدة... لقد تركوا البوينج... وهم في هذه الأثناء يركبون أبوللو 10».

في هذه المرحلة الجديدة تتحد أحدث وسـائل الاتصال الإلكتروني بحماس جيل الشـباب الـذي كـبروا مـع أنظمة الاتصـال هذه، أمـا تحفة حملـة الإنترنت فقـد كانت قاعـدة الاتصال الاجتماعيـة التي صنعت شـبكة من الأنشـطة سـواء أونلايـن أو أوفلاين، وحولتهـا من مجرد تعليمات افتراضية إلى مشروع واقعي، كما ذكرت المستشـارة السياسـية الألمانية كريسـتين بليفه Kristin Plehwe في كتابها الرائع الذي كان يتناول إستراتيجية نجاح باراك أوباما:

«لقد تطورت المعركة الانتخابية بمساعدة الإنترنت من كونها مجرد رسالة بسيطة إلى حركة حقيقية انتقلت من شخص إلى الآخر من متطوع إلى الآخر ومن بريد إلكتروني إلى الآخر ومن حفـل منـزلي إلى الآخـر... إن حركة أوباما لم تسـقط من السـماء، بـل كانت نتيجة إسـتراتيجية مدروسة قامت بالتالي على حيوية الشبكة الاجتماعية».

وتجـدر الإشـارة إلى أن أوبامـا نفـذ وصفات تـم اختبارها بالفعـل، ففي السـتينيات اتحد الأنفـار ذوو الأصول المكسـيكية العاملـون في مزارع الورد في كاليفورنيـا للمطالبة بحقوقهم،

وبرفع الأجور، وقد ابتكر العامل السابق سيزار شافيه Cèsar Chàvez (بالمناسبة لا تربطه أي صلة قرابة بالديكتاتور الفنزويلي) شعارًا لحرب الورود هذه: «Sı´ se puede» «نعم نستطيع» وبالإنجليزية «yes we can» وبهذا الشعار المأخوذ من اللغة الأسبانية أيقظ أوباما جزءًا من الشباب من سلبيته السياسية.

وفي جامعة بويبلا Puebla بالمكسيك صاغ جون هولوواي John Holloway مطلب هؤلاء الشباب المتسيقظين بشعاره: «Preguntando cominamos» (سنستمر في الاستجواب) وبالتوازي مع حركة الشباب الأمريكيين والمكسيك تكونت مجتمعات الإنترنت في جميع أنحاء العالم، وحتى في إيران والمملكة العربية السعودية وفي الصين، وقبل كل شيء في كينيا موطن والد أوباما، إن حملة انشر الكلمة «Spread the word» سقطت على أرض خصبة فقد رشح أوباما من قبل الأمريكان كبطل للتغيير، وقام بنشر رسالته عبر الإنترنت.

أوباما يخاطب كل فرد في مجتمع الإنترنت باسمه الأول، وبالرغم من أن أصدقاءه يعرفون أن وراء ذلك مؤسسة، فقد نشأ شعور بالانتماء، فقد استطاعت تلك الوسيلة أن تحرر المرشحين من اعتمادهم على لوبي الجهات المانحة الرئيسية وتعويضاتها الواجبة السداد في النهاية، لقد تحولت الديمقراطية الإلكترونية إلى جامع للتبرعات ومنحت بضخامتها الحملات الانتخابية الترفع المالي الأول من نوعه في تاريخ المعارك الانتخابية.

لكن الحماس تجاه هذه القاعدة كان أيضًا مرتبطًا بالتوقعات وبتغير المجتمع والسياسة هذا التغيير الذي يحركه الجيل الجديد، ويطلق علماء الاجتماع على جيل الألفية: الشباب الذين نضجوا في مستهل الألفية، إن هؤلاء الشباب ممن هم في منتصف العشرينيات يرفضون رأسمالية التوربو Turbokapitalismus وانقسام المجتمع، ويطالبون بوضع نهاية لعقلية الحرب ولسياسة الخوف وللجشع والامتيازات الممنوحة لفئات قليلة والعمى عن التحديات الجديدة والركود وتغير المناخ.

تـم الاحتفاء بالناشـط البيئـي أل جـور Al Gor في مؤتمر «أمة الديمقراطيـة الإلكترونية» في أوسـتن فقـد بذل أل جور أثناء اشـتغاله بمنصب نائب الرئيس في عهـد بيل كلينتون مجهودًا كبـيرًا للغايـة لتطوير الطريق السريـع للإنترنـت Internet- Highway باعتبارهـا عملية لنشر الديمقراطية في «أحاديث الساعة في المجتمع» (على حد تعبير اليسوعي أزويروس Aswerus) وباعتبـاره مناضـلًا ضد تغير المناخ فقد طالـب الألفي مدون في أوسـتن بحماية الأرض، وبأن يفعلوا ما في صالح البشرية وليس ما في صالح الدول المفردة أو كبار الملاك.

كان خطاب زعيم الهنود سيتل Seattle الذي ألقاه في عام 1855 عندما رفض عرضًا قُدِم إليه لبيع وطنه دستورًا لنشطاء البيئة:

«كيـف يمكـن للمرء أن يبيـع أو يشـتري السـماء أو الأرض أو الدفء؟ إن هـذا التصور غريب كل الغرابة إننا نعرف أن الرجال البيض لا يفهمون أمثالنا فبالنسبة لهم يشبه أي جزء من الأرض أي جـزء آخـر؛ لأنهم غرباء ويأخذون من الأرض مـا يحتاجونه دائمًا ... لكن جوعهم سوف يفترس الأرض بأكملها ولن يترك شيئًا سوى الصحراء».

يتفـق أوبامـا ومعجبوه في النضـال ضد تغير المنـاخ وفي حل التناقضات السـائدة في عالم العولمـة «إنـه يتبنـى رؤية جيل جيلنـا» هذا ما ذكره كليـف بيلد Clive Build وهو ناشـط من أمريـكا اللاتينية مـن منطقة الأريزونا، وأضاف قائـلًا «ويظل مخلصًا لمبادئـه في كل المناورات السياسية اللازمة».

في نهاية المعركـة الانتخابية ضمت بطاقة عضوية الديمقراطية الإلكترونية لأوباما ما يزيد عـلى 13 مليون اسـم، إنه عدد كبير وحركة جيل تذكرنا بنشـاط الثمانينات فآنـذاك أثناء حرب فيتنـام كان أنصار السـلام يصيحون «اصنعـوا الحب ولا تصنعوا الحـرب» أو «Ho-HO-HO Tschi Minh» وعـلى مرتفعـات أشـبوري في سـان فرانسيسـكو احتفل أطفـال الزهور قائلين «لا تثقـون بمـن هم فوق الثلاثـين» (مارهوانا Marihuana و وودسـتوك Woodstock عصر الدلو): أما الفرق بين تلك الفترة وبين اليوم هو أن شـباب السـتينيات لم يكن تفكيرهم يتجاوز

اليوم فهم جيل «الأنا»، وعلى العكس من ذلك نجد أن جيل الألفية يعتبر نفسه «جيل نحن» فلا توجد أنا فاصلة وإنما «نحن» رابطة، وأوباما يهتم جيدًا بهذا الشعور الجماعي.

في مساء العشرين من سبتمبر منح أوباما مجتمع الإنترنت شرف الرقص في المهرجان الليلي «لقد أجرينا الاتصالات وطرقنا الأبواب وكتبنا الشيكات» هكذا وجهت الدعوة للمعاونين الانتخابيين الشباب إلى الحفل الراقص، وقدرهم أوباما قائلًا: «إذا مضيتم بهذه الطاقة وحافظتم على قوة الإقناع التي أظهرتموها في المعركة الانتخابية ... فسوف تزدهر الولايات المتحدة الأمريكية من جديد». كما أنه قد حظي باحترام معجبيه من الشباب بتأسيسه لموقع إلكتروني جديد: www.change.gov وفي رسالة فيديو دعا أوباما أصدقاءه إلى مناقشة مشكلات وقضايا الحكومة في لقاء ودي وإعلامه بالنتائج، ويقول ديفيد بلوف David Plouffe مدير حملة أوباما الانتخابية ومصدر الفكرة الجديدة «إن شيئًا كهذا لم يجربه أحد من قبل، لكنه سيصنع للبيت الأبيض علاقة مختلفة بالجماهير علاقة مباشرة بعيدًا عن الفلترة التي تقوم بها وسائل الإعلام».

إن هذا العرض لمشاركة الشعب في صنع القرار في المكتب البيضاوي والذي اقترن بالشكل الجديد للحملة أثبت جديته، فعندما تمت مقاطعة حزمة إنقاذ الاقتصاد الشعبي والمالي الأمريكي من قبل النواب الجمهوريين في مجلس النواب رد الرأي العام الضربة بإدانته للمعارضة وتأييده الكبير للرئيس الجديد، فالأمريكان لا يريدون صراعات مميتة عديمة الجدوى، وإنما ينشدون تعاونًا يتخطى الحدود السياسية والحزبية، إنهم لا يرغبون في لحظة الأزمة هذه في لكمة تسدد إليهم ردًا على يد أوباما الممدودة، وإنما يريدون شعورًا جماعيًا، إنهم يثنون على صناع الأمل ليس فقط من خلال معدلات التأييد الكبيرة جدًا وإنما أيضًا بتفاؤلهم بالمستقبل، إذن فجانب الإنقاذ معناه هنا التوجه للأمام «حزمة التحفيز» لكن الرئاسة الرابعة والأربعين هي من تحدد هذه النغمة المتوقعة، وهل ستندمج النغمات الشاذة داخل كورال التأييد. أما الأولى فقد نجح فيها أوباما إلى حد كبير، وأما الثانية فليس بالقدر الكافي.

أمريـكا تتأرجح بين الشـك وبين الثقة بالنفس في هذه الحقبـة الجديدة، وتحتاج أمريكا من أجل السـفر عبر المسـتقبل المجهول بعد جيل الألفية إلى الطبقة المتوسطة المحافظة التي لا تزال متقلبة حتى الآن، فالدعاية تحدث هناك حيثما يكون السيد والسيدة أمريكا في المنزل، وإذا أردنا أن نصدق الإحصائيات فإن كل ما هو نمطي ومثالي يحدث في مدينة تدعى بيوريا Pioria.

الفصل الثاني

كيف الحال في بيوريا Pioria؟

بيوريا مدينة «تحرك الكرة الأرضية» كما يرى كاتربيلار Caterpillar أكبر مصنِّع لآلات البناء في أمريكا، والذي يقع مقر شركته في المدينة متوسطة الحجم التي تقع في ولاية إلينوي Illinois و«في بيوريا أجمل شارع فيللات في العالم» هذا ما قاله عنها الرئيس تيودور روزفلت بعد رحلة إلى جراند فيو داريف Grand view drive[1] على نهر الإلينوي ويقول عنها منتجي البرانت واين Branntwein (ماركة خمور) «إن بيوريا تلهب أمريكا» وقبل الحظر كان ميناء جيترايد Getreid عاصمة للويسكي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويقول بوب مايكل Bob Michel الذي ظل لسنوات طويلة قائد الجناح في الحزب الجمهوري في مجلس النواب في واشنطن، وأيضًا مواطنًا فخورًا بمدينته التي تقع في الغرب الأوسط «بيوريا معناها الازدهار والكساد الصعود والهبوط» وفي عصر الفودافيل «المسرحيات الهزلية» ومسرح النيكلوديون[2] والفرق الجوالة كان مديرو الفرق المسرحية يسألون عنها بقلق قائلين: «هل نمثل هذه المسرحية في بيوريا؟» لأن قبل قرن من الزمان كانت بيوريا بمنزلة بروفة اختبار على سبيل المثال: عندما ينجح إسكتش أو مسرحية أو نجم هناك، فهذا معناه أن بمقدوره أن يكمل جولته مطمئنًا عبر الأمة.

«كيف الحال في بيوريا؟» إنها اليوم أيضًا ليست مجرد كلمة مأثورة إنه نفس السؤال الجديد الذي يطرحه باحثو السوق عندما يريدون طرح منتج معين، وهي أيضًا تحدٍّ لصناع الرأي عندما

---

(1) طريق جميل يبلغ طوله ميلين ونصف الميل به منطقة من المنتزهات المتلاصقة. (المترجمة).

(2) مسرح بأجور زهيدة. (المترجمة).

يدخل أحد المرشحين السياسيين السباق إن بيوريا هي المدينة المثالية لتكون قلب الوطن، إنها آخر مقاطعة في الغرب الأوسط لأمريكا، وقد فازت ثلاث مرات على فترات متقاربة باللقب الشرفي «مدينة كل الأمريكان».

يتقاضى مواطن بيوريا متوسط الدخل 42800 دولار في العام، فهو كائن وسط بين المليونير وبين الجائع الفقير بين المتقاعدين وعمال المصانع بين المحافظين والتقدميين، ومن حيث الأصل نجد أن مواطن بيوريا قد يكون من أصل ألماني ثم أيرلندي وأفروأمريكي ثم لبناني ثم «من كل مكان» كما قال ربيع علي Rabbi Eli غير أن مواطن بيوريا لم يكن قط بروتستانتيًّا أنجلوساكسونيًّا أبيض أي أنه لم يكن قط من أتباع جيل تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية. وكما تؤكد الإحصائيات فإن مواطن بيوريا «مواطن أمريكي نمطي» ربما لأنه يميل إلى الشيكات والميزانيات، أي إلى نظام السلطة المقسمة، أما عندما يتعلق الأمر بالرئيس الأمريكي فنجد أن مواطن بيوريا ناخب متقلب: مرة هكذا ومرة هكذا فمنذ وقت طويل ترسل المديرية الثامنة عشر التي تنتمي إليها بيوريا وسبرينجفيلد Springfield مرشح الحزب الجمهوري إلى مجلس النواب، وغالبًا ما ترسل الديمقراطيين إلى برلمان المقاطعة في سبرينجفيلد.

في رحلة البحث عن الأمريكي النمطي يصادف المرء الكون بنسخته المصغرة، فعندما يسافر المرء في وقت فراغه من سبرينجفيلد عاصمة إلينوي الصغيرة إلى بيوريا عبر الشوارع الجانبية يقابل المرء أماكن مثل بكين Pekin وكانتون Canton وهولندا الجديدة New Holland أو هافانا Havana أماكن جذابة جدًّا وعتيقة جدًّا تقع على نهر الإلينوي.

ذات يوم استوقفني شرطي في تيران Teheran وهي مكان لا يعدو أن يكون مجرد منعطف، وطلب مني رخصة السيارة المؤجرة والتي كانت تحمل علامة نيويورك وفحص لوقت طويل رخصة قيادتي الألمانية ولم يخبرني لم استوقفني لكنه زعم أن هناك لا تصلح سوى رخصة القيادة الصادرة في الإلينوي، وهددني قائلًا: «يمكنني أن أزج بك في السجن» وبعد أن أحدثت جملته المؤثرة أثرها المرجو بالقدر الكافي أضاف الرجل في هدوء: «حسنًا سوف تدفع 85 دولارًا نقدًا كرسوم».

تـم له مـا قاله وفي المكان التالي في مطعم صغير رويت تجربتـي بأفضل صورة ممكنة، وكان استياء أهـل القرية من الشرطـي كبيرًا، ووعدتني صاحبة المطعم: «سـوف نوضـح ذلك لأننا الأمريـكان لسـنا كذلك» فقـد كانت صاحبـة المطعم هندية تعيـش منذ 20 عامًـا في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد ذلك تلقيت استدعاء من محكمة البلدية في هافانا للإدلاء بأقوالي كل شيء على ما يرام في قلب أمريكا.. شكرًا.

مـن الفضـاء تبدو بيوريـا تلك المدينـة الصغيرة واعدة جـدًّا في الصدارة تـرى نهر إلينوي الجبار الذي تمتد على طوله الباخرات المجدافية الأرابسكية وخلفها ورش بناء السفن الصغيرة وجملون المخازن، ويمكنك أيضًا أن تميز منطقة الضوء الغازي، وكذلك مصابيح الميناء التي تميز منطقة الترفيه، وفي النهاية ترى خيال أعمدة الكنيسة ووجهات المسرح والمحطة ومباني المكاتب يفوقهـا ارتفاعًا فندق بيير ماركيه Pére-Marquette العتيق، وينتمي بيير ماركيه إلى المؤسسـين الفرنسـيين للمسـتعمرة، أما بيوريا فكانت قبيلة من قبائل الهنود الحمر إليني ILLinie ولم يتبق من الاثنين الفرنسيين والهنود سوى الأسماء.

أمـا عن قـرب تقدم لنا بيوريا صـورة مختلفة تمامًا كأنها مجرد مدينـة كواليس، وخلف هذه الكواليـس تشـاهد مدينة متداعية أو مدينة قد سـكنت بعد إعصار أو تـم إعادة تعميرها بصفة مؤقتة: فمرافق الميناء متهالكة، والمسرح عبارة عن أنقاض، أما فندق بيير ماركيه فهو في حاجة إلى التجديد، والمحطة مغلقة، وهناك مبنى تحول إلى غرفة تجارية بها استعلامات السياحة، وبجواره مقـر (جيـت واي هـاوس Gateway House) وهو مكان تجمع شـائع للحـزب الديمقراطي المحـلي خلاف ذلك تجد في كل مكان مواقف سـيارات مزدحمة للغايـة وجراجات جديدة «من أجل زوار الكازينو الجديد على الضفة الأخرى من النهر أو من أجل سـباق التجديف السنوي أو المشـجعين الرياضيـين الذين يرغبون في مشـاهدة فريق الهوكي ريفرمـن Rivermen وفريق كرة السـلة البيوري تشـيفس Chiefs أو من أجل المناسـبات» هذا ما قاله جيم Jim الأيرلندي الأصـل الذي يعمل في مكتب السـياحة، وأشـار بيده إلى حفل الشـواء الـذي يقيمه الأمريكي أيرلندي الأصل بمناسبة عيد القديس بطرس.

يدير سكيب Skip وجودي بيك Judy Beck بنسيون إفطار مكون من أربع حجرات تطل على نهر إلينوي. عدل مؤرخ الهوايات سكيب وضع الشعر المستعار فوق رأسه، وبدأ يثرثر عن ماضي بيوريا قائلًا:

«كانت مركزًا تجاريًا ونقطة تقاطع خطوط السكة الحديد بين شيكاغو وسانت لويس St. Louise. وهنا كانت تدور أول أكبر طواحين حبوب، وهنا أنشئت أول مصانع إنتاج المعدات الزراعية، وهنا أيضًا طور شارلي دوريا Charley Duryea أول سيارة تعمل بالبنزين في الولايات المتحدة الأمريكية، وهنا كان الويسكي يتدفق أنهارًا؛ لأنه كان يصنع هنا، وبنفس الغزارة كانت أماكن اللهو والترفيه التي تضم كازينوهات اللعب ومرافقة السيدات».

كان بارونات الويسكي ومصنعو الآلات يبنون قصورهم العالية على طول المدينة والنهر على شارع الجراند فيو درايف، واعتاد تيودور روزفلت الذي كان يأتي كثيرًا لزيارة بيوريا بعد انتهاء فترة منصبه التي استمرت من عام 1901 إلى 1908 أن يقول مقتبسًا قول الشاطئين: «لقد جبت جميع أنحاء العالم، لكني لم أر شارع فيلات بهذه الروعة في أي مكان آخر».

قبل قرن من الزمان كان يمتد بين حي الميناء وفندق بيير ماركيه صف من المسارح، كانت تقريبًا عبارة عن مدينة مسارح: الماجستيك majestic والأورفويم Orpheum بيت الأوبرا الكبير Grand Opera House روزس هول Rous's Hall ومسرح الويست Weast's Theatre ديلوكس Deluxe وسانجامو Sangamo ستار Star إليزسوم Elysium جراند وجاردن بيفرلي وفرسيتي Beverley und Varsity كولومبيا والإمبراطور Columbia nd Imperial كلها كانت مسارح استضافة لمسارح المنوعات (النيكلوديون) ولغيرها من الفرق الجوالة والمسرحيات الكوميدية والتراجيدية والفرق الكبيرة والمسرحيات الغنائية وأولى المسرحيات الضوئية عملت هذه المسارح بمنزلة بروفة اختبار وامتحان لموهبة كل من ديك بويل Dick Powell والأخوين ماركس Marx brothers وسبايك جونز Spike Jones

وسالي راند Sally Rand والدوق إلنجتون Duke Ellington وديد إند كيدز Dead end kids وأرثر روبنشتاين Arthure Rubinstein ومارسل ماركو Marcel Marcea وحتى سارة برنارد Sarah Bernhardt العظيمة امتحنت هنا قبل أن تسافر في عمر متقدم في جولة عبر أمريكا.

ويعلق المؤرخ الفني بيل نايت Bill Knight قائلًا: «كان الجمهور المنتقد والمدلل الذي شاهد مئات العروض يجيب على السؤال المزعج الذي يطرحه عمل العروض حول تقبل الإسكتش الجديد أو المسرحية الجديدة». ففي الغالب كان التصفيق والهتاف ينطقون بالحكم النهائي وبعدها عندما يكتب عدد من النقاد -وبالمناسبة أغلبهم من ذوي الأصول الألمانية- مادحًا تلك المسرحيات، فحينئذ يكون بمقدور الفرق الفنية القيام بجولتها إلى سانت لويس ونيويورك وشيكاغو فما ينجح في بيوريا ينجح في باقي الأمة وفي هذا الزفاف الصاخب تختار بيوريا دائمًا الاتجاه المحافظ.

حكمة الاخرين

في كريف كور Créve Coer التي كانت قبل ذلك جبهة للفرنسيين وأصبحت اليوم ضاحية من ضواحي بيوريا، اعتدت زيارة «شوت جن ويلز Shotgun Willie's» وهي حانة مزدحمة دائمًا، وأوضح لي رجل الحانة الذي يدرس أيضًا أن معني «كريف كور» هو القلب المكسور، وأن أمريكا تدين لاسم فرنسي مماثل بالشكر لرؤيته المبكرة، فقد كتب هيكتور كريفكور Hector Crévecoer في نهاية القرن الثامن عشر عن الأمريكي النمطي قائلًا: «إنه يتخلى عن التحيزات والعادات القديمة، وسوف تحدث ثمار عمله ذات يوم انقلابات في العالم، لأن الأمريكان يمتلكون ذلك الخليط من الفن والطاقة والاجتهاد الذين سيطوقون بهم دائرة البشرية الكبيرة يومًا ما».

يقول جورج سـانتايان Georg Santayana الأسـباني المولـد واصفًا الأمريكي النمطـي: «إن مخيلتـه قويـة جـدًا، ولو لم يكن الأمريكـي بهذا القدر مـن الإبداع فلن يسـتطيع أن ينجـو لفترة طويلة في المسـتقبل، لكن هذا المسـتقبل يقـترب منه بصورة مبـاشرة فهو يتعامل معه بوضوح شـديد وبطريقة مبـاشرة كلما أمكن ذلك في صورة أعـداد وحسـابات وخطـط، إنـه يخفـي مثاليتـه في الأشـياء الملموسـة، ونظـرًا لأنه يسـتوعب القدرات الكامنة في الأشياء فهو ناجح في الاكتشاف ومحافظ عند حدوث الإصلاحات وسريع التصرف في وقت الأزمات، إنه يقضي طوال حياته يقفز ليلحق بالقطـار بعـد أن أقلع ويقفز لينزل من القطـار قبل أن يتوقف، ولم يحدث قط أن كسر ساقه أثناء ذلك أو أن فاته القطار.

أمـا المـسرح فهو في هذه الأثنـاء متهالك أو متداعي، كما انسـحب القصر الـذي كان آخر مسرح للنيكلوديون ليحل محله برج توأم قبيح نوعًا ما.

سريعًـا اضطـر الماديسـون Madison وهـو بناء على طـراز النهضة أن يخـلي مكانه لمجمع فندقـي، وكذلـك حانة بيج ألـس Big Al's وهي إحدى منشـآت روتليشـت Rotlicht التي تنتمـي إلى الزوخارينـي Zuccarini ويعتقـد: «إذا كان لا بد فلا أريد أن أقـف عائقًا في طريق التطـور» وطلبًـا للغفـران قام المحامـي توم لايـتر Tom Leiter في عـام 1990 بتحويل أبوللو Apollo ـ الـذي تحـول مسرحـه إلى جـراج سـيارات ـ إلى مركز ثقافي: «هنا يجـب على الجميع الألمان والأيرلنديين السود والبيض أن يجدوا مكانًا لمتطلباتهم الثقافية، وأن يشاركوا الأقليات الأخرى في أمتنا الفريدة من نوعها».

لم تبق سـوى الأطلال من مصانع إنتاج الخمور التي كان يبلغ عددها 22، والتي أسـهمت في ثـراء المدينـة، وكان أغلـب مصنعي الخمور والجعة مـن أصول ألمانية، وكذلـك أيضًا مالكو طواحين الحبوب أمام المدينة لدرجة أن في عام 1910 كانت بيوريا مدينة مزدوجة اللغة.

جاءت نهاية العظمة الألمانية مع الحرب العالمية الأولى، وقد استغلت حركة الاعتدال التي أرادت حظر الخمور في أمريكا بأسرها التعصب الذي ساد حينها ضد الألمان، فأخذوا يروجون الإشاعات بأن: «بائعي الجعة الألمانيين يرسلون الأموال التي يكسبونها في الولايات المتحدة الأمريكية إلى مملكة فيلهلم Willhelm» وبهذا أغلقت مصانع الخمور قبل بداية (الحظر العام) أو حظر الكحول في جميع أنحاء البلاد» فلم تكن شيكاغو أل كابوني Al Capone هي فقط من ساءت سمعتها بالعصابات والإتجار غير المشروع، وإنما أيضًا بيوريا الأخوين شيلتون Shelton brothers وحينذاك أطلقت جريدة تايم Time على بيوريا: «مفتوحة مثل بوابة الجحيم».

على أية حال لقد سعى سكان المدينة من ذوي الأصول الألمانية إلى إخفاء هويتهم، وغالبًا ما كانوا يترجمون أسماءهم إلى الإنجليزية فدليل الهاتف يكتظ اليوم بأسماء مثل بلاكس Blacks وكينج King سميث Smith وميللر Miller التي كانت ذات يوم كونج König وشفارتس Schwarz شميت Schmidt ومولر Müller حتى فندق شفارتس فالد Schwarz Wald (أي الغابة السوداء) أصبح بلاك فورست Black forest وفرقة عازفي الدرامز التي كانت تدعى القيصر فيلهلم Kaiser Willhelm أصبحت تسمى فرقة أومباه Oompah فقط في نهاية السبعينيات استطاع الألمان تكوين علاقات جديدة من خلال شراكة المدن التي عقدت بين بيوريا وفريدريشهافن Friedrichhafen، ومنذ ذلك الحين وهناك علم ألماني كبير معلق في مبنى البلدية المبني على الطراز القوطي، وقد أصبح الضيوف الألمان يعاملون معاملة خاصة.

إن هناك رابطًا تاريخيًا مهمًا جدًا بين بيوريا وفريدريشهافن، فقد سُمِح للكونت فرديناند فون تسيبلين Ferdinand von Zappelin قبل 150 عامًا بتصريح من الرئيس أبراهام لينكولن Abraham Lincoln بملاحظة بالونات الاستطلاع، وكيف استخدمت في الحرب الأهلية الأمريكية إن البالون قصة نجاح امتدت حتى هندنبيرغ Hindenburg حيث احترقت في هبوط خاطئ في أمريكا، واليوم تدعم مصانع المنطاد ومؤسسة كاتربيلار لتصنيع الآلات هذه الشراكة الجديدة بين المدينتين حتى في أحلك الأوقات.

في عـام 1980 رحـب العمـدة ديك كارفـر Dick Carver في البداية بالضيـوف الألمان ثم ألقى عليهم محاضرة تأديبية، قال فيها:

«إننا هنا في بيوريا لا نسـتطيع أن نفهم الصور التي تعرض في التلفاز عن المظاهرات الاحتجاجية المضادة لأمريكا، ألسنا نحن من أوقف زحف السوفيت؟ ففي البداية انتصرنا على النازية ثم سـاعدنا الخاسرين للوقوف على أقدامهم مرة أخرى، واليوم ينافسـوننا في عقر دارنا».

لقـد بـدأت علاقتي ببيوريـا في عام 1956 عندما كنـت أقود مجموعة مـن موظفي مصانع كاتربيـلار في رحلـة عبر العـالم القديم، وكان الشـعار الدعائـي لمنظمي الرحلة آنذاك «شـاهد أوروبـا في سـبعة عـشر يومًا» كان لـدى كاتربيلار وقتها دفاتـر طلبيات من جميـع أنحاء العالم، لكنها في السـنوات القليلة التي سـبقت ذلك لم يكن الوضع سـيئًا عندما كانت المؤسسـة تصنع آلات من أجل المصنع الحربي.

كان الضيوف القادمون من الخارج يبدون بالنسبة لي أغنياء وبعيدين عن الطائفية ومحافظين، وكانـوا على وجه الخصوص منظمين، فعلى عكس الضيوف الألمـان لم يندفعوا خارج الأتوبيس في الوقـت نفسـه، لكنهم هبطـوا واحدًا تلو الآخر، وعند اتخاذ أي قـرار لتغيير شيء ما صغير في البرنامـج كان الأقليـة يزمعون لرأي الأغلبية، كانوا دائمًا منضبطين لكنهم كانوا يسـألون في كل مناسبة: «هل المياه آمنة؟» إنهم الأمريكان النمطيون ... أغلبهم كانوا من أصول ألمانية، وانتخبوا إيك أيزنهاور Ike Eisenhower الألماني الأصل القائد المنتصر في الحرب العالمية الثانية.

إذا كانـت كاتربيلار هي المركز فإن بيوريا بالفعل في كل مكان تسـتخدم فيه معدات البناء وأيضًا في العالم، إن أفراح وأحزان هذه المؤسسة الكبيرة تحدد باروميتر الحالة المزاجية في بيوريا: «عندما كان جون إف كينيدي يقود هنا معركته الانتخابية في عام 1960 كانت كاتربيلار وقتها في هبوط، وكانت المصانع تعمل بنسبة 50٪ من طاقتها حينها اختارت المدينة الحزب الديمقراطي الكاثوليكي» هذا ما يتذكره منتج الآلات الألماني الأصل فريد Fred.

لقد عمل زميله ويلارد كرال Willard Crall لمدة 36 عامًا في كاتربيلار، حيث شق طريقه من كونه صبي إلى كونه رئيسًا للعمال، وهو عضو في نقابة عمال السيارات المتحدين[1] UAW وقد أعلنت هذه النقابة الإضراب لمدة سبعة أشهر في 1982، وفي النهاية قامت كاتربيلار بفصل 16000 عامل، أما أكبر ضربة تلقاها اقتصاد بيوريا، فقد وقعت في عام 1994 حيث أضربت النقابات لمدة ثمانية عشر شهرًا من أجل زيادة الأجور، وأيضًا احتجاجًا على استيراد قطع الغيار الرخيصة من المكسيك بعد ذلك قلصت الشركة عدد العاملين بها، مثلًا ويلارد كرال أحيل إلى التقاعد في الرابعة والخمسين من عمره.

ومع هذا انتخب مواطني بيوريا جورج دبليو بوش في عام 2000 فمشكلات البيئة أو طريق الإنترنت السريع وقضايا الديمقراطي أل جور لم تصل حينذاك إلى بيوريا، علاوة على ذلك كان آل جور يعتبر هناك مملًا، وفي عام 2004 كانت النتيجة 50٪ - 50٪ فقد ازداد الشك في حكومة بوش.

يرأس جيم أوينز Jim Owens رئيس مجلس إدارة كاتربيلار مؤقتًا ما يزيد عن 95000 موظف في جميع أنحاء العالم، منهم 17000 في بيوريا، أما العمال ذوو الياقات الزرقاء وعمال الصناعة فهم الأقل عددًا، ومرة أخرى استعادت كاتربيلار قوتها إلى أن جاء سقوط الشركة مع الأزمة الاقتصادية التي جاءت مباشرة بعد الأزمة المالية، ففي عام 2007 استطاعت الشركة تعويض الطلب في الداخل بالطلبيات القادمة من الخارج، خصوصًا من خلال معدات الحفر في الجبال التي تستخدم في استخراج النحاس والمعادن الأخرى في آسيا وأمريكا اللاتينية لكن في عام 2008 تراجعت الطلبيات بصورة كبيرة جدًا «وكان عام 2009 أسوأ بكثير مما كنا نتخيل» هذا ما قاله جيم أوينز رئيس مجموعة الشركات الكبرى، وجاءت عمليات التسريح الجماعية، والآن يعلق أوينز آماله على البرامج الجديدة لدعم البنية التحتية وبناء الجسور

(1) United Auto Workers نقابة للعمال الذين يعملون في مجال إنتاج السيارت والطائرات، تأسست في عام 1935. (المترجمة).

وتصليح طرق النقل المتهالكة، ومن هذا كله يأمل منتج آلات البناء أن يحصل مرة أخرى على دفاتر طلبيات ممتلئة.

حتى ذلك الحين كانت العولمة في صفه، لكن أوينز كان قد انتقل بالفعل إلى «التكنولوجيا الخضراء Grüne Technologie» أو إلى المحركات ضعيفة الدافع «إن كاتربيلار تساير العصر كعادتها القديمة» هذا ما كتبه أوينز، ويعتقد ويلارد كرال: أن النهاية الحقيقية ستأتي أيضًا، وهي موجة جديدة من البطالة، فقد عرض على زوجته بالفعل عملًا في صناعة الأدوية في المدينة «لكن من أجل ثمانية دولارات في الساعة الأمر لا يستحق» حتى هذا اليوم ما زالت بيوريا تتلقى الضربات وتنتقل إلى الفروع الأخرى.

أما جيم أرديس Jim Ardis العمدة الحالي، فقد قدم للضيوف هدية دليلًا على قوة التجديد في مدينته، وكانت الهدية عبارة عن: فنجان قهوة نحتت عليه أهم مدن العالم: لندن برلين باريس... وبيوريا «وعندما كان يسئل عن أهم إسهام قدمته المدينة كان يجيب دون تردد: أبراهام لينكولن» ويقف أمام مبنى المحكمة تمثال يخلد ذكرى اليوم السادس عشر من أكتوبر عام 1854، وهو اليوم الذي ألقى فيه أبراهام لينكولن خطبة استمرت ثلاث ساعات عن تحرير العبيد.

«قبل حوالي ثمانين عامًا صرحنا أن الناس خلقوا جميعهم سواسية... لكن من الواضح أن البعض يعتبرون الاستعباد حقًّا مقدسًا... وهذا يتعارض مع مبدأ (المساواة)». لقد ألقى أبراهام لينكولن في الحقيقة الكثير من الخطب حتى في بيوريا، لكن ظهوره في ذلك اليوم المكتظ من شهر أكتوبر كان حاسمًا للطريق السياسي لأبراهام وللمناضلة من أجل وحدة أمريكا في حرب أهلية دموية، ويمكننا أن نقرأ في أرشيف الجرائد التابع للمدينة تحقيقًا حول ذلك الظهور لأبراهام: «كان السيد لينكولن يطوي أكمامه، وكان يبدو محرجًا لكنه كان واثقًا فقد كان جليًّا أنه يعرف مدى جدية كلماته، وأنه على حق فكانت كلماته نابعة من القلب فوصلت إلى القلوب».

في بيوريا يصب أحد فروع السكة الحديد التحت أرضية التي كانت شبكة هروب للعبيد السود القادمين من الجنوب، ومن بين كل مدن ولاية إلينوي كانت بيوريا هي المدينة الأصعب

مـن حيـث توريطها في الحـرب الأهلية، وكانت مصممـة جدًا على ذلك وقد دفـع ما يزيد على خمسـمائة رجـل ثمن ذلك بأرواحهم، والآن يعتبر نسـل العبيد الذين تـم تحريرهم آنذاك أقوى جماعة محلية بعد المنحدرين من الأصول الألمانية.

بعـد الكثـير مـن الأزمـات الاقتصاديـة وخصوصًـا بعـد هـروب الطبقـة الوسـطى في الخمسـينيات من المدينة انتقل الأفروأمريكان إلى وسط المدينة الذي كان شبه مهجور، ولم يكن غالبيتهـم يملكون النقود للاعتناء بمسـاكن المواطنـين أو حتى ترميمها وحتـى اليوم ما زالت علامة الإعسـار البرتقاليـة عالقة حتى الآن على بعض المنازل، ومعناها أن السـاكن لم يسـتطع سـداد الرهن العقاري، فقد أدى الفقر الأسـود في جنوب المدينة إلى طرد الكثير من الأمريكان البيض إلى الجبال عبر النهر.

يقول تشارلز ليبر Charles Lieber مدير نادي الصداقة الألمانية الأمريكية: «إن السفر إلى مدينـة بيوريا بالنسـبة لنا أبعد من السـفر إلى ألمانيا» لقد انتشرت هنـاك جهالة التعصب لدرجة كبيرة، إنهم يتحدثون دائمًا في غرف الدردشـة الخاصة بالمتعصبين عن «الزنوج» وعن جرائمهم العنيفة، وعلى الجانب الآخر يشـعر الكثير من الأفروأمريكان الأكبر سـنًا أنهم ضحية التعسف الأبيض لكن الصغار حطموا هذا التحيز.

جـون أبركرومبـي John Abercrombie خبـير حاسـوب في الثلاثـين مـن العمـر يقـود مجموعة ديمقراطية إلكترونية Netroots وهي مجموعة من الشـباب الذين التقوا معًا على شبكة الإنترنت، وكونوا شبكة مع حملة أوباما الانتخابية ويرى جون: «إننا جميعًا سواسية ويجب علينا هدم أسوار التحيز كما قال أوباما في زيارته لكم في ألمانيا».

أمـا رون أبـيرلا Ron Aberle الذي يدير صالون حلاقة في بـدروم البرجين التوأم الجدد، فقـد قال في غضـب: «أنا لا أحمل أي ضغينة ضد السـود، لكن يزعجني كونهـم يندفعون بهذه الأعداد نحو صناديق الاقتراع فقط؛ لأن أحد المرشحين أفروأمريكي». يشكل الأفروأمريكان 20٪ من سكان بيوريا، وهذه أول مرة في تاريخهم يذهبون فيها إلى صناديق الاقتراع بهذا العدد

الهائل، وتتذكر الناشطة جاكي بيتي Jacky Petty قائلة: «في اليوم العاشر من شهر أكتوبر وهو آخر معاد للتسجيل جاء 740 أفروأمريكيًا في فوج واحد ودونوا أسماءهم في القائمة» إنهم يسيرون وراء وعد حامل الأمل باراك أوباما.

أما مرشحتهم لبرلمان المقاطعة في سبرينجفيلد فقد كانت الشابة السوداء الجذابة جيهان جوردون Jehan Jordon. لقد «طرقت جيهان حوالي 60000 باب وأرسلت 100000 التماس» واستفادت من الشبكة الإلكترونية التي ساعدت حملة أوباما الانتخابية، وهؤلاء يتواصلون عبر مختلف البوابات على شبكة الإنترنت إنهم مرتبطون جدًّا ومتقاربون جدًّا لدرجة أنهم يحلقون مثل أسراب الطيور في نفس الوقت ليحددوا أهدافهم ومواقفهم المشتركة.

شعر معجبو أوباما وجيهان جودرون أنهم مميزون في سبرنجفيلد، وذلك في نهاية أغسطس 2008 عندما كان من المفترض تقديم الحزب لمرشحه لمنصب نائب رئيس الحزب، لقد عرفت الديمقراطية الإلكترونية ذلك قبل العامة وحتى قبل الإعلام، فقد تلقوا الخبر عبر الهواتف المحمولة واندفعوا قبل الجميع إلى الأتوبيسات والسيارات الخاصة حتى وصلوا إلى عاصمة إلينوي، وكان لهم السبق بينما نحن الصحفيين كنا نحاول اختراق الزحام كي نحصل لنا على مكان نتمكن من الرؤية منه أمام مبنى البرلمان الصغير. وكان علينا جميعًا أن نخضع للاختبارات الأمنية قبل الظهور بكثير، فقد وصلت جيهان جودرون قبل قت طويل، أما أوباما فكان يعتني بعائلته.

بيوريا وسبرنجفيلد معًا لهما مقعد في مجلس النواب في واشنطن وكان من التقليدي للجمهوريين الحصول على ذلك المقعد الخاص بالمديرية الثامنة عشرة، ففي عام 1956 فاز به مخضرم الحرب العالمية الرفيع بوب ميتشيل Bob Michel واحتفظ أربعة عقود، وفي عام 1982 وقبل انتخابات مجلس النواب بفترة قصيرة قدم الرئيس رونالد ريجان بنفسه المساعدة الوقائية، وبالكاد كان ريجان يتمتع هنا بحق المواطنة؛ لأنه ذهب إلى الكلية في يوريكا Eureka القريبة

حتى شـارلتون هيلتون Charlton Helton النجم السـينمائي ولوبي الأسلحة تم قبوله في المركز المدني لبيوريا من أجل التعزيز.

لقد سعيا معًا لإقناع الناس في بيوريا بأن إستراتيجية ريجان الاقتصادية «Reaganomics» سـوف تنجـح، وهذه النظرية تقول بأن تقديم المسـاعدة لأصحاب الـشركات تؤدي إلى «تأثير التسـاقط Trickle-Down-Effect» وأن بعـد ذلـك سـوف يتبقـى الكثـير من أجـل العاملين اختار سـكان بيوريا ريجان، كما منحوا بوب ميتشـيل أصواتهم حتـى وإن لم تنجح نظرية ريجان الاقتصادية وإنما فشلت فشلًا ذريعًا فقط الديمقراطي بيل كلينتون هو من استطاع ضبط ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى.

عندما وجهت إليه فيما بعد الاتهام بشهادة الزور جاء سياسي آخر من مدينة بيوريا ليرأس لجنـة الفحص إنه راي لحود Ray LaHood الذي خلف بوب ميتشـيل في منصبه. راي لاحود من أصل عربي ومن أشـد المعجبين بأبراهام لينكولن، فهو من نسـل رحالة لبناني وهو من أعد ترتيبات الذكرى 200 لوفاة أبراهام لينكولن في عام 2009، لكن ليس هذا فقط ما يربطه بباراك أوباما الذي يعتبر نفسه خلفًا للينكولن، وإنما موقفه غير الحزبي في القضايا الحاسمة للأمة.

عـين أوبامـا لاحود وزيـرًا للمواصلات، وبهذا يكون ذلـك الرجل القادم مـن بيوريا هو ثاني جمهوري في مجلس وزراء أوباما، وتهيمن وزارة المواصلات على 50000 عامل، وسوف تزود وزارة المواصلات بالكثير من الأموال في إطار خطة الاستثمار في البنية التحتية المرهقة نوعًا ما في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الأمثلة على مدى تدهور حالة المواصلات المحلية الترام في شـيكاغو الذي يتحـرك وهو يشـكو ويئن عـبر كواليس الأبـراج المتألقـة، في البداية مكن لاحـود الولاية العاصمة واشنطن من بناء خط ترام من المدينة وحتى المطار الدولي، وكان لهذا أثره على السياسة المحلية فتعيين لاحود أفسح الطريق بدوره لسياسي جمهوري آخر من بيوريا وهو آرون شوك Aaron Schock.

كان ابـن المليونـير الجـذاب والنشـط وهو صبـي مراهق يعمـل منظم اجتماعـات ومنظم للمبـاردرات المدرسـية والجماعيـة، وأصبح وهـو في العشرين مـن عمره نائبًـا في مجلس نواب

إلينوي، واستطاع عند إعادة انتخابه مرة أخرى في عام 2006 أن يحصد حوالي 40٪ من أصوات السود في بيوريا أي أنه باني للجسور على الشاطئ الجمهوري.

كان أرون شوك منصفًا حيال اسمه «شوك» ببعض الاقتراحات الصادمة نوعًا ما، لقد أراد اجتذاب مناضلي الحرية من أجل استعمالهم في إيران وفقًا لنموذج مناضلي الحرية Freedom fighters والكونترا Contras الذين دربهم ريجان من أجل القتال في نيكاراجوا Nicaragua الشيوعية، كما أنه أيضًا سلط الضوء على صواريخ برشينج Persching-Rakete التايوانية من أجل الجدل القادم مع الصين، لكن الشاب كان يعتني كثيرًا بمشاغل الدائرة الانتخابية، وفي عام 2008 وهو العام الذي تولى فيه الحزب الديمقراطي السلطة تم انتخابه من قبل ما يزيد على 50٪ من سكان بيوريا ممثلًا للكونجرس في واشنطن ليصبح مرة أخرى أصغر ممثل في حلقة الكونجرس المسنة «أنا وحيد هنا إلى حد ما فيما يخص جيلي، لكنني أنحني في تواضع، أما مئات الآلاف من المنتخبين الذين جعلوا من شاب في السابعة والعشرين من عمره ممثلًا لهم في واشنطن» وقد يكون أوباما مصدر هذه البلاغة.

اعترف آرون شوك قائلًا: «إذا كان أوباما قد علمنا شيئًا ما فهو كيفية استغلال وسائل الإعلام الجديدة للوصول إلى الشباب، وفي هذا المضمار أدى أوباما عملًا أفضل من المرشح الجمهوري ماكين» اختارت بيوريا اليمين من أجل الكونجرس واليسار من أجل الرئاسة، وفي عام 2008 في «مدينة كل الأمريكيين» ومرآة الأمة سارت الأمور لصالح أوباما، فقد سجل 69000 ألف مواطن ومواطنة من بيوريا أسماءهم من أجل الانتخابات.

من إجمالي أصوات الناخبين حصل مرشح الحزب الجمهوري جون ماكين على 23996 صوتًا وأوباما على 45765 صوتًا ولم تذهب بيوريا من قبل بهذا الوضوح بأغلبية الأمة، فقد كان وسط المدينة الواقع على نهر إلينوي غالبًا ما يقود الأغلبية لكن في شارع الجراند فيو درايف كان رد الفعل هادئًا، وكي نعترف لقد ساد الغضب في بعض الضواحي الشعبية: «الفقراء سوف يلتهمون الأغنياء» أو «أمريكا ستموت في 4 نوفمبر».

أمـا في شـوارع جنوب المدينة فـكان الاحتفـال عارمًا ففـي الجيتواي هـاوس Gateway House قامت جيهان جودرون بمعانقة كل تابع من أتباعها على حدة، لكن آرون شـوك أيضًا نجح في ذلك، فهو سـيحمل أفكاره إلى الكونجرس في واشـنطن لكن قبل ذلك عندما كان لا يـزال عضـوًا قائمًا بالأعمال في برلمان إلينوى كان أيضًا يشـارك في الاتهام وفي منهج العزل المتبع ضد محافظ الولاية.

أما الديمقراطي رود بلاجو جيفيتش Rod Blagojevich فقد ضبط أثناء محاولته بيع المقعد الشـاغر لصديقـه في الحزب أوباما ليصبح المقعد فريسـة سـهلة للجمهوري آرون شـوك، وفي مجلس النواب في واشـنطن، وهي الدرجة التالية في السلم الوظيفي بدأ الصبي الجديد الطموح أن يفعل مثل أوباما، فقد أراد الرئيس القائم بالأعمال بيع حزمة التحفيز الاقتصادي لكاتربيلار لإنقـاذ الاقتصاد الشـعبي فاصطحب معه في الرحلة على متن الطائـرة جيم أوينز رئيس مجلس إدارة كاتربيـلار والنائـب آرون شـوك، فقد كان ينتظر من الأول التعـاون ومن الثاني التأييد في خطابه إلى القوى العاملة بكاتربيلار.

لكـن أوينـز لم يثق في حزمـة التحفيز وأراد تسريح 20000 شـخص في جميـع أنحاء العالم، فصوت شوك في الكونجرس معارضًا هذا التسريح، ومن هنا أطلق عليه الرئيس أوباما «شاب واعـد جـدًا» وقد عـدت صحيفة تايم Time آرون شـوك كواحد من نـاشري الأمل من الجيل الجمهـوري الجديد وأوبامـا كواحد من ناشري الأمل على الجانب الآخـر الجانب المحافظ، إن مسرح بيورا دائمًا ما يمد الأمة بالمزيد من الممثلين في مسرحية التاريخ الأمريكي.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

بين الأمل والرفض

يعـد اكتشـاف أوروبـا ومسـتعمرات العالم الجديـد واحدة مـن أكبر الملاحـم في تاريخ البشريـة؛ حيـث انفصلـت القارتان اللتان تشـغلان النصـف الغربي من الكـرة الأرضية عن وجودهـا القديـم، وتحولتـا إلى «عـالم جديـد» يضـم الأمـم الأوروبيـة. وعلى الرغـم من أن الأمريكتـين بقيتا مكانًا منفصلًا، فإن مجتمعاتها واقتصاديتهما ومصائرهما سرعان ما أصبحت انعكاسًـا لأوروبا.. تاريخها، وصراعاتها. أما ثقافات السكان الأصليين ومجتمعاتهم، فإما أنه قد تم القضاء عليها، وإما أنها قد تغيرت وفقدت هويتها، وفي الوقت الذي كان الأمريكيون يرسخون فيه صورتهم عبر الأطلسي، كان الأوروبيون يتغيرون تغيرًا جذريًّا بفعل التأثيرات القادمة من العالم الجديد.

لقد عملت البوتقة المشـتركة التـي انصهر فيها الأوروبيون، وذريتهـم من الأمريكان على تشـكيل وجودهم المشـترك لما يقرب من خمسـمائة عـام. وحتى يومنا هـذا، لا يتفهم كل جانب مـن الأطلسي تمامًا مدى تأثير وتأثر كل جانب منهما بالآخـر؛ لأن الاندفاع المحموم والدرامي للغاية نحو اكتشاف العالم الجديد، وإقامة المستعمرات فيه أدى إلى عواقب وخيمة لم يكن يتسنى للمكتشفين أو ذريتهم أن يتفهموا تمامًا الخيط الرفيع الفاصل بين الحقائق والرتوش التي تجملها فيما يتعلق بوجودهم. ولذلك، فنحن نمثل كيانًا ثقافيًّا واجتماعيًّا واحدًا يضم بين نسيجه الكثير من الخيوط أو الهويات المختلفة بحيث لا يمكن لواحد منها أن يتحرر أو يتخلص من قسـمات العالم الأطلسي التي تشكل جزءًا من ملامح صورته الخاص.

في بداية بسط الولايات المتحدة الجديدة لنفوذها على جميع الولايات، شعرت بحاجة ماسة إلى بلورة هوية منفصلة عن أوروبا الأم، فقامت بصياغة ما يمكنني تسميته «أسطورة المكان» برغم أن هذا المكان يختلف اختلافًا جذريًا عن أوروبا، وإن بقي مشدودًا إليها بروابط متينة، ولذلك أصبح الاعتقاد بالاستثنائية الأمريكية متأصلًا بشكل أعمق في التركيبة النفسية للولايات المتحدة.

تحرك الأوروبيون في الاتجاه العكسي منذ الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت أوروبا قارة منهكة القوة تحتاج إلى استعادة هويتها التي دمرتها الحرب، ومزقها الانقسام، لذلك كان على أوروبا أن تصوغ «أسطورة المكان» الخاصة بها عن طريق التراجع عن نظرة المستكشفين الأوائل للعالم، وأن ترسم معالم مستقبلها داخل حدودها الجغرافية والتنظيمية لفترة ما بعد الحرب، وإن كان لأوروبا اهتمامات ومصالح تتجاوز تلك الحدود، ومع بداية القرن الحادي والعشرين، وجدت اقتصاديات عصر العولمة في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية نفسها تتراجع سيكولوجيًا إلى وحدات الماضي بطابعها القومي القديم.

في واقع الأمر، لم تتجاوز الحدود الثقافية والاقتصادية التي تشكل ملامح الهويات المختلفة بجانب الأطلسي طرفين إلى وسطه على الإطلاق. ومع ذلك، يقدم لنا تراثنا الثقافي الزاخر فكرة خاطئة حول وجود انقسام بسيط بين أوروبا وأمريكا. ولذلك، فإن استيعاب وقائع وملابسات عملية الأمل والرفض اللتين صاغت هوياتنا المشتركة والمقسمة، هو أحد المداخل الأساسية لبناء مستقبل مزدهر لجانب الأطلسي في الألفية الجديدة.

لقد تعلمت في وقت سابق عن الأمل والرفض من عائلتي، حيث إن كلًا من أجدادي الأربعة جاؤوا من أوروبا: اثنان جاؤوا من بروسيا الشرقية (شرق روسيا البيضاء) East Prussia، واثنان جاؤوا من كورنوول البريطانية British Cornwall. هاجر جداي الألمانيان في عام 1882 بعد زواجهما بمدة قصيرة، لم يكونا فقيرين أو لاجئين سياسيين، لقد أرادوا ببساطة بناء حياة جديدة في العالم الجديد.

أثناء تخطيطهما للزفاف، أخبرت جدتي لويز خطيبها كريستيان، بأن لها ابن عم بأمريكا قد بعث لهم بدعوة للانضمام إليه هناك، وأنها تريد أن تذهب، ولكن كريستيان لم يرد ذلك، فقالت له «حسنًا، سأذهب بمفردي إذًا»، طبعًا ذهب معها، ثم أصبحا مزارعين وأنجبا ثمانية أطفال وعلى الرغم من إلحاح أحد أبنائهم، لم يريدوا أن يعودوا أبدًا، لقد رفضا حتى التحدث بالألمانية لأبنائهم، لقد أرادوا لهم أن يكونوا أمريكيين فقط.

جاء الأوروبيون مثل أجدادي، لأمريكا للعديد من الأسباب، ولكن أيًّا كانت اعترافاتهم، فإن التجربة تركت عليهم أثرًا ملحوظًا، هم والقوى التي أرسلتهم: ويمكن الحصول على دلائل لأصول سلوكيات السكان الأصليين الحاليين من خلال مراجعة تاريخ المستوطنين الأوروبيين، كذلك نجد تأثر تاريخ أوروبا السياسي والاقتصادي بشكل كبير بالتوسع الجغرافي الكبير للحضارة الأوروبية، والذي أصبح ممكنًا من خلال استيطان أمريكا.

جاءت معظم أوجه الحياة الهامة للحياة الأوروبية الحالية مثل السكر، التبغ، البطاطس من العالم الجديد، وحتى نجعل أهدافنا أكثر وضوحًا فإن الطريقة إلى حدث بها تطور المجتمعات الدائمة في أمريكا الشمالية، كلها من اقتصاديات والحياة الثقافية لكل من إنجلترا وفرنسا. كل من الثورة الصناعية في إنجلترا والثورة الفرنسية أثارتها الأحداث في العالم الجديد، ولكن جاء أيضًا استعباد الشعوب الإفريقية نتيجة لنجاح المستعمرات الجديدة. كذلك الحال بالنسبة لاجتثاث العديد من الثقافات المحلية (القومية). إن هدفنا ليس تتبع التاريخ الكامل للعالم الجديد، بل الأكثر أهمية هو فهم كيفية استيطان مناطق أمريكا الشمالية في الأصل بواسطة الإنجليز والفرنسيين، والتي تطورت لتصبح الولايات الحديثة التي تتكون منها الولايات المتحدة وكندا.

إن هاتين الدولتين تتشاركان فيما هو أكثر من خط حدودي ممتد على حدود كل منهما. إن الثروات التي اكتسبها (أو سرقها) الأوروبيون والموجودة في منطقتهم الحالية، بالإضافة إلى المعارك التي حاربوا فيها، خاصة تلك التي واجه فيها كل من الفرنسيين والإنجليز بعضهما البعض، والتوسع الناتج للمجتمعات الأوروبية عبر الأطلنطي يمثل مركز (قلب) القصة الأمريكية اليوم.

في البداية، جاء المستكشفون حيث انطلقوا مسافرين في رحلة بحث عن المغامرات ببساطة لكسب بعض المال. استطاع كولومبوس Columbus أن يقنع التاج الأسباني أنه يستطيع أن يكسر النفوذ العثماني المنبسط فوق الطرق المؤدية إلى أسيا، وذلك من خلال رسم خريطة لمسار غربي عبر الأطلنطي والذي من المفترض أن ينتهي به في اليابان، وجاءت حساباته خاطئة، لكن العائد من وراء تلك الرحلة جاء مفاجئًا بالنسبة لراعين تلك الرحلة. إن روايات الثروة العظيمة التي تم اكتشافها بواسطة المستكشفين الأسبان في أمريكا الجنوبية، أو ثروات قصب السكر في منطقة الكاريبي، ألهبت خيال المئات من المغامرين الذين شقوا طريقهم في العالم الجديد.

إن الحملات الاستكشافية إلى فيرجينيا Virginia أو كندا تم تمويلها بواسطة المستثمرين، والذين يُعتبرون المغامرين الرأسماليين في زمانهم، والسبب ببساطة هو السعي نحو الثراء. حفزت المستعمرة الإنجليزية على وجه الخصوص نمو كل من طبقة التجارة والعاملين بالصناعة، كذلك تكاثر مجموعات الأشخاص العاديين الباحثين عن بناء حياة في العالم الجديد.

بالنسبة لأوروبيي القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان العالم الجديد بالفعل جديد جدًّا، غير معلوم، وفي بعض الأوقات مخيف. لقد عاد المستكشفون بقصص عن مدن الذهب والوحوش من كل نوع؛ حيث كان هناك العديد من السكان الهنود الأصليين لديهم رؤوس كلاب، وعمالقة ينتمون إلى منطقة بتاجونيا Patagonia[1] يصل طولهم إلى أكثر من ثلاثة أمتار، ومُهْق[2] مخنثون وأفاعي ووحوش من كل الأنواع.

(1) هو إقليم يقع في الأرجنتين وشيلي، يتخلل الجزء الجنوبي من جبال الإنديز متجهًا جنوبًا وصولًا إلى المحيط الهادئ. اكتشفه ماجلان في رحلته عام 1520 وأطلق عليه هذا الاسم والذي يعني الأقدام الكبيرة بالأسبانية وذلك اعتقادًا منه بأنهم العمالقة، واكتشف فيما بعد أن أطوالهم لا تزيد عن 180سم. (المترجمة)

(2) مهق Albino: جمع كلمة (أمهق) وهو شخص أو حيوان يفتقد وجود الصبغات (المادة التي تكسب الجلد لونًا) وبالتالي نجد أن لون بشرته أبيض وكذلك شعره ورموش عينه، قرنفلي العينين. (المترجمة).

لم يبدُ أن رواية شهود العيان كافية، حيث كون الجالسون بمنازلهم خيالات في منتهى العجب، وتكمن المشكلة في أن العالم الجديد مختلف جدًّا في بعض الأحيان وفي أخرى غريب جدا. إن جغرافية المكان، ومناخه، وسكانه كانت كافية جدًّا للإبقاء على الكتاب والمفكرين، يحزرون لقرون حول طبيعة الحياة ونوعية سكان تلك الحياة.

في بدايات القرن السادس عشر عندما عاش أوروبيون وكانوا قليلين جدًّا في أمريكا، تساءل الكتاب الأوروبيون عن قيمة الحياة هناك، على سبيل المثال، لقد اجتذبت تلك المساحة النضرة غير الخاضعة لأي حكم العديد من الشعوب التي حاول حكامها السيطرة عليها وحكمها. تسببت صور السكان البدائيين المتحررين في جعل النظريات الاجتماعية موضع سؤال، والتي عمل بها المثقفون المرتبطون بشدة بهياكل متماسكة موروثة من أوروبا الإقطاعية، بالنسبة للبعض قد يكون هناك استنتاج واحد ألا وهو: أن أمريكا كانت خطأً كبيرًا، والتي تمثل فقر الخبرة الملاحية لكولومبوس والبيئة الإجرامية من قبل المستكشفين الذين أتوا بعد ذلك.

لخصت تلك المشاعر بالفقرة التي كتبها كونت دي بوفون Count de Baffon[1] في كتابه التاريخ الطبيعي Histoire Naturelle في عام 1774:

«في تلك المناطق الغامضة، ما زالت الطبيعة مختبئة تحت ردائها القديم، ولا تظهر نفسها أبدًا في ثوب جديد، وكونها غير متعهدة برعاية الإنسان أو عزيزة عليه، فإنها تبخل عليه بخيراتها، وفي ظل هذه الحالة المهجورة فإن كل شيء يضعف ويفسد ويثبت عدم جدواه. الأرض والماء محملان بالأبخرة السامة والمؤذية وغير قادرين على تطهير نفسيهما أو التمتع بتأثير الشمس التي تطلق سهام أشعتها الحاملة للحياة هباء نحو كتلة باردة».

---

(1) هو جورج لويس لوكليرك عالم طبيعة فرنسي، اشتهر بكتابه «التاريخ الطبيعي العام والخاص» والذي ألفه عام 1974. (المترجمة).

عند بداية القرن السابع عشر، اتخذت المستعمرات الإنجليزية الموجودة بأمريكا الشمالية شكلًا جديدًا؛ حيث بدأت في استقبال المستوطنين الذين غادروا بلادهم في رحلة للبحث عن طريقة جديدة للعيش وليس للبحث عن الذهب أو الثروات. العديد من المجموعات الأولى التي أتت إلى أمريكا الشمالية الإنجليزية English North America كانت تنتمي إلى طوائف دينية، وجدت صعوبة في العيش في الأجواء العقيمة في أوروبا؛ بينما آخرون كانوا مصلحين اجتماعين يسعون إلى بناء أنواع جديدة من المجتمعات في العالم الجديد، العديد كانوا ببساطة يريدون حياة أفضل.

كان هناك طائفة البيوريتانيون Puritans الذين جاؤوا إلى ماساتشوستس Massachusetts عبر هولندا من منازلهم في إنجلترا، كذلك هناك المينونايت Mennonites من كيرفيلد Kerfeld والذين مثلوا بشكل رسمي أول مستوطنين ألمانيين فيما عرف بالولايات المتحدة بعد ذلك عندما استوطنوا بنسلفانيا Pennsylvania في عام 1683، ونجد أن بنسلفانيا ذاتها تم تهيئتها من قبل القائد ويليام بن William Penn المنتمي لإحدى الجاليات البروتستانتية، لتكون بمثابة مأوى لاستقبال المنبوذين من أوروبا، وننتقل مباشرة إلى الجنوب، لنجد أن مستعمرة ميريلاند Maryland والتي أنشأها لورد كالفرت Lord Calvert كملجأ للكاثوليكيين المضطهدين في إنجلترا.

من الأهمية بمكان أن ننوه بأن معظم البريطانيين والفرنسيين لم يكن لديهم أي اهتمام في تحدي برية العالم الجديد؛ حيث بدت غريبة، وخطيرة، وبعيدة جدًا. نجد في المستعمرات البريطانية، أن هؤلاء الذين لديهم الرغبة في الاستقرار في العالم الجديد مؤمنون حقيقيون سواء كانوا متدينين، أو اجتماعيين، أو ببساطة من التجار، ومن بين أقوى دوافع أيٍّ من هذه المجموعات، خليط من المبادئ القوية، الرغبة في حياة أفضل والتركيز على المبادرة الشخصية، تلت المجموعات بعضها البعض حتى اتخذ مجتمع شمال أمريكا الإنجليزي شكله النهائي.

كان المستكشفون الفرنسيون والمستوطنون قد اجتازوا طريق سانت لورانس St. Laurance بالكامل وصولًا إلى منطقة البحيرات العظمى Great Lakes حتى قبل أن يثبت الإنجليز أقدامهم فيها. العديد من مدن الولايات المتحدة الحالية مثل ديترويت Detroit، سانت لويس St. Louis، ونيو أورليانز New Orleans استوطنها في الأصل الفرنسيون. إن معركة الكيبيك Quebec في عام 1757، أجبرت فرنسا على التخلي عن أراضيها في كندا للبريطانيين. بقي التأثير الاقتصادي والثقافي الفرنسي قويًّا وصولًا إلى مسيسيبي Mississippi حتى أوائل القرن التاسع عشر.

جاءت اللغة الإنجليزية والنظام الاقتصادي والقضائي الإنجليزي ليؤسس طريقة الحياة وليرسموا معالم مستقبل كل من الولايات المتحدة وكندا، واقتصرت السلطة الملكية البريطانية لعدة مئات من القرون من خلال برلمان منتخب. ترسخت الطبقّات الفكرية والتجارية الحرة، وانتشرت جميع الأنواع من المفكرين المتحررين، رغم تعرضها في كثير من الأحيان إلى القمع من جانب التاج البريطاني أو كنيسة إنجلترا.

وكما علق البروفسور دافيد لاندز David Landes من جامعة هارفارد Harvard في كتابه الرائد «ثروة وفقر الشعوب» Wealth & Poverty of Nations «بالنسبة لبعض الأمم مثل إسبانيا، نجد أن الانفتاح على العالم كان بمثابة دعوة للثراء، والادعاء، والتظاهر ـ وهي طريقة قديمة لإنجاز الأشياء ولكن على مقياس أكبر. بالنسبة لآخرين، هولندا وإنجلترا، هي فرصة لعمل أشياء جديدة بصورة جديدة، وللحاق بموجة التقدم التكنولوجي، وما زالت بالنسبة لآخرين، مثل الهنود الحمر Amerindians تمثل نهاية العالم، ومصيرًا رهيبًا فُرض عليهم من الخارج.

إن تلك العناصر: الإيمان القوى بصلاح قضيتهم، والنظام الاجتماعي والاقتصادي الأكثر انفتاحًا وتحررًا لبريطانيا العظمى، وتقلبات قارة غير مروضة، كلها أسهمت في حث الطموح، والذي يبقى أساسيًّا لشخصية الولايات المتحدة الحاضرة، وكما صاغها دي توكفيل De Tocqueville : «إن حياة الفرد الأمريكي تمر بكاملها كلعبة حظ، أزمة ثورية أو معركة».

إن مناطق أمريكا الشمالية المعتدلة وسهولة الوصول وفرت المخرج المثالي لديناميكيات المجتمع الإنجليزي في القرنين السادس والسابع عشر. وبشكل خاص، رفاهية المساحة والأرض المجانية، التربة الخصبة، والأمان ضد الغزوات الخارجية، والذي وفره المحيط كحد جغرافي، مثل جزيرة إنجلترا، ووفرت البيئة المناسبة لتطور الثقافة البريطانية في القرن الثامن عشر لتصبح الفردية الأمريكية كما نعرفها اليوم، وبالرغم من تنوعها الكبير، تظل الولايات المتحدة حتى يومنا هذا، مجتمعيًّا مبنيًّا على تقاليد بروتستانتية إنجليزية، والذي يتضمن الثقة في النفس وغالبًا الإحساس بالبر الذاتي والذي ينتج عن الحياة على جزيرة مؤمنة ومزدهرة.

فُتحت المستعمرات الجديدة للمستوطنين ووفرت لهم في المقابل الحرية والأمل في الازدهار، ولكن تلك كانت أماكن صناعية وذات طبيعة عائلية والتي توقعت من الوافدين الجدد أن يتقبلوا الأخلاقيات البروتستانتية لأوروبا الشمالية. جاء الرب والإنجيل كمبادئ إرشادية للعديد من المجتمعات الجديدة التي تم انتشارها. حدد العمل الشاق والقيم العائلية الأخلاقيات العامة، وفوق كل هذا، هؤلاء الأمريكيون الجدد آمنوا بأنهم تركوا المقاطعات غير المرحبة بهم في أوروبا، ليجدوا حياة جديدة ومفهوم جديد للحرية، والذي غالبًا ما تم إنكاره عليهم في وطنهم.

إن ثروات القارة الجديدة وفرت محاصيل كثيرة للعديد من المستعمرات. تسلح المستوطنون بالإحساس بالمصير الأخلاقي، وأدى نجاح حياتهم في أمريكا أن جعل من السهل عليهم أن يؤمنوا بأنهم في الحقيقة شعب الله المختار، فهم الذين كان عليهم أن يتركوا القارة القديمة المظلمة ويذهبوا إلى مستقبل أمريكا المشرق.

إن الصعوبات و المشاق التي تكبدوها كانت دليلًا آخر على صلاح قضيتهم، فتقريبًا منذ البداية، رأى العالم الجديد نفسه كمثال لجميع شعوب العالم.

جـون وينثروب John Winthrop، حاكم مسـتعمرة ماساشوسـتس، أعلـن عن رؤية في 1630 والتـي وجهت التفكير الأمريكي ليومنا هذا «يجب علينا النظر إلى أنفسـنا على أننا مدينة تقع فوق تل، وأن أعين جميع الناس علينا».

الرؤية والرسالة وحدة واحدة

إن الإحسـاس بالمهمـة يصـف الفترة المربكة من الاسـتعمار والتي يمكـن ملاحظتها بدقة مذهلـة في مزرعـة بلايمـوث Plimoth في جنوب بوسـطن Boston، وعلى مر السـنين، قامت مؤسسـة خاصة بإعادة إنشـاء قرية مشابهة للمسـتوطنة الأولى التي بناها الحُجاج بعد وصولهم في عـام 1620. يقـول التقويم إنها بنيـت في عام 1627 في بلايموث. يأخـذ المواطنون المحليون أدوار السـكان الحقيقيين لتلك الفترة، وتعلموا اللكنات التي تحدثوا بها في تلك الفترة، وأتقنوا مهارات الحرفيين والمزارعين، ويتحدثون الآن عن الآمال التي تحميها تلك المستوطنة الصغيرة بعد 7 سنوات فقط من إنشائها.

يشعر المرء بشي واحد بسرعة كبيرة عند زيارته لبلايموث، ألا وهو ثقة هؤلاء المستوطنين في حمايـة الله لهـم أثنـاء تنفيذهم مهمتهم، قـد يُدعى اليـوم الحجاج بالمتطرفـين الدينيين، حيث أرجعوا كل أمر يقومون به إلى الإنجيل. لقد عاشـوا لمدة سـبع سنوات في مدينة لايدن Leiden في هولندا لتفادي القيود التي يفرضها التاج البريطاني وذلك قبل المجيء إلى أمريكا، وعلى قدر تسـامح هولندا معهم، كان امتصاصها واسـتيعابها لثقافتهم، وغـادر الحجاج إلى أمريكا لحماية تفردهم وتميزهم.

أدى هـذا بطبيعة الحال إلى حالة مـا يقرب من اليقين من البر الذاتي، وحالة من الانعزال والاغـتراب، سـواء كانت في وطنهـم الأم أو في بيوتهم التي يعيشـون فيها الآن، لقد نجحت مسـتعمرة ماساشوسـتس بدرجـة كبـيرة، ويرجـع الفضل في ذلـك إلى السـكان الأمريكيين الأصليين، ولكن شـعور الحجاج بحالة التفوق الأخلاقي وصلت لدرجة عالية جدًا بحيث

لم ينشأ معها قط مجتمع يتعامل مع السكان الأصليين ذوي الطبيعة الخاصة والذين يعيشون في منطقتهم.

توترت العلاقات على مدى الخمسين عامًا الأولى بعد بناء المستوطنات الأولى في ماساشوستس بدرجة اندلعت معها حرب شاملة بين المستوطنين الأمريكيين والسكان الأصليين، والتي عرفت باسم «حرب الملك فيليب». استمر انتقال هذا النمط إلى مستعمرة ويستيروورد Westerward في شمال أمريكا. اعتبرت التهديدات الأمنية التي واجهت السكان كوارث أخلاقية وثقافية يجب أن تعالج بأي ثمن، ثم تم نقل السكان الأصليين من منازلهم، وفي كثير من الأحيان تم القضاء عليهم ببساطة. يمكن استشعار هذا الشعور بالتهديد لدى غير المؤمنين بحرب جورج بوش على الإرهاب. إن الميل إلى تعريف تاريخ الأمة على أنه ملحمة وطنية قد ركز على الصراع بين الخير والشر والذي امتازت به الحياة الأمريكية تقريبًا منذ البداية. حمل الحجاج الأوائل المؤسسون لمستعمرة ماساشوستس مشاعر عدم التسامح والتقوى في آنٍ واحد، ويمكن ملاحظة طريقتهم العنيفة والمسيطرة في إدارة الحياة، في العديد من مظاهر السلوك الأمريكي.

إن دولة مجبرة على العيش على حافة الحياة البرية ليس لديها الوقت لمباهج الحضارة الأوروبية أو للتأمل الذاتي للمجتمعات ذات التقاليد السياسية العتيقة، كنتيجة لهذا، فإن الأمريكيين يهتمون اليوم ببناء المجتمع عوضًا عن الاهتمام بشرح محتواه، وغالبًا ما يأتي تعليق الأوروبيين منصبًّا على غياب النقاش الفكري الحقيقي في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لصالح سطحية معظم النقاشات. إن الأمريكيين غالبًا ما ينتقدون مكافحة الاتجاهات الفكرية في حياتهم العامة، ولكن في النهاية، يتبقى لديهم القليل من الوقت للقيام بتحليل البنية الاجتماعية المعقدة والتي تشكل بدورها أساس الحوار «الفكري» في معظم المجتمعات التقليدية في أوروبا وأسيا.

لا يستمد الأمريكيون الراحة والسلطة من الولاية؛ حيث إنهم لا يرون عالمهم كمجموعة من المجتمعات والكيانات الموالية، والتي تستجدي فضل دولة متمردة في الغالب، إنهم ليسوا بحاجة إلى السؤال عن أصل مجتمعهم أو ما إذا كان مجتمعًا عادلًا أم لا، ولا يوجد لديهم أي حس درامي، هم فقط يعيشون حياتهم اليومية العادلة، ولا يرون أي فائدة ترجى من وراء عملية تحليل الذات.

كانت مصالح الممالك الأوروبية في المستوطنات الأمريكية تختلف كثيرًا عن تلك الموجودة لدى الكثير من المستوطنين، فمن الواضح أننا لدينا نفس الجذور. إن جانبي الأطلنطي ربط بينهما مصير مشترك تقريبًا منذ اللحظات الأولى لاستيطان أمريكا الشمالية، كذلك هوية كل من أمريكا وأوروبا تحتوي على الاغتراب والمنافسة. جاء تركيز أوروبا على السلطة والمنفعة الاقتصادية، والكثير من الحروب العظيمة التي دارت رحاها ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر حدثت أيضًا في أمريكا؛ وبينما توالت سنوات القرن الثامن عشر، أرسى النظام التجاري الممتد عبر الإمبراطوريات الرخاء الجديد لأوروبا.

هكذا لم يشارك مسؤولو المستعمرات الأوروبية الحماس الأخلاقي مع المستوطنين الإنجليكان بر تجربتهم الأمريكية، لقد نظروا بعين الشك والسخرية لمعتقدات العديد من المستوطنين؛ حيث إنهم كانوا متشككين في الأساطير التي تدور حول مجتمعاتهم، وافترضوا أن الأمريكيين غير صادقين فيما يتعلق بالقيم التي ينادوا بها، وبدلًا من أن يروا التفوق الأخلاقي في المغامرة الاستعمارية، رأوا الفساد، وعدم الصدق والأمانة، بل حتى والدمار أيضًا، لقد تعاملوا مع المستعمرات على أنها أماكن غير متحضرة وبدائية.

وبينما بدا مجتمع أمريكي منفصل في التطور، نجد أن آمال الأمريكيين غالبا ما تكون عكس أهداف الحكام الاستعماريين، أما بالنسبة لهؤلاء الذين تخلفوا، لم تكن أمريكا هي الأرض الموعودة، بل هي برية مظلمة يمكن استغلالها لأغراض عسكرية أو اقتصادية، ولكن ليس كجزء من الحضارة الأوروبية.

حاول المستعمرون في المقابل، إظهار أنهم ليسوا منفصلين، ولكن نسختهم الخاصة بالمجتمع الأوروبي أفضل من تلك الموجودة في بلادهم الأم. إن النقاش حول من هو الوريث الشرعي لتقاليد الغرب العظمى، ما زال ينتقل عبر ضفتي الأطلنطي حتى يومنا هذا.

أمريكا كمرآة للمجتمع الأوروبي

إن الجدل الأوروبي الدائم حول طبيعة أمريكا وصل ذروته في القرن الثامن عشر، وظهر مرة أخرى في بدايات القرن العشرين، وتأتي كل حالة مصحوبة بتغيرات كبيرة تحدث في أوروبا، في النهاية جاءت مستوطنة أمريكا كانفجار خارجي صادر عن التجارة الأوروبية، الثقافية، الدينية، والقوة العسكرية والتي مثلت في الواقع المرحلة الأولى العصرية من «العولمة» كما نسميها الآن، وخلال الأربعمائة عام في الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين تغيرت الخرائط الجغرافية، والسياسية، والثقافية بشكل كبير، وذلك تحت ضغط حملات الاستكشاف الإنجليزية. فتحت أجزاء كبيرة من العالم لباقي الجنس البشرى على إثر المغامرات الأوروبية، وتمحورت صناعات ومنتجات جديدة حول هذا الاستكشاف.

بدأ المستعمرون والمستكشفون الأوروبيون الأوائل في إبادة السكان الأصليين من بدايات عصر الاستكشاف، وذلك أثناء تثبيت طريقة حياتهم في المناطق الجديدة. اختفى تحت ضغط التوسع الأوروبي وهنود منطقة الكاريبي، والسكان الأصليين لمنطقة أمريكا الشمالية، وإمبراطوريات الإنكا Inca والأزتيك Aztec، وتم استبدالهم في العديد من المناطق بالسكان الأوروبيين والذين أسسوا لنسختهم من المجتمعات المستوردة من بلادهم الأم.

كانت هذه العملية أكثر اكتمالًا في أمريكا الشمالية، وأستراليا، ونيوزلندا وأجزاء من أمريكا الجنوبية. إن المستعمرات المأوربة Europeanized انتقلت بسرعة كبيرة من الاعتمادية إلى الحرية، وأسست دول قومية قائمة على أساس اللغات والعادات

الأوروبية. انتقلت في العديد من الحالات تلك الدول الجديدة إلى المساواة والديمقراطية بمعدل أعلى من مثيلتها الأم، وأصبحوا معروفين أيضًا بالانفتاح وعدم احترام آداب وأخلاقيات العالم القديم.

خدمت المستعمرات الأمريكية بحلول القرن الثامن عشر كغرض آخر، ألا وهو مكان للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم في البلدان الأم. اعتقد الأوروبيون في هذا العصر أن أفضل وسيلة للتعامل مع الساخطين على المجتمع هو التخلص منهم، وذلك بإرسالهم إلى أماكن أخرى، ولقد حدث هذا للعديد من العناصر الأكثر إبداعًا في المجتمع الاستبدادي الأوروبي، والذي اعتبر خسارة في ذلك الوقت لهم، ولكنها اعتبرت مكسبًا كبيرًا لأمريكا الشمالية وأستراليا.

أصبحت المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية والمستعمرات الأسبانية والفرنسية في أمريكا الجنوبية، تعمل كمستعمرات تأديبية وعقابية خارج الدول الأم. اعتمد الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة المنهج التجاري، والذي غالبًا ما حاكى النظام الإقطاعي في إنجلترا؛ حيث بنيت ثرواتهم على مزارع كبيرة، والتي اعتمد بقاؤها على استمرار الرق، ولقد أثر هذا الأسلوب المعيشي في الحياة الأمريكية حتى يومنا هذا.

كان يُنظر للثورة الأمريكية ـ التي احتفلت بها الولايات المتحدة ـ من وجهة النظر البريطانية على أنها نتاج عمل المتربحين والمقامرين وحثالة المجتمع، والذين حرضوا على التمرد ضد الدولة الأم من أجل المنفعة الخاصة. سعدت فرنسا بالفرصة التي أتيحت لها لاستغلال حالة الاضطراب التي تسبب فيها الغوغاء من الأمريكيين، وذلك من أجل تثبيت أقدامها وزعزعة السيطرة البريطانية في أمريكا، فضلًا عن رد الهزيمة المخزية التي ألحقتها بها بريطانيا في كيبيك Quebec في عام 1757، والتي أدت إلى خروج فرنسا من أمريكا الشمالية في نهاية المطاف. علق مؤلف المعاجم المعروف صامويل جاكسون Samuel Jackson، على السلوك الإجرامي الذي أدى في النهاية إلى الثورة الأمريكية، قائلًا: «أنا مستعد لمحبة جميع البشر،

مـا عـدا الأمريكيين». نحن في غنى عـن القول بأنه نمت لدى الأوروبيـين عزة قومية بجانب الثروات، وذلك بشكل هائل خلال تلك القرون، وتولد لديهم شعور بالمصير الحتمي والذي نـما بلا هوادة حتى حـروب القرن العشرين، وكذلك كان الحال بالنسـبة للجدال الدائر حول المشـاركة الأوروبية في هذا العالم الجديد. جاء القـرن الثامن عشر ليكون قرن الحوار والمنطق، ووجد الكتاب المتنورون في تلك الحقبة علامات تدل على القضايا الساخنة في ذلك الوقت في عملية اكتشاف أمريكا.

مـن الأمور المثـيرة للاهتمام أن معظم النقاشـات أدارها الفرنسـيون مـن أمثال جيوم رينال Guillaume Raynal والذي تجاوز المؤلف الخاص به الثلاثين جزءًا والذي يتحدث فيـه عن تاريخ العالم، كذلك لعب المؤرخون ورجال الدين البريطانيون دورًا مؤثرًا ومهمًّا، ويبـدو أنه قد سـيطر على ذلك الجدل عـبر الأطلنطي والذي يعتـبر الأول من نوعه، ثلاثة موضوعـات رئيسـية ألا وهي، الانحطاط الأخلاقي لأمريكا وسـكانها، والتأثير السـلبي على المجتمع الأوروبي من حيث السـعي وراء البحث عن الثروة والسلطة، والتي تركزت بشـكل كبـير في أمريـكا، وأيضًا الانفتـاح والديمقراطيـة التي تميزت بهـا المجتمعات التي أنشأها الأوروبيون هناك.

خلـص المؤرخ الأمريكي المعروف هنري سـتييل كوماجـر Henry Steele Commager إلى أن جدال القرن الثامن عشر «حتى الآن من الواضح أن الأشـخاص الذين يتسـاءلون (هل كانت أمريكا خطأ؟) لم يكونوا يتساءلون حقًّا عن أمريكا بل كانوا يتحدثون عن العالم القديم، عن الطبيعة والحضارة، عـن المذهب التجاري والمذهب الفيزيوقراطي (المذهب الطبيعي) عن الفساد والمحن الذي أصاب مجتمعاتهم».

إن الانفصـال عـن بريطانيا العظمى حمل معـه ثقة وطاقة جديدة لمليوني نسـمة والذين مثلوا سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت. إن مهمة غزو قارة جديدة أصبح محور تركيز لطاقة عظيمة، وجاء أول توسـع لويسترוورد مع اكتشـاف فجوة كامبرلاند Cumberland

والـذي يمثل أول طريق أرضي فيها وراء جبال الأبـلاش Appalachain. كان هناك طوفان عظيم من المسـتوطنين نحو مناطق تينسي Tennessee وكنتاكي Kentucky نزولًا باتجاه نهر المسيسيبي Mississippi.

أعـد تومـاس جيفرسـون Thomas Jefferson السـاحة للشـعور الأمريكـي «بحتمية المصـير» عندمـا اشـترى من فرنسـا حصة كبيرة مـن القـارة الأمريكية من نهر المسيسـيبى إلى المحيط الهادي. أضاف شراء لويزيانا Louisiana عنصرًا جديدًا ومهمًّا للشخصية الأمريكية، وجـاءت الحـدود لتمثل مؤسسـة الأمة الأمريكيـة الطموحة. إن جيفرسـون نفسـه قال بأن التوسع الأمريكي سينتج عنه «إمبراطورية الحرية» وأضاف قائلًا: «... أنا مقتنع بأنه لا يوجد دسـتور محكـم في أي وقت مضى، كذلك الـذي لدينا من أجل إمبراطوريـة مترامية الأطراف وذات حكم ذاتي».

لم يعظم توسيع لويستروود خصائص الثقة بالنفس والطموح فقط، وإنما عظَّم أيضًا حالة التقوى والتدين والتي وجدت في المستوطنات الأصلية والناشئة منذ 200 عام تقريبًا. أصبحت أمريكا مجتمعًا قاسيًا وعنيفًا، وجاءت الصناعة والسعي للربح في مراتب متقدمة عن الاستقرار والثقافة.

طبيعة الأمريكيين الخاصة

تطـورت خلال تلك سـمتين أمريكيتـين خاصيتين والتـي دخلت الولايـات المتحدة عن جذورها الأوروبية ألا وهي العدالة والانسجام.

نشـأ مـن هذا المبـدأ العمـلي المعتقـد الأمريكـي في العدالـة، وهي ميـزة يحبهـا في الغالب الأوروبيـون. وجـدت عندما وصلت إلى ألمانيا في أول مرة أنـه لا يوجد مرادف حقيقي لكلمة «العدالة» بمفهومها الأمريكي في قاموس مفردات اليوم. في غضون ذلك، جرى اعتماد الكلمة الإنجليزيـة في معظـم أنحاء أوروبا كوصـف لطريقة التعامل مع الآخريـن، وهي كلمة عملية متوازنة ومتسامحة في حد ذاتها.

لقـد تعلمت هذا الـدرس بوضوح في منتصف الثمانينيات من القـرن الماضي، عندما كنت سـفير الولايات المتحدة في برلين المنقسـمة. أصابني القلق حينذاك حـول إن كان الجدل الدائر حول مسـتقبل أوروبا ينحرف عن مسـاره، ويرجع ذلك إلى الجدل الكبير الدائر حول السـلام والذي سببه الصراع على الصواريخ متوسطة المدى في أوروبا. من وجهة نظري، دفعت مخاوف الحرب النووية قادة ألمانيا إلى عدم دعم نقابة التضامن العمالية الديمقراطية بقوة كما كان ينبغي. قمـت بتنظيم عشـاء عـادي في مقر إقامتي من أجـل التحقيق في هذه القضايـا، ولقاءات حول المسـائل المتعلقة بمسـتقبل أوروبا الوسـطى Mitteleuropa. توافد المشـاركون من وأصحاب وجهـات النظـر المختلفة مـن عدة دول. وجـدت أن المناقشـة مفيدة ومحفـزة، ولكنني سرعان مـا فوجئـت بردود أفعال العديد من المشـاركين الألمـان، وقد صرح البعـض بأنهم لن يحضروا مـرة أخـرى؛ لأنهـم لا يسـتطيعون الجلوس عـلى مائـدة واحدة مـع أصحاب وجهـات النظر المخالفة، وقال أحد الأشخاص بأنه لا يمكنه أبدًا أن يدعم تلك النقابة مهما كان ذلك يدل على الديمقراطية، وذلك بسبب دعم الكنيسة الكاثوليكية لها.

مـع ذلـك، أثنى علي آخرون؛ حيث قالوا بأنهم قابلوا أشـخاصًا عندي لم يكونوا ليتحدثوا معهـم في أي مناسـبة أخـرى. إن الالتزام الأمريكي نحـو العدالة والانفتاح جـاء مُرحبًا به من هؤلاء الأشخاص، حتى وإن عارضوا كثيرًا مما قيل على مائدتي.

بالرغـم من الإيجابية التي قد تتمتع بها العدالة الأمريكيـة، فإنه هنا يقابلنا اثنان من التناقضات الأساسية في الحياة الأمريكية، الانسياق والأنانية. نشأ أيضًا عن غياب النقاش الأساسي، الميل نحو رفض الأشـخاص أو القادة الذين يتناولون بالأسـئلة الأركان الأساسـية للثقافة الشعبية. إذا ما تم اعتبار مؤسسات مجتمع ما منفتحة بشكل نهائي لإدخال التحسينات والتعديلات، فبالنسبة لأولئك الذيـن لا يصدقـون مقدرة أمريكا المتأصلة في القدرة عـلى الوصول إلى الكمال، فإنه يجب عليها الآن أن تكون مختلفة بشـكل ما وربما أن تكون حتى خطيرة، وإذا ما تم اعتبار أن رغبات السـكان محددة من قبل الرب، يصبح هؤلاء الذين يقترحون تجديدها موضع انتقاد أو حتى موضع سخط.

تنتشر الحرية والعدالة على نطاق واسع في أمريكا، ولكن كما أشرنا في فصل سابق، أن أسس الهوية الأمريكية تستند إلى النظرة الخارجية والسلوك، وليس إلى أصول المجتمعات أو المؤسسات التاريخية. إذا تحدثنا اليوم بلغة الحاسب الآلي، فيمكننا القول بأن الأمريكيين يعيشون في «أمة افتراضية» إذا جاز التعبير؛ حيث يتم إعادة تعريف المبادئ والمؤسسات طوال اليوم، وذلك من خلال السلوك وليس من خلال الممارسات المتعارف عليها والمعمول بها؛ حيث لم يعد هنا تقاليد تاريخية يعول عليها.

راقب دي توكفيل تلك الصفة؛ حيث قال: «في أمريكا يقيم الناس حواجز عالية حول حرية العالم؛ حيث يمكن للكاتب أن يعبر عن رأيه في حدود تلك الحدود، ولكن كل الويل له إذا تخطاها».

إن الأمريكيين في نزعتهم الفردية، يميلون إلى أن يكونوا أكثر التزامًا بالذوق والأخلاق من العديد من الأوروبيين. إن الرغبة في الانسجام مع أنماط سلوكية معينة ناتج طبيعي عن حاجة المهاجرين الجدد إلى قبولهم في وطنهم الجديد.

إن الصراعات الموجودة بداخل المجتمعات الأوروبية تؤكد على الميل نحو مهاجمة أسس هذا النمط من الحياة. لا يستبعد الأمريكيون أعضاء المجموعات الأخرى كما هو الحال في أوروبا في كثير من الأحيان. إذا أراد الوافد الجديد أن يقبله المجتمع الأمريكي، فيجب عليه/ عليها أن يصبح «أمريكيًا» بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

تستمر تلك الصفة حتى يومنا هذا من خلال التشابه الموجود بين المدن الأمريكية، وغياب الحوار الثقافي العميق، وردود الفعل السريعة والتي في كثير من الأحيان عنيفة على الانتقادات من قبل الغرباء. غالبًا ما تطبق صفة «معاداة الولايات المتحدة الأمريكية» على أقل الانتقادات أو حتى الشكوك الخفيفة على الانتقادات من الخارج.

تلقي أساليب الحياة المختلفة تسامحًا ما دامت ضمن الأطر الأمريكية التقليدية. أما بالنسبة للمعاملات الدبلوماسية يتبنى المفاوضون الأمريكيون في الغالب مواقف مبنية على المبادئ

بشـكل كبير، والذي قد يقوض مصالح أمريكا نفسـها. يمكن إرجاع العديد من السـلوكيات المتبعـة خـلال الثمانيـة أعوام الماضية مـن عمر الحكومة الأمريكية، إلى تلك السـمة من سـمات الشخصية القومية.

إن تلـك الخلافـات العميقة في الفهم الثقافي هي السـبب الحقيقي وراء إبـراز الفجوة بين أصـول المجتمعات، والتي تمثل أسـاس بنـاء المسـتعمرات الأمريكية ووعـي الأوربيين الذين توافدوا للعيش في تلك المسـتعمرات، والتي تمثل بدورها قصة لا تنتهي والتي يمتد تأثيرها إلى يومنا هذا فيما يخص طريقة تعامل الأمريكيين والأوروبيين مع بعضهما البعض. كتبت فرانسيس ترولـوب Frances Trollope «أنا لا أحبهم، أنـا لا أحب مبادئهم، أنا لا أحب عاداتهم، أنا لا أحب أراءهم، وأنا لا أحب حكومتهم»، وهي امرأة إنجليزية عاشـت مع أسرتها في الولايات المتحدة لمدة سبع سنوات في عشرينيات القرن التاسع عشر.

اشـتهرت فيـما بعد السـيدة تورلـوب بكتابها «الآداب الأهليـة للأمريكيـين Domestic Manners of The American»، والـذي قامـت بنـشره إبـان عودتهـا إلى إنجلـترا. لقد كانت السـيدة تورلوب الأولى من ضمن العديد من الكتاب الأوروبيين المسـافرين، والذين أرسـلوا بدورهم تقارير مثيرة حول الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر.

يظـل كتـاب الكونت دي توكفيـل «الديمقراطية في أمريكا»، يمثل التحليل الكلاسـيكي مـن وجهـة نظر معجب بالمجتمع الأمريكي، والذي يبقى ذو صلة حتى يومنا هذا، ولكن يبدو أن الأغلبية توافق سـيجموند فرويـد Sigmund Freud، الذي قال في إحدى خطاباته لزوجته عقب أولى زياراته للولايات المتحدة «إن أمريكا لخطأ، خطأ عظيم».

لقـد عرضـت الحياة الأمريكية على الرغـم مما يبدو عليها من صعوبة، جائزة قد فشـل العديـد مـن المثقفـين الأوربيـين في تقديرهـا، وتلـك الجائـزة هي إحسـاس الفـرد بالحرية والإنجاز، حرية العيش والتفكير كما يشاء، وفوق كل هذا حرية تعريف المجتمع؛ بل وحتى التاريـخ وذلك كجزء من الطموح الشـخصي بدلًا من أن تكـون محصلة للحروب، تعاقب

السلالات والقرارات والمراسيم الملكية، كما كان الحال غالبًا في أوروبا. لم يتم استخلاص الحرية والرخاء من رحم الأرستقراطية القمعية؛ بل جاءت كنتاج للإنجاز الفردي. لا توجد «دولة» بالمفهوم الأوروبي، وذلك كما صاغها هيجيل Hegel «إن أمريكا هي مجتمع مدني بلا حكومة».

كان هنري أدامز Henry Adams حفيد الرئيس الأمريكي الثاني جون أدامز John Adams، أمضى عامًا في إحدى جامعات برلين في أواخر عام 1850، وأظهر هنري الرفض الأمريكي للسلطة من خلال وصفه للتعليم الجامعي في برلين، والتي ذكرت في مذكراته «تعليم هنري أدامز The Education of Henry Adams»، والتي نشرت فيما بعد بسنوات كثيرة: «لم يكن التوجيه سيئًا، لقد كان نظامهم هو ما صدم الأمريكيين الذين يعيشون بلا نظام. لا تشجع الحكومة الألمانية التفكير، يبدو التعليم الحكومي بكافة مستوياته كنوع من أنواع المحركات لجذب العقل الشعبي، وذلك من أجل تحويل القوى الشعبية نحو الاتجاه الذي من المفترض أن يخدم أغراض الدولة بشكل أكثر فاعلية».

> اتفق معظم الأميريكيون من البداية مع أفلاطون مع قوله في الآيون Ion الخاص به «إن الشعر أقرب إلى الحقيقة الحية من كونه أقرب إلى التاريخ». إن الأمريكيين يعتقدون أن الحرية والتناغم الاجتماعي يأتي من تفاعل العناصر التي تبدو أقرب إلى الشعر، ويعتقد المؤرخ الأمريكي الشهير فريدريك تيرنر Frederic Turner الذي عاش في القرن التاسع عشر، إن الاعتناق الأصيل لتلك الصفات الأمريكية هو انفتاح الحدود العظمى لأمريكا الشمالية، وأضاف قائلًا عن الأمريكيين «لديهم شعور بالكراهية نحو التحكم والسيطرة».

عاد ذلك الأمل الديمقراطي الأمريكي إلى أوروبا من خلال ثورات عام 1848؛ حيث كانت الولايات المتحدة هي الدولة العظمى الوحيدة التي استطاعت التعرف على الحكم الملكي للبرلمان بفرانكفورت Frankfurt، حتى إنها أرسلت سفينة حربية وطاقمها إلى مدينة بريمين

Bremen كمساهمة إلى سلاح البحرية الخاص بالحكم الألماني الديمقراطي الجديد، وعندما تم قمع الثروة هرب آلاف الأوربيين للعيش بحرية في أمريكا.

بدأت موجة من الهجرة الأوروبية إلى أمريكا في عام 1848 والتي استمرت حتى الحرب العالمية الأولى، يتم التعبير عن عواقب تلك التحركات العظيمة في شكل مصطلحات اقتصادية وثقافية، ولكن الأساس الذي وجد بداية من عام 1848 كان له أثر هام على التطور المستقبلي لأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ولم تأتِ تلك التأثيرات إيجابية دائمًا.

يذكر هورست ديبل Horest Dippel الأستاذ بجامعة كاسل Kassel الخلاف السياسي العنيف في ألمانيا قبل وبعد ثورة 1848.

> «وعلى أية حال، لم يعزز الخلاف من قوة حرية الفرد في ألمانيا؛ بل بدلًا من ذلك أدى إلى التركيز على إحكام سيطرة الدولة خلال وقت هاجر خلاله ملايين الألمان من أجل بدء حياة جديدة بأمريكا، لقد جذب المهاجرون فكرة الحرية وفرصة تطوير الذات والتعبير عنها، والتي تمثل فكرة الحياة، والحرية، والسعي وراء السعادة في أمريكا».

لقد ترددت أصداء أهداف ثورة 1848 في أرجاء أمريكا، لقد تأثرت صورة أوروبا لدى أمريكا بشكل كبير من خلال روايات الوافدين من اللاجئين السياسيين من أوروبا، ومن الهام بمكان أن ننوه بأن تلك الموجة القادمة من المهاجرين وصلت متزامنة مع اندلاع الصراعات في أوروبا، ومع ظهور السلطة الوطنية الألمانية.

أصبحت بالتالي الهجرة تمثل سلاحًا ذا حدين منذ القرن التاسع عشر، يؤثر على العلاقة بين أوروبا وأمريكا، على الجانب الآخر فهي قربت الأخلاقيات الأمريكية من تكامل الجوانب العملية الخاصة بالثقافة الأوروبية، على سبيل المثال، أنا مقتنع بأن السلوك الأمريكي الإيجابي نحو ألمانيا بعد الحرب العالمية جاء معززًا بتعاطف لا شعوري.

على الجانب الآخر، هناك كراهية لا شعورية مستمرة حتى اليوم، والتي علمت عنها في البداية من أجدادي. لقد أصبح المهاجرون، خاصة الألمان، نوعًا جديدًا من الأوروبيين: منتجًا، ناجحًا، ومعتمدًا على الذات بشكل كبير، ومعارضًا بشدة للمجتمع السلطوي للإمبراطورية الألمانية. إن القائمة التي تضم أسماء الناجحين والمحافظين من الألمان الأمريكيين طويلة، وهم بالكاد يعرفون بالنسبة للدولة المحبة للسلام كما نعرفها الآن في ألمانيا، ويمثل دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld هنا مثلًا للعديد من الآخرين.

الكراهية موجودة لدى الجانبين؛ حيث راقبت ألمانيا القومية التي تعاني من انعدام الأمن، والشريك الأمريكي الشمالي القوي بشك متزايد. لقد سيطر على البعض مشاعر الطموح الأمريكي. إن قراءة التقارير السياسية حول تلك الحقبة في يومنا يجعل الفرد منا متأثرًا بذلك القلق الشديد المتنامي على كلا جانبي الأطلنطي حول المواجهة بين الطموح الأمريكي والألماني.

تسببت «فوضى» المجتمع الأمريكي في شعور العديد من الأوروبيين بالانزعاج، وهي التي وصفها هنري أدامز منذ 150 عامًا مضت، وكما كتب الصحفي الرحالة الشهير آرثر هولشر Arthur Holitscher في عام 1913 قائلًا: «هذا القلق الذي لا ينتهي» يوضح الكثير حول طريقة الحياة الأمريكية، إن طاقة أمريكا غير المحدودة ليست فقط مجرد طاقة للسعي نحو الحصول على الدولار، بل يعتبر الدولار مجرد وسيلة للتسديد للأمريكيين مقابل كميات العمل المهولة التي يقومون بإنجازها. إن النشاط هي الكلمة السرية لوصف ذلك البلد ولكشف غموض هذا البلد غير المستقر.

إن هذا البلد غير مستقر، كذلك نجد أن الاكتشافات متشابهة آنذاك والآن، وكيف تتشابه أيضًا الاتهامات المفروضة على الولايات المتحدة، إنها مواجهة بين كل من الافتقار إلى الثقافة و«طريقة الحياة الأمريكية» سيئة السمعة والأحادية الأمريكية.

شراكة القرن العشرين والرفض

أصبحت أمريكا منافسًا خطيرًا على الساحة العالمية بحلول نهاية القرن التاسع عشر، وانضم الجميع إلى الجدال القائم حول أيٍّ من جانبي الأطلنطي يقدم أفضل نموذج للثورة الصناعية الجديدة.

لقد قدمت الإمبراطوريات المتنامية في بريطانيا وفرنسا، وكذلك المجتمع الصناعي الناشئ في ألمانيا، مجالًا واسعًا للنقاش، وحيث إن الولايات المتحدة كانت مستعمرة فيما سبق فقد رفضت بدورها الاستعمار وأدانت بشكل مستمر كلًّا من الكيان الفرنسي والبريطاني على إمبراطورياتهما، وظهرت أمريكا على الساحة العالمية في عام 1898 وذلك عندما ربحت الحرب القصيرة التي دارت بينها وبين إسبانيا، والتي أنهت بدورها وجود الإمبراطورية الإسبانية في العالم الجديد، وعلى الرغم من أن الأمريكيين كانوا يدرسون بأعداد كبيرة في الجامعات الألمانية فإن الأصوات الرافضة للنظام الإمبراطوري والسيطرة في القيصرية تعالت، بحيث إن الانتقاد الموجه إلى النظام الألماني أصبح عاليًا لدرجة أن عالم النفس ورجل الصناعة الشهير هوجو منستربرج Hugo Monsterburg والذي ولد في مدينة دانزيج Danzig في عام 1863ولكنه بنى سمعته وشهرته في الولايات المتحدة وألف كتابًا قصيرًا بعنوان «الصفقات الأمريكية من وجهة نظر ألمانية American Traits from a point view of a German»، ولكن في حقيقة الأمر نجد أن هذا الكتاب يدور حول الصفات الألمانية؛ حيث إنه يمثل مجهودًا شخصيًّا جدًّا من ناحية شخص ألماني أمريكي شهير جدًّا وذلك من أجل بناء التعاطف اللازم تجاه النظام السياسي والاجتماعي الألماني، ولكنه لم يلاقِ نجاحًا يذكر.

لقد سمعت ألفاظ ينطقها الأمريكيون بشكل جيد في القرن الحادي والعشرين والتي تعبر عن أوصاف مماثلة لتلك الموجودة في الحياة الأوروبية آنذاك. يوجد شيء ما فوضوي فيما يتعلق بالتفكير الأمريكي والذي يؤدي إلى تقديم التاريخ بصفته لوحة للإنجاز الفردي والتي غالبًا ما يصاحبها غرض أسمى.

إن التناقضات بين المبادئ العليا للآباء المؤسسين وحقيقة وعورة الحدود القائمة، تم التغلب عليها من خلال التوجه نحو هدف أسمى، والذي من أجله اختار الرب الشعب الأمريكي على حد تعبيرهم. إن كلمات المستوطنين الأصليين في عام 1830 لها نفس الرنين كما كانت في عام 1630، وبالفعل تردد صداها من خلال الخطاب السياسي الأمريكي اليوم.

غالبًا ما يجد الأشخاص غير الأمريكيين تناقضات بين الخطاب الأمريكي والحقائق التاريخية والمجتمع المعاصر، خاصة عند زيارة الولايات المتحدة لأول مرة؛ حيث يجد الأوروبيون الذين نشئوا وهم يستمعون إلى الأساطير الأمريكية والثقافة الشعبية، أن الحياة الأمريكية الحقيقية مخيبة للآمال، ونجد أنهم في كثير من الأحيان يجانبهم الصواب.

إن معظم الوافدين من الأجانب لا يستطيعون استيعاب مسألة لماذا تشعرهم أمريكا بالانزعاج لتلك الدرجة، إن معظمهم يريد أن يبقى بالقرب من أمريكا، ولكن هناك تلك الحفرة العميقة التي يستمرون في الوقوع فيها، وفي كثير من الأحيان لا يكون الجوهر هو ما يزعجهم، بل التعبير المتكرر عن تلك المشاعر التي تعبر عن الوطنية أو المعتقدات الدينية؛ حيث نرى على سبيل المثال العديد من أعلام الدول فوق أسطح المباني، بحيث يسبب كل هذا الشعور بالقلق بطرق لا يمكنهم التعبير عنها، ولكن تصبح أمريكا بالمكانًا غير المريح عندما يستمعون إلى ذلك التعبير المتكرر عن المشاعر، بل وتصبح في أحيان أخرى مكانًا خطيرًا. إن كثيرًا مما يطلق عليه بمعاداة الولايات المتحدة هو في واقع الأمر نتيجة لتلك الحفرة العميقة والتي تمثل الفجوة بين الواقع والطريقة التي يصور بها الأمريكيون أنفسهم، والتي تجعل الصورة في نهاية المطاف تبدو غير دقيقة وخاطئة، بل ومُهدِدة في بعض الأحيان أيضًا.

نجد أن ما هو أصعب، هو استيعاب مسألة أنه على الرغم من توجيه الأمريكيين أنفسهم للانتقادات العنيفة للحال الأمريكي، فإن الاقتناع الراسخ بوجود الخير في بلادهم والنجاح اللانهائي لها، هو سمة ما زالت متغلغلة بين الأمريكيين في كافة مجالات الحياة تقريبًا، بل يزداد هذا الاقتناع القائل بأن أمريكا على المسار الصحيح، قوة حتى بين المهاجرين من الفقراء والمحرومين.

كتب الخبير الألماني الشهير في الشؤون الأمريكية جبهارد شويجلر Gebhard Schweigler، عن هذا الجانب من الثقافة الأمريكية معلقًا: «... ولأن الأمريكيين اتحدوا فيما يتعلق بتوافق الآراء حول القيم الديمقراطية الليبرالية، ولأنهم أيضًا صدقوا الوعد بالتفرد والامتياز، ولأن ثقافتهم السياسية سمحت لهم بل وشجعتهم على أن يصبحوا ناشطين في السعي نحو تحقيق الكمال المفترض، فقد أصبحوا قادرين على التعامل مع النزاعات الناشئة عن الفجوة بين العقيدة ومصداقيتها على نحو فريد: لقد أصبحوا «القوة الدافعة» للإصلاح السياسي للنظام».

صاغ هنري فورد Henry Ford الرائد الكبير في مجال صناعة السيارات الأمريكية، هذا الفكر بالعامية الأمريكية في إحدى المرات عند زياراته لأحد القلاع الأوروبية القديمة، وذلك عندما هتف قائلًا:

«إن التاريخ لأمر هراء»، وهو نفس الشخص الذي بنى أفضل متحف أمريكي في بلدته الواقعة قرب ديترويت، وأطلق عليه اسم أمريكانا Americana، ويروي هذا المتحف قصة أمريكا نحو التقدم والسعادة، وذلك من خلال الهندسة المعمارية والسلع الصناعية والفن الشعبي؛ حيث يذهب الآلاف من أطفال المدارس إلى هناك لمعرفة قصة أمريكا، والذي يجعل التاريخ من خلاله يبدو كأبيات الشعر.

إن المبدأ الأساسي هنا هو الإصلاح وليس الثورة، وهو الأمر الذي يمثل توقع النقص كأساس للمعتقد، وكما اقترح أعلاه، فإنه قد يعرف أحد علماء الفلك هذا الأمر على أنه يمثل المادة المظلمة، أو العنصر السري للمجتمع الأمريكي، وهو الأمر الذي نجد أنه يمثل مبدأ مسيحيًا للغاية؛ حيث يتم الخلاص من خلال الاعتراف بالخطيئة. إن كل زعيم أمريكي أتى بما في ذلك باراك أوباما، يعرض رؤيته من منظور العودة إلى المبادئ المثالية للمجتمع، وذلك بدلًا من القول بتغييرها جذريًا، ويتم استخدام التاريخ هنا كباعث على المزيد من الإنجازات وليس كتحذير عما حدث في الماضي، حيث إنه لا يمثل مجموعة من القواعد السلوكية.

عندما بدأ باراك أوباما خطابه الافتتاحي بإعلان نيته بـ «إعادة تشكيل أمريكا»، فإنه لم يعني بذلك أن الولايات المتحدة بحاجة إلى نظام سياسي أو اقتصادي جديد، أو أن المبادئ التي تقوم عليها الأمة واستندت إليها غير صالحة، بل على العكس منذ ذلك تمامًا يهدف أوباما من خلال إعادة بناء أمريكا إلى عودة البلاد إلى حالتها الأصلية، وهذا هو جوهر الهوية الأمريكية.

يمثل هذا الشعور باليقين بالخلاص من خلال وجود النقص، هو غالبًا ما يغضب أصدقاء أمريكا؛ حيث ينظرون إلى هذا الأمر على أنه غطرسة أو تصرف يليق بالريفيين، وعلى أقل تقدير يمثل شعورًا بعدم الإحساس بالمشاكل الحقيقية في العالم، ولكن لا ينبغي في معظم الحالات أن نخلط بين الشعور بالتفرد الأمريكي وبين الغطرسة أو انعدام الحساسية؛ حيث هي بالأحرى تمثل الآلية التي يستخدمها الأمريكيون للتعامل مع الصعوبات وخيبة الأمل، وذلك من خلال عودتهم إلى المبادئ الأولى، والصفات الأمريكية والله والدستور الأمريكي، إنهم يستخدمون هذا الأساس لجمع الطاقة لكتابة الفصل القادم من تاريخ الولايات المتحدة. إن فهم معنى هذه الصفة الأمريكية لهو أمر ضروري لفهم كيفية التعامل مع الولايات المتحدة.

في ذات الوقت، فإن «افتراضية» الهوية الوطنية كما وصفتها تؤدي إلى تواجد خصائص مميزة، والتي قد لا توجد في كثير من الأحيان في دول ذات تاريخ عريق، ونجد أن بعض تلك الخصائص جيد، مثل البراجماتية الأمريكية والإنصاف، بينما البعض أقل جودة، مثل الغيرة، واستهلاك موارد العالم بطريقة غير مسؤولة، ويمثل هذان عنصرين للمجتمع الأمريكي يجب على المرء أن يستوعبهما إذا أراد التعامل بنجاح مع الولايات المتحدة.

يرى الرئيس أوباما أن هذه السمة في المجتمع الأمريكي في غاية الأهمية لدرجة تجعله يبرزها ويشدد عليها في هذه الفترة من الأزمة، والتي أشار إليها في خطابه الافتتاحي:

«إننا لا نزال أمة فتية، لكن كما جاء بنص كلمات الكتاب المقدس، أن الوقت قد حان لننحي جانبًا التصرفات الصبيانية، لقد حان الوقت لتجديد روحنا الدائمة، لكي نختار أفضل

مـا في تاريخنا، وذلك من أجل المضي قدمًا بتلك الهدية الثمينة، ولقد انتقلت تلك الفكرة النبيلة مـن جيـل إلى جيل: وهي مـا وعدنا الله به، هو أن نكـون كلنا على قدم المسـاواة وجميعنا أحرار ونستحق كل فرصة مواتية لتحقيق أقصى قدر ممكن من السعادة».

إن تعبـير «التصرفـات الصبيانيـة» الـذي اسـتخدمه أوبامـا يشـير إلى الرسـالة الأولى لكورنثـوس الفصـل 13 ـ الآية 11، والتي تقول: «عندمـا كنت طفلًا، تحدثت كطفل وفهمت كطفل وفكرت كطفل، ولكن عندما أصبحت رجلًا ابتعدت عن تلك التصرفات الصبيانية»، وفي أمـة تبـدو ثرواتهـا لا نهاية لها وفي حالة نمو مسـتمر، وبإضافـة الزيادة المسـتقرة والمطردة للثروة والممتلكات، نجد أن هذه أمور ينظر إليها تقريبًا باعتبارها جوهر الشخصية الأمريكية Americanness، وفي مثـل هـذه الأمـة جاء هـذا الفعل الشـجاع من الرئيـس الجديد ليقول مباشرة وبصراحة إلى المواطنين، إن الوقت قد حان بالنسـبة لهم لينضجوا، وذلك بالاسـتعانة بكلمات الكتاب المقدس.

انتقـد مؤيدو الرئيس بوش إشـارة أوباما باعتبارها ترفض روح سـنوات ريجان وبوش، وهـم محقـين في هـذا الأمر، بـل ويمكن إضافـة سـنوات كلينتون كذلك، إنها ليسـت سـوى خطـوة قصـيرة من التأكيد عـلى الأنانية والغـيرة في ذوق وسـلوك الشـخصية، إن عدم نضج هذه الشـخصية يمثل الضعف التقليدي للمجتمع الذي يعتقد أن ثرواته هي نتيجة لمجهوداته ومواهبه الخاصة.

يسـعى القادة ورجال الدين حتى يومنا هذا لحشد أتباعهم ضد خطايا الطمع والرغبة. إن عدم نضج الطبقة الحاكمة في أمريكا هو شـكل ثابت لموضوع الخطاب السـياسي، وأصبح هذا الاتجاه قويًا خصوصًا في فترة النمو المزدهر كما هو الحال في ثمانينات وعشرينيات القرن الماضي، أو نهايـة القـرن العشرين، وفي ظل هـذه الظروف يزحف عـدم النضـوج والطفولية إلى داخل المجتمع والحكومة.

مما لا شك فيه أنه كان يوجد غرض هام في عقل الرئيس الجديد عندما قرأ هذا المقطع من خطابه، لقد عاشت أمريكا طويلًا كأمة لا تعطي أي انتباه إلى الآثار المترتبة على أفعالها واستهلاكها للثروات الطبيعية في العالم، أو دفعها بعيدًا للثقافات الأخرى، واعتقادها بأن فرض أي قيود على سلوك الشخصية الأمريكية هو معادية صريحة للولايات المتحدة، إن هؤلاء الأشخاص هم نفسهم من قاموا بالبيع ثم شراء الرهانات العقارية الثانوية، وهم الذين يقودون سيارات تستهلك كميات كبيرة من الغاز، ويقومون ببناء منازل غير مجدية على مساحات من الأراضي الطبيعية. إن أوباما يفهم بوضوح طابع الشعب الأمريكي، إنه يعلم تمامًا بأن بلاده على حافة الإفلاس السياسي والتعثر الاقتصادي، كذلك يعلم أنه إذا لم يتم وضع «التصرفات الصبيانية» جانبًا، لن يمكن أبدًا لأمريكا أن تصبح قوية مرة أخرى.

الفصل الرابع

الوطن شيكاغو

تمتلك شيكاغو عاملًا جديدًا من عوامل الجذب السياحي: آثار تراث باراك أوباما، فليس هناك من سكان ثالث أكبر مدينة في أمريكا من تحول إلى أسطورة بالسرعة التي تحول بها الرئيس الرابع والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية الذي قضى عشرين عامًا من عمره في حي هايد بارك Hyde Park متعدد الثقافات، وتقدم المدينة ويقدم هذا الحي جولة لرؤية الموقع متتبعين آثار المواطن الأسود: سيرًا على الأقدام ستصل إلى جريدة هايد بارك هيرلارد المحلية Hyde Park Herlard التي كان يكتب فيها سيناتور مجلس نواب إلينوي أعمدته والتي كان يعمل بها زميله المقرب ديفيد أكسلورد David Axelord كمحقق صحفي ثم في الجامعة، حيث كان طالب الحقوق يقرأ القانون في القاعة 5 وإلى محل الكتب الذي يقع على الناصية، حيث كان القارئ المجتهد يفتش كثيرًا، وهناك عرضت كتبه التي كتبها بنفسه.

القمة هي صالون حلاقة هايد بارك؛ لأن الحلاق الظريف كان يحب الكلام ويتباهي بنفسه؛ لأنه «أول حلاق أسود لرئيس أمريكي»، بالمناسبة لقد كلفت قصة الشعر 21 دولارًا، طبعًا لا يجوز أن ننسى الأماكن المفضلة مثل الأزياء الإيطالية "Modeitaliener" للمناسبات الاحتفالية ومطعم البيتزا من أجل الأطفال والمطعم الكاريبي لفترة الظهيرة وبار سناك Snackbar من حين إلى آخر ـ ثم القمة مرة أخرى ـ وهو المكان الذي كان يوجد به في السابق مقهى آيسكافيه Eiscafe حيث التقى أوباما وميشيل للمرة الأولى.

ثـم الشـقق التي كان يسـكن فيهـا في البداية وحده وبعـد ذلك مع زوجته، غـير أن منزله القرميدي الفيكتوري على الجانب الشـيكولاتي من هايد بارك بات مغلقًا منذ أغسـطس 2008 عندما أعلنه الحزب مرشّحا رسـميًا، وقبل ذلك كان مراسـلو التلفزيون ومن بينهم أنا يجبون كثيرًا أن يستخدموه كخلفية للمذيع.

اتجهت الجولة بالأتوبيس إلى بوتيك ماريا بونتو Maria Ponto التي كانت تكسـو ميشـيل أوبامـا بالثيـاب العصرية الرخيصة ثم إسـتاد شـيكاغو وايت سـوكس Chicago white sox وهو فريق كرة السـلة المفضل لدى أوباما الذي كان نفسـه لاعب كرة سلة متحمسًا. أما مبيت المرشـحين في فندق ميتشيجان أفينو Michigan Avenue فقد كان يشاهد من الخارج فقط فقد كان مختبئًا بشـكل فائق في مبنى كلوكتسينسـكي Kluczinsky الاتحـادي وعندما قمت بزيارته ذات يـوم لفـت انتباهـي الأثاث المتناثـر والكؤوس الورقية، وكذلك سـلة كانـت تحمل لافتة كتب عليها «تبرع بالشامبو والصابون وغيرها من أغراض الفندق من أجل المشردين» ويدخل ضمن الجولة حقل هاتشينسـون Hutchinson في جرانت بارك Grant Park حيث كان أوباما يلقي خطبة فوزه في مساء 4 نوفمبر إلى 5 نوفمبر 2008.

لم تتضمن الجولة زيارة إلى «بيج شـولدر Big Shoulder» ـ الأكتاف العريضة ـ التي تعود إلى قصيدة للكاتب الكبير كارل سـاندبورج Carl Sandburg الذي استطاع منذ حوالي قرن أن يجعل من عالم الجريمة والسلوك الفظ للصناع والأقوياء في شيكاغو علامة مميزة .

لم يتضمـن البرنامج أيضًا كنيسـة ترينيتـي Trinity التي تقع على الحافـة الجنوبية للمدينة، وفي هـذه الكنيسـة الإنجيليـة الكبيرة قام القسـيس رايـت Wright بعقد قـران أوباما وزوجته وبتعميد الطفلتين، كما كان أيضًا يلقي مواعظه حول الصراع الطبقي، فقد كان موقف الكنيسة الأفروأمريكية حساسًـا جدًا تجاه الدولة، وعندما نبذ أوباما المرشح في انتخابات 2008 قسيسه اعتبرهـا الكثير مـن الأفروأمريكان خيانـة، واعتبرها آخرون خطوة ضرورية لتخطي جسـور الناخبين البيض المحافظين.

قال المرشد السياحي: «دعونا ننس هذه الأشياء الصغيرة ـ وكان يشير بذلك إلى الإنجيل الذي كان باراك أوباما يستخدمه حتى في خطاب التنصيب، فقد نضج أوباما داخل ذلك المزيج من الأعراق المختلفة في شيكاغو ولا توجد مدينة أمريكية تقاتل هذا القتال المرير مع نفسها، ولا توجد مدينة تقاتل مع الطبيعة التي كانت مستعدة على مضض أن تقبل الإنسان. كان حفيف الرياح القادمة من بحيرة ميشيجان حادًّا والشتاء قاسيًا والصيف حارًّا وجافًّا والمناظر الطبيعية غير مضيافة.

أطلق المواطنون الهنود الأصليون على بيئة المستنقعات بجانب البحيرة اسم شي ـ جا ـ جو وهو «مكان تفوح منه رائحة البصل والحيوانات المتعفنة» وكانوا يتجنبون هذه المنطقة، وكانت هذه الرائحة الحادة تزداد سوءًا مع وصول سفن الخنازير إلى نهر المسيسيبي Mississipi وقطعان الماشية القادمة من الغرب إلى مذابح شيكاغو، واليوم يطلقون على الاتفاق الصامت الذي يعقده اثنان من الساسة للتعاون عبارة «انطلاق لحم الخنزير» أي: «كل سيحصل على قطعة من الخنزير».

«في مدينة تشير فيها شجرات النسب إلى الأبقار والخنازير أكثر مما تشير إلى تقاليد العائلات، ونتيجة لذلك كان التأثير السياسي غالبًا لا يعدو أن يكون مجرد بضاعة يمكن للمرء شراؤها، لقد حفظ الفساد التوازن بين النخبة الاقتصادية والسياسية».

لكن في ليلة حارة من ليالي أكتوبر 1871 اصطدمت بقرة السيد ليري بمصباح متوهج، وأضرمت النيران في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ـ كانت شيكاغو وقتها مدينة تضم 300000 ساكن ـ وتفحمت حتى ضاعت معالمها ... ثم بعثت من الرماد مرة أخرى مثل طائر العنقاء، وبعد ذلك باثنين وعشرين عامًا أصبحت مدينة تتباهى بمعرض عالمي لم ير العالم من قبل في مثل اتساعه وفخامته، غير أن القصور والأكشاك المبنية على الطراز المنمق للنهضة الأسبانية الجديدة كان عليها أن تنسحب سريعًا أمام هندسة الأبراج العالية الجديدة التي أصبحت ممكنة بعد اختراع الخرسانة وسلم الأمان، «إن الشكل يتبع الوظيفة» هكذا يبدو

شعار اليوم، وعن طريق الهدم الأخرق يخلق مؤسسو المدينة وحيتان العقارات مكانًا من أجل الهندسة المعمارية الجريئة.

اكتسبت مدرسة شيكاغو شهرة عالمية من خلال جون ويلبورن روت John Wellborn Root الذي اعتبر مباني أسلافه «هندسة اعتقال» وأطلق عليها «أسلوب إدمان الماء» وجعل من الروكري (The Rookery) منزلًا يتكون من سبعة عشر طابق دون أن يستخدم النقوش الشائعة حتى ذلك الحين، ثم أدخل فرانك ليولد رايت Frank Lyiold Wright البناء العضوي، وقبل وفاته في 1959 بقليل سمعته عندما كنت طالبًا لرايت العجوز يلقي محاضرة حول معتقداته قائلًا: إن المبنى لا يتكون من جدران وسقف وإنما من مساحة السكن، ولهذا يجب البناء من الداخل إلى الخارج وليس العكس، في الحقيقة تقوم ناطحات السحب اليوم من الداخل إلى الخارج مثلما يوضح لنا بصورة مؤثرة هيكل برج ترومب Trump الجديد، ساهم المعماريون الألمانيون الأصل أيضًا مثل لودفيج ميز فان دير روها Ludwig Mies Van der Rohe وهيلموت جان Helmut Jahn في الهندسة المعمارية التي تشق عنان السماء في هذه المدينة، أما حديقة الألفية بأكشاك بريتزكر Pritzker فهي أحدث تحفة في المدينة، فقد بنيت بأموال عائلة بريتزكر التي كانت كريمة جدًا في دعمها لأوباما في المعركة الانتخابية.

لا يزال القضاء مستمرًا على تلك المماشي والأفنية المحطمة لشيكاغو القديمة والمنطقة التي لعبت دورًا مهمًا جدًا في الواقع وفي أفلام العصابات، وما زال الفقر يتراجع إلى جنوب المدينة؛ حيث ستطبق خطة المشروع الكبير للمدينة: منطقة أوليمبية في إطار الترويج لشيكاغو من أجل مباريات 2016، وفي ذلك الوقت قد يكون أوباما هو رئيس أمريكا إذا فاز بجولة رئاسة ثانية.

نهاية حائكي المواهب

هل أفلست الأفكار الأمريكية؟ هل خسرت أرض الرواد وبراءات الاختراع القدرة على التجديد؟ هل تهرب مخيلة المهندسين المشهورين إلى الخارج؟

لا تـزال أمريـكا هي قائدة السـوق العالمي في الاقتصاد والهندسـة، لكن جودي إسـترين Judy Estrin من شركة سيسـكو Cisco تعتقـد «أن المنتجات الجديدة مثل الأيبـود والفيـس بوك تم تطويرهـا منذ عقد من الزمـان» وما زلنـا لا نملك البرعم الذي كان من المفترض أن يتفتح غدًا.

إن الولايـات المتحـدة الأمريكية لا تـزال موطنًا لأغلب الجامعـات الصفوة في العـالم (30 إلى 40) لكـن جـون كاو John Kao مـن معهـد هارفـارد لإدارة الأعمال يشـكو قائلًا «لقد تراجعنا في الاقتصاد والهندسـة إلى المرتبة الرابعة» ـ بعد سنغافورة وتايوان والسويد.

مـا زالت الولايـات المتحدة الأمريكية تنتـج أغلب الحاصديـن لجوائز نوبل في العالم، لكن كما كتب ستيف لور Steve Lohr من نيويورك تايمز New York Times: «لقد تراجعت قدرة هذه الدولة على المنافسة إلى حد كبير في العقد الأخير» ويتضمن ذلك استعمال رأس المال الاستثماري والأبحاث الاقتصادية وتدريب المعلمين.

ما زال الشباب الأكاديميون المؤهلون يتعلمون في هارفارد Harvard وستانفورد Stanford وبرينسـتون Princeton لكن كما يقارن المقاول روبرت كومبتون Robert Combton الكفاءة الطلابية العامة في الولايات المتحدة الأمريكية مع نظيرها في الهند والصـين «فإن نسـبة الطلاب الذين يتخرجون في كلية الهندسـة هنـاك حوالي 30 إلى 40٪، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فتبلغ نسبتهم 5٪ فقط».

ومـا قـد يشـكل إنذارًا كبـيرًا هـو أن 60٪ من الحاصلـين على درجـة الدكتوراة مـن كليات الهندسـة في أمريكا هم مـن الأجانب، وهذا ما ذكرته كارولين إيكسـتين Caroline Eckstine الرئيس التنفيذي لإحدى شركات التسـويق التي تمتلك فروعًا في سـنغافورة والصـين: «إنهم يـرون أن الاقتصاد الأمريكي لم يعـد جذابًا ويعودون للدراسة في آسيا».

يكمـن هذا مـن ناحية أخـرى إلى قوانين تصريـح الإقامة في الولايـات المتحدة الأمريكية التي زادت صرامتها بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي.

عـلى كل حـال لقد ظهـرت في عهد بوش/ تشـيني فجوة تجديد، وهـذا ما كان يدركه المتنافسـان الاثنان على الرئاسـة، فقد أطلق جون ماكين على النضال من أجل التعليم والتجديد «حركة حقوق المواطن اليوم» أما باراك أوباما الذي ظل لسـنوات طويلة أسـتاذًا في جامعة شـيكاغو التي كانت بدءًا من فيرمي Fermi وحتى فريدمان Friedman منتجـة للمبدعـين، فقد خصـص أول خطاب له أمـام الكونجرس لهذا الموضـوع، وفي الرابع والعشريـن من فبراير 2009 قال: «إن الإجابات التي نحتاجها من أجل مشـكلاتنا ليسـت بعيدة عن متناولنا، إنها تكمن في معاملنا وجامعاتنا، وفي قـوة مخيلة أصحـاب الأعمال وفي فخر أكثر شـعب مجتهد على سـطح الكرة الأرضية ولكن علينا أن نسـتجمع قوانا ونواجه تحديات العصر بشـجاعة، ونتولى المسـؤولية الجديدة تجاه مستقبلنا».

كانت كلمة سـتيم STEM هي الكلمة الرئيسـية في تلك الخطبة، وهي اختصار للعلم Science والتكنولوجيا Technology والهندسة Eingeneering والرياضيات Mathematic، كما تكررت كلمة سـتيم أيضًا في المناقشـات التي دارت بين الخمسين محافـظ في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، فقـد أرادت الدولـة الوصول إليهـم ماليًّا وإعطاءهم حافزًا أكبر كي يجدوا بأنفسهم حلولًا لمشكلة تدريب المعلمين التي تزداد سوءًا باستثناء مدارس النخبة، أما الشيء الذي كان مهمًّا جدًّا بالنسبة للرئيس الجديد فهو تحفيز الشـباب أنفسـهم: «يجب أن يجدوا من جديد متعة في الدراسة، وأن يصبح الاجتهاد بالنسبة لهم فضيلة وليس عبئًا ثقيلًا».

عـرف تومـاس إديسـون Thomas Edison فن الاختراع قبل مـا يزيد عن مائة عام كما يلي: «1٪ إلهام و99٪ عرق».

دايتر كرونزوكر

شيكاغو بلد العصابات

يتحمل رجال الأعمال والسياسيون معًا مسؤولية بناء مستقبل المدينة، ودائمًا ما تساعدهم الطاقة الإجرامية لعصابات الجحيم في تحقيق ذلك، لقد حدث هذا التشابك الذي كان وظل حتى اليوم مبدأ يميز شيكاغو.

يعتبر مايكل كاسيوس ماكدونالدز Michael Casius McDonald الذي كان مالكًا لكازينو قمار هو مؤسس هذا المبدأ الذي تمنح فيها الوظائف الجيدة والعقود المربحة مقابل الدعم السياسي والهدايا الخيرية. واستطاع الكاستل The Castle (القلعة) إبعاد الأنظار عن التساؤلات والشكوك القائمة حول حسن سير المتجر The Store، وهو الاسم الذي أطلق على كازينو القمار المكون من أربعة طوابق الخاص بماكدونالدز، وكان الكاستل عبارة عن بيت رعب اختفى فيه أثناء المعرض العالمي لشيكاغو في عام 1983 ما يزيد على مائة من الضيوف ـ وخصوصًا السيدات الشابات الأجنبيات ـ دون أن يعثر لهم على أي أثر وأصبح مالك هذا المطعم أول قاتل متسلسل في تاريخ أمريكا.

جاء زواج الجريمة والرشوة بعد ذلك تحت رعاية تنظيم مافيا عصابات آل كابوني الذي كان يقتل منافسيه بالترتيب بالمخدرات والدعارة والقمار. وفي عام 1927 ساعد ويليام ثومبسون William Thompson «بيج بيل Big Bill» ليفوز بدورة ثانية كعمدة لشيكاغو، وتولى ثومبسون منصبه بعد أن وعد بمحاربة الجريمة المنظمة، غير أنه على العكس من ذلك كان يقوم بقمع كل محاولة للإصلاح، وبعد وفاته عثر في خزينته على 15 مليون جنيه نقدًا، ومن هنا لقبت شيكاغو بوطن العصابات Gangland.

ظل آل كابوني رئيسًا للمافيا لسنوات طويلة، وفي النهاية حوكم ليس من أجل جرائم القتل الكثيرة التي ارتكبها ولا من أجل الابتزاز والرشوة، وإنما من أجل التهرب الضريبي، وكان هذا بمنزلة غسيل أموال، بالرغم من أنه قد غسل أمواله القذرة بالفعل ـ في المغاسل.

يستطيع مواطنو المدينة والولاية التمييز بدقة شديدة بين الحيل المتبناة بهدف الثراء وبين أساليب التنفيذ السياسي، فقد حكم ديلي شيكاغو Daley Chicago الأب والابن أربعين سنة على فترات متقطعة حتى مع وجود آلة الحزب التي تأخذ وتعطي وفقًا للهدف المنشود، ودائمًا ما كان الحصول على السلطة يعتبر نوعًا من الوطنية في حين أن السياسة كانت متواطئة بلا شك مع عصابات الجحيم، فكانت تعقد معهم الصفقات السوداء والصفقات المضادة، غير أن هذا لم يضر المدينة، فكان هناك بعض العمد الذين تركوا طابعًا مميزًا على المدينة مثل ديلي، لكن أيضًا كان هناك أقلة استطاعوا السيطرة على أعضاء مجلس البلدية الخمسين لدرجة كبيرة.

إن الحكام هم المنفذون لآلة الحزب، ومنذ أن زاد نزوح الأمريكان السود إلى جنوب المدينة استطاع السود أيضًا الوصول لمناصب أعضاء مجلس البلدية، واستطاع جيسي جاكسون Jessie Jackson أن يجد له ملجأً في هذا القسم الجديد جهاز السلطة، كانت هناك فرصة أمام مناضل الحقوق المدنية في أن يصبح مفتش جمارك في ميناء شيكاغو، لكنه بدلًا من ذلك عمل وكيل مبيعات لدى إيبوني Ebony وهي أول مجلة يصدرها السود من أجل الأمريكان السود، ويتذكر هانز ماساكوي Hans Massaquoi: «كنا على وشك أن نخسر أكثر مراسلينا موهبة» لقد قضى ماساكوي الذي كان ابنًا لدبلوماسي لبناني قضى طفولته في ألمانيا، وعلاوة على ذلك قام بتأليف كتاب يحمل عنوان: «الزنوج الزنوج مدخنة الاجتياح Neger; Neger; Schronsteinfeger».

كان الهم الأكبر لأعضاء مجلس البلدية هو الاحتفاظ بالسلطة من خلال المحسوبية والمحاباة، فالأنواع الأخرى ساسة الشبكات كثيرون في إلينوي، وقد عدت جريدة شيكاغو صن تايمز Chicago Sun-Times حوالي 79 سياسيًّا منتخبًا في الولاية بدءًا من عام 1972 كلهم أدينوا بجرائم، من بينهم نائب الكونجرس المحترم دان روتينكوفسكي Dan Rotenkowski الذي كان يتقاضى أجرًا على موظف غير موجود أصلًا أو وكيل الوزارة المحترم لولاية بويل الذي تقاضى في عام واحد 300000 دولار وكان يخفي 800000 أخرى في صندوق أحذية.

بالإضافة إلى ذلك هناك 27 عضو مجلس بلدية تمت محاكمتهم، وثلاثة محافظين تلوثت

أيديهم، أحدهم تورط في فضيحة سباق للخيل والثاني دفع ثمن اليخت الخاص به من خزينة الدولة، أما الثالث وهو جورج ريان George Ryan وهو بالمناسبة جمهوري من بين ذلك الصف الطويل من المحافظين الديمقراطيين، فقد أدانه المحقق المعين في 2001 باتريك فيتسجيرالد Patrick Fitzgerald بتهمة الفساد.

استطاع رود بلاجوجيفيتش الذي كان قد قضى فترة طويلة كنائب أولًا في برلمان إلينوي، ثم في مجلس النواب في واشنطن الفوز في الانتخابات ليكون خلفًا لريان، وعند توليه المنصب في 13 يناير 2003 في سبرينجفيلد وعد بلاجوجيفيتش بأنه سيقضي على الفساد «الذي انتشر للغاية، وأصبح أمرًا مقبولًا جدًّا ومتأصلًا» لكن الديمقراطي ذا الأصول الصربية اعتبر منصبه منحة، وهو أيضًا كان يحكم وفقًا لمبدأ شيكاغو «يد تغسل الأخرى».

إن هذا المبدأ متأصل وراسخ للغاية في المدينة التي تقع على البحيرة الكبيرة لدرجة أنه لا يمكن زعزعته سوى من الخارج، وبهذا فإن باتريك فيتسجيرالد الغريب عن المكان هو من وضع ممارسات الزمرة السياسة في إلينوي تحت المجهر، واستطاع منذ عدة سنوات كشف محافظ ولاية إلينوي حيث راقب فيتسجيرالد مكتب المحافظ الموجود بسبرينجفيلد وكذلك مقره في شيكاغو.

قبل وصوله إلى شيكاغو في عام 2001 كان باتريك فيتسجيرالد يوقر ويهاب باعتباره محققًا ذكيًّا وداهية فقد استطاع ممثل النيابة كشف النقاب عن فضيحة سياسية في واشنطن وهي قيام البيت الأبيض بعمل انتقامي من عميلة وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA، فقد كانت حكومة بوش وقتها تسعى للحصول على دليل مادي لما تزعمه من وجود أسلحة ذرية في مستودعات أسلحة سرية للرئيس صدام حسين، وكانت العميلة السرية فالير بالم Valerie Palm تابعة لفرقة مهمتها تتبع آثار أسلحة الدمار الشامل المزعومة في العراق، لكنهم لم يجدوا لها أي أثر، كما ثبت أيضًا أن عملية النقل المزعومة لليورانيوم من دولة نيجيريا إلى العراق مجرد وهم.

توصل جوزيف سي ويلسون Joseph C. Willson زوج فالري بالم ـ وهو سفير سابق في أفريقيا ـ من خلال أبحاثه مستقلًا عن زوجته إلى نتيجة كتب عنها تعليقًا في جريدة نيويورك تايمز أدان فيه البيت الأبيض لتضليله بالشعب الأمريكي عن عمد لإضفاء الشرعية على حربه ضد العراق، بعدها روج مكتب نائب الرئيس تشيني من خلال إشاراته إلى الصحف قصة قيام فالري بالم بالتمويه، وظل البيت الأبيض ينكر هذا المنهج حتى النهاية غير أن باتريك فيتسجيرالد المحقق المميز استطاع أن يكشف تلك اللعبة الدنيئة، وكان سكوتر ليبي Scooter Libby وهو مستشار مقرب من نائب الرئيس هو كبش الفداء وأدين بتهمة شهادة الزور.

قام باتريك فيتسجيرالد أيضًا بإرسال رجاله في شيكاغو خلف المحافظ القائم بالأعمال بلاجوجيفيتش، فقد اشتبه في مدلل الحزب الديمقراطي آنذاك بالتربح من منصبه والفساد في غيرها من الوقائع؛ حيث ربط عائدات الضرائب والمكافآت بمدفوعات خاصة بحملته الانتخابية، كما جعل الدعم الحكومي المخصص لجريدة شيكاغو تريبون Chicago Tribune متوقفًا على فصل صحفي غير محبب إليه، والآن يعاني قسم التقارير النقدية بالجريدة الأمريكية الكبيرة من موجة تسريح يقوم بها المالك الجديد للجريدة سام زيل Sam Zell.

لقد رأى بلاجوفيتش في تعيينه سيناتور إلينوي في واشنطن خلفًا لباراك أوباما فرصة لجني الكثير من الأموال، فالمحافظ يمتلك حرية التصرف في أي منصب سياسي شاغر بين أي فترتن من فترات تولي ذلك المنصب، لكن المحافظ أراد بيع مقعد مجلس الشيوخ الشاغر، وقد اتضح ذلك من إجراءات التحقيق التي كان على قاضي التحقيقات باتريك فيتسجيرالد أن ينهيها، وهي التصنت على مكتب وسكن المحافظ.

كان الحوار يدور حول المرشحين الذين يحاول كل منهم أن يزايد على الآخر في عروض الرشوة، وعن غضبه أيضًا حيال المرشحين الذين لا يريدون دفع المال، وكان هذا الحوار مصحوبًا بلغة زوجة المحافظ باتريكا Patricka البذيئة وصوتها العالي، ولهذا صورتها وسائل الإعلام في شكل «فم قذر» و«السيدة ماكبث»، ويقول فيتسجيرالد في استياء «إن أبراهام لينكولن يتقلب في قبره».

في الصباح الباكر في يوم 9 ديسمبر 2008 تم إلقاء القبض على المحافظ في بدلته الرياضية، وتـم اقتياد زوجتـه في الأصفاد من الفناء ـ لقـد عكرت صورة الإلينـوي باعتبارها بلدة مارقة روعـة المرشـح الشريف الذي كان يحتفل قبل أربعة أيام بفـوزه في الانتخابات في جرانت بارك Grant park في شيكاغو، كان أوباما في محادثة مع نائب الرئيس الأسبق آل جور Al Gor حول الاحتباس الحراري العالمي عندما سأله أحد الصحفيين عن الموضوع، فأجاب أنه لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك «وهذا يعارض كل ما ترمز إليه حملتي».

يبـدو الكلام صادقًا، علاوة على أن أوباما وصف في تسـجيلات ذلـك المحافظ بالموظف الذي لم يقدم له شـيئًا سـوى الاستحسان عندما ذهب إليه ليساعده في خلافته في مقعده الخالي، في مجلس الشـيوخ صوت مجلس النواب ومجلس الشـيوخ في إلينوي بأغلبية سـاحقة على عزله مـن منصبه، وتحول ذلك إلى إجراءات في بدايـة فبراير 2009 لتنهي بذلك عهد بلاجو جيفيتش المشـين والمحرج، غير أن الأمريكي ذا الأصول البلقانية اسـتطاع أيضًا أن يرسل قبل إبعاده عن منصبه أفرو أمريكيًّا آخر خلفًا لأوباما في واشنطن.

في البداية تم استقباله بالحفاوة عندما أقسم أنه لم تكن له أية علاقة بالممارسات المشينة التي كانـت تدور في بيت المحافـظ، لكن في أحد التحقيقات الصارمة اعترف بوريس Burris أنه قد تـورط في صفقات مضادة، وكان من الممكن أن تتسـبب شـهادة الـزور في إقصائه عن منصبه؛ لأن الديمقراطيين كانوا يخشـون من أن يذهب مقعد أوباما السـابق في الانتخابات القادمة إلى الجمهوريين بسبب كل هؤلاء الأسلاف غير الشرفاء.

لم يتدخـل أوباما نفسـه في قضية خليفتـه غير أنه أوكل إلى رئيـس الأركان الحالي رام إيمانويل Rahm Emanuel وإلى سـياسي مـن إلينـوي مهمـة جس النبـض، وهنا أصبح المحيط السـياسي والشـخصي للرئيـس المنتخـب موضعًـا للشـبهات؛ حيـث ظهـر بعـض المخلصيـن لـه في لائحة المرشـحين، وحقق مكتـب التحقيقات الفيـدرالي FBI مع رجل باعتباره المرشـح رقم 5 في قضية الخلافـة، وكان هـذا الرجل مرتبطًا جـدًّا بأوباما: أنه جيسي جاكسـون الأصغـر Jesse Jackson

.Junior

منـذ عـام 1995 وابن مناضل الحقـوق المدنية عضو في مجلس النواب، لقد سـاهم بصورة فعالـة جـدًّا في الحملة الانتخابية لبـاراك أوباما، وكانت أخته سـانتيتا Santita وصيفة في حفل زواج أوباما، وتعمل زوجته سـاندي Sandi حاكمة في شيكاغو، وكان من المفترض أن تصبح سـاندي أيضًا رئيسة لإدارة القرعة في شيكاغو، لكنها لم تدفع الرشوة المقدرة بخمسة وعشرين ألف دولار التي طلبها العمدة بلاجوجيفيتش مقابل التعيين في هذا المنصب.

أظهـر جيسي جاكسـون علانية اهتمامـه بخلافة صديقـه وزميله في الحزب بـاراك أوباما، وكان عليه أن يعرف أن هذا لا يمكن تحقيقه إلا من خلال مبدأ شيكاغو، ويدخل هذا المبدأ في لعبـة الكثير من ممثلي المصالح في شـيكاغو، إن هذه المدينة المتعددة الشـعوب تلتف حول مركز ناطحات السحاب في أحياء مغلقة عرقيًّا نوعًا ما، وسواء جاؤوا من بولندا أو أيرلندا من إيطاليا أو لبنان أو ألمانيا فهم جميعهم يشكلون جماعات ضغط (لوبي) قوية.

واللوبي الهندي هو إحدى جماعات الضغط تلك، وهم ينتخبون الديمقراطيين، وهم تجار مهرة وأصدقاء لجاكسون الأب وجاكسون الابن، وتعود هذه الصداقة إلى «ائتلاف قوس قزح Regenbogenkoalition» الذي أسسـه جاكسـون الأكبر عام 1988 من أجل ترشيحه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية كي يوسـع قاعدته العرقية، وكان جاكسـون الأكبر يسـتهدف من خلال منظمته الأخرى PUSH (وحدة الشـعوب لخدمة الإنسـانية People united to serve humanity) الهنود.

وعندما وجد التجار الهنود فرصة في تعيين فرد من عائلة جاكسـون في منصب السـيناتور الأكـبر لإلينـوي، ذلك المنصـب المهم جدًّا، قامـوا بجمع التبرعات من أجـل بلاجوجيفيتش، ومـن الواضح أن هذا أدر الكثـير من الأموال لكن من ناحية كان هذا غير كافٍ من وجهة نظر المحافظ، ومن ناحية أخرى تظاهر جاكسون أنه لم يكن يعرف شيئًا عن هذه المكائد، فظهر أمام الصحافة وهو ثائر لإنقاذ سمعته: »لقد كنت أعتقد خطأً أن المحافظ سيكون منصفًا، وسوف

يتصرف وفقًا لأهلية المتنافسين».

وإن المحافظ لم يمر على جاكسون، لأن جاكسون يعتبر بعد أوباما أهم سياسي ناشئ من الأفروأمريكان في شيكاغو، ويرجع هذا إلى شهرة والده كواحد من ورثة مارتن لوثر كينج Martin Luther King الذي مات مقتولًا، وأيضًا إلى إنجازات الابن في العمل الاجتماعي بين السكان السود في شيكاغو، وأخيرًا باستعماله المطلق من أجل أهداف باراك أوباما.

لهذا وقف ضد والده عندما هاجم أوباما قائلًا: «إنه يخاطب السود من أعلى» وكانت خلفية هذا الهجوم خطبة لأوباما بمناسبة يوم الأب؛ حيث انتقد فيها نقص رعاية السود لأبنائهم الذين جلبوهم إلى العالم ثم تركوا مسؤوليتهم للأمهات، فقال جاكسون الأصغر: «إن أوباما غالبًا لا يقول ما يريد الناس أن يسمعوه لكن ما يجب أن يسمعوه» ويحسب هذا لصالح جاكسون الأصغر، وفي هذه الأثناء يتم كثيرًا الربط بيه وبين الأقوياء في جهاز الحزب، وكذلك بعمدة شيكاغو المخادع ديلي، وكذلك بالمحافظ المرتشي بلاجوجيفيتش.

على أية حال هناك موقف معقد يسود بين السياسيين السود والبيض للحزب الديمقراطي في الولاية، ولا يستطيع السياسي الشاب الطموح أن ينسلخ منه ـ في الحقيقة! فهل يستطيع باراك أوباما أن ينجز عمله خارج آلة الحزب الديمقراطي؟ أحقيق أن ثوبه الأبيض لم يلتقط من ذلك أي بقع سوداء؟

الفصل الخامس

أوباما حكاية غير محتملة

رجل من المجهول

«في يوم من الأيام غادرت نيويورك وجلست في سيارتي المتهالكة، وقدت إلى شيكاغو، هذه المدينة التي لا يعرفني فيها أحد ولا أعرف فيها أحدًا» هكذا كتب باراك أوباما في تصوير ذاتي مأفلم عن وصوله إلى المدينة متعددة الثقافات، والتي تقع على بحيرة ميتشيجان الكبيرة، كان ذلك في عام 1985، وكان القادم الجديد آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره، وقد أنهى دارسة السياسة غير المبهجة إلى حد ما في جامعة كولومبيا في نيويورك حاصلًا بذلك على البكالريوس ببحث أعده عن التسليح النووي في الاتحاد السوفيتي.

بالمناسبة لم تكن نيويورك بالنسبة له هي برودواي Broadway وحياة الليل، وإنما حي هارلم Harlem الفقير والمطالعة القاسية: أوجستين Augustinus ومارتن لوثر كينج Martin Luther King ونيتشه Nietzsche ونيبور Niebuhr كنائس السود والأفكار العميقة، وبعد عام من التحاقه للعمل لدى مستشار اقتصادي مشهور ترك وظيفته التي كان يجني منها راتبًا جيدًا من أجل منصب بأجر متواضع في منظمة حماية البيئة التي بعثها إلى الحياة مرشح الرئاسة المتكرر رالف نادر Ralph Nader لكن موهبته التنظيمية أجهدت في الحملة غير المدفوعة والخاسرة التي عمل فيها من أجل سياسي المقاطعة القادم من بروكلين Brocklyn.

«بعـد سـتة أشـهر كنت مفلسًـا وعاطلًا وآكل الحسـاء من العلبـة دون أن أسـخنه» هكذا وصف أوباما ذلك المنعطف الضيق في مسار حياته، وجاءت النجدة بعرض للعمل الاجتماعي الكنـسي في شـيكاغو، فقـد كان جيرالد كيلـمان Gerald Kellman وهو يهودي تحـول إلى الملة الكاثوليكية يبحث عن المنظمين السـود من أجل الدائرة الكنسـية في جنوب شيكاغو فعثر على «شاب مسجون تمامًا بأفكاره» كما يقول كيلمان.

اصطدم الشاب الأكاديمي بالمصانع المغلقة والوظائف المفقودة والمدارس المعطلة والمحتاجين، وفي النهاية استطاع أوباما أن يخضع نظرياته للتجربة، لقد تحولت رؤيته عن تحسين العالم والتضامن بين البشر إلى عمل شاق في الأحياء السوداء الفقيرة التي تقع على حدود المدينة الكبيرة.

في إحـدى المسـتوطنات المخصصة لجنود الحـرب العالمية كرس أوباما نفسـه بعد المحافظ السـابق للإلينـوي الـذي كان يدعـى ألتجيلـد جاردنـز Altgeld Gardens مـن أجـل إزالـة الإسبسـتوس من أسـوار المنازل المصفوفة فنظم في الأبرشـية السـوداء تدريبًا وظيفيًا للعاملين الصناعيين العاطلين، فكان يحاول داخل مباني روزلاند Roseland الاجتماعية العفنة أن ينفض من على الشباب السود الكسل، وأن يربي فيهم الحس تجاه المجتمع.

سوزان والكر Suazan Walker التي تعمل مديرة لهايد بارك هيرالد Hyde Park Herald وهـي صحيفـة الحي الواقع في جنوب شـيكاغو تعرف بـاراك أوباما منذ البداية، فقد شـهدت حماسـه وطاقتـه في الكثير من المناسـبات وتقول: » هنـا كان ينتقل من منـزل إلى آخر كي ينظم الحفـلات المدنية، وعندما وصلـت مجموعته إلى ما يزيد على ثمانية أعضـاء أطلقنا عليهم جيش أوبامـا» إنها تتحدث عن بناء كشـك في شـارع معتم وعن تأثيث كنيسـة منزلية من أجل جهاز ترشيح المياه وعن المواجهة غير المجدية مع الشباب القائمين بأعمال النهب.

أرتنـي سـوزان والكر بفخر شـديد المقصوصات الأصلية للكثير من المقـالات التي ألفها الناشـط السـياسي لمجلة هايـد بارك هيرالد: «لقد اكتسـب آنذاك المعرفـة التفصيلية من خلال الأعـمال الصغـيرة الدقيقة التـي كانت مفيدة جدًا له فيما بعد في بناء شـبكته» ويمدحه مرشـده

كيلـمان قائـلًا: «إنه رائع عندما يتعلق الأمـر بالتواصل مع الناس الذين يمكنهم أن يسـاعدوه ويسـاعدوا قضيتـه» لكن كما قال أوباما نفسـه فيما بعد أن عدد انتصاراتـه حينذاك: كان صغيرًا ومتواضعًـا، فقـد توصل إلى الاقتناع بأن سـلطة الدولـة وحدها هي القادرة على تحرير السـود من الفقر والجهالة وميلهم إلى الفوضوية، وقد صاغ ذلك عمدة شـيكاغو القوي ديلي Daley: «الرجل يحتاج للسلطة كي يساعد الضعفاء».

في خريـف عـام 1988، نجح العامـل الاجتماعي في القفز من شـارع الضاحية في الجنوب إلى جامعة النخبة هارفارد، وكان قد تقدم أيضًا لجامعة سـتانفورد Stanford وييل Yale ووفقًا لتخيله، كان بمقدوره الآن دراسة الطريق إلى السلطة وتشعبه «كيف تعمل الشركات والبنوك، لماذا تنجح أو تفشـل المشروعات العقارية» وأرد أن يطبق المعارف التي اكتسـبها آنذاك «حيث يمكـن اسـتخدامها بصورة مميـزة في ألتجيلد وروزلاند سـوف أعيد إليها المعرفـة مثلما أحضر بروميثيوس Prometheus النار».

في هارفارد لم يتعرف أوباما فقط على الطبقة البيضاء الغنية، وإنما تغلب على هذه الأغلبية السـاحقة في أهـم منصب تقدمـه كلية الحقـوق. وفي فبرايـر 1990، عـين كأول رئيس تحرير أفروأمريكي لمجلة «مراجعة قانون هارفارد» المشهورة وكانت من بين المتنافسين الأقل آنذاك ليـزا هـاي Lisa Hay التـي أطلقت عـلى خطاب توليـه المنصب «أكثر خطاب مؤثر سـمعته عـن وعد أمريـكا» وفي لقاء لها مـع «ناشـونال جورنـال National Journal» تذكرت هاي حفـل العشـاء الذي تلا ذلك في نادي بوسـطن هارفارد: «المناضد المغطـاة بالمفارش البيضاء والتـي تحمل فوقها بطاقـات الدعوة، وفريق خدمة من الأفروأمريكيين والقادمين من أمريكا اللاتينية الذين كانوا يمارسـون عملهم، ويسـتمعون وهـم مشدوهين إلى المحامين المرتقبين في حللهم الرسمية».

كان موضوع الخطبة هو أمريكا الاحتمالات غير المحدودة التي كان أوباما نفسه مثالًا لها، فـالأم بيضاء ومتحررة، والأب أسـود وبالكاد كان متواجدًا في البيـت، وزوج الأم وأخته غير

الشقيقة من جافا Java، والجدان الكينيان مسلمان، أما جدّاه في هاواي فهما بروتستانتيان فيا له من عالم متعدد الثقافات.

أنهى المحامي الجديد دراسته في هارفارد بتقدير امتياز وكان موضوع بحثه «أمة واحدة وعالم واحد» والذي لخصه فيما بعد في كتاب «حلم من أبي» ويعتبر هذا العمل ضربة حظ أدبية، لكن كبار الأدب لم يدركوا هذا إلا بعدما أصبح مؤلفه ناجحًا جدًّا على الصعيد السياسي، ومن يكتب جيدًا يحكم جيدًا هذا ما تراه توني ماريسون Toni Marrison لقد أطلقت الكاتبة الأفروأمريكية الحائزة على جائزة نوبل ذات يوم على الرئيس بيل كلينتون «أول رئيس أسود» بسبب تأييده للمساواة. أما اليوم فهي تابعة متحمسة لباراك أوباما وتبرر ذلك بقولها:

«إن حقيقة تجلي بلاغة أوباما أيضًا في أسلوب كتابته يعطيني الأمل، فالكتابة الجيدة لا تتطلب فقط التخصص، وإنما الفضول الفكري والقدرة على النظر إلى الحياة من أكثر من منظور ويطمئنني شعوري بعودة هذه الكفاءات مرة أخرى إلى المكتب البيضاوي».

اليوم يدفع المحبون 7000 دولار مقابل الطبعة الأولى من كتاب «حلم من أبي» 1995.

عودة إلى شيكاغو لقد كان أوباما آنذاك سعيدًا بالمشترين الأوائل، وهو يوقع على الأتوجرافات في محل الكتب المفضل لديه في هايد بارك؛ لأن طريقه السياسي كان قد ابتدأ للتو.

لقد انتبهت إليه حركة الحقوق المدنية، وكانت أصولها في الجنوب، لكن المركز الفكري للقومية السوداء كان شيكاغو، ومن هنا بدأ جيسي جاكسون Jesse Jackson حملته من أجل انتخابات الرئاسة عام 1984 و1988 لقد رأى ورثة مارتن لوثر كينج في أوباما موهبة ناشئة تستطيع قيادة الحركة لفترة طويلة دون ذلك التعصب الذي كان يدعو إلى العنف وخصوصًا في جنوب شيكاغو.

قبل مولد أوباما استوطن هنا «النمور السود Black Panthers» مع أنجيلا دافيس Angela Davis باعتبارها الرئيس الصوري، أما الماركسيون السود فقد يستمعون في فرانكفورت إلى

أدورنـو، وفي برلـين الشرقية يصافحون هونيكـر Honecker، وفي الولايات المتحدة الأمريكية يخططـون للهجـمات، وقـد حـارب سـتوكلي كارميتشـيل Stokely Carmicheal مـع السـود السـلميين وأطلقـوا عليه «والـد الكره وأم العنف» أمـا مالكولم إكـس Malcolm X فقد كان يعمـل ضد السـلطات البيضاء حتى أطلق عليه النار في علـم 1965 بعد ذلك بثلاثة أعوام لقي مارتن لوثر كينج الذي لم يختلف قط عن مالكوم إكس نفس المصير.

اليوم تحارب حركة «أمة الإسلام Nation of Islam»[1] «الشياطين البيض» وقائدها الحالي لويـس فراخـان Louis Farrakhan كان صديقًا لمعمر القذافي، وهو من أسـس مسـجد ماري Marienmoschee عـلى جزيرة أفينو Avenue الحجرية إنه يتصرف بحيادية تجاه طموح أوباما السـياسي وأفـكاره، في حين أن آخرين ربما يكونـون أقل تطرفًا، لكنهم أيضًـا زعماء متعصبون للسـود مثـل جيسي جاكسـون وبـوبي رش Bobby Rush ينظرون إلى صعود أوباما بغطرسـة فهو ما زال بالنسـبة لهم منعزل قبل أن يكون بانيًا للجسـور بين السـود والبيض ومناضلًا قديمًا للقضية الأفروأمريكية.

إن أغلـب قادة السـود هـم رجال دين مثل جيسي جاكسـون، فالعقيدة وسياسـة المجتمع أختان في أبرشـية شيكاغو السـوداء الكبيرة والأكبر في أمريكا، في حين أن الانتماء الديني نفسه لا يلعب أي دور يذكر، فسـواء كانوا رسـوليين أو كاثوليك معمدانيين أو ميثوديين ـ فالسـود يحتفلون في جميع قداسات الأحد بأصلهم وقدرهم المشترك بالغناء والصلاة، ويستغل المبشرون هذه المناسبات الروحانية من أجل تأويل الإنجيل تأويلًا يتخطى الجانب الديني.

يتهـم مايـكل بفليجـر Michael Pfleger وهو كاثوليكي يسـاري من أصـل ألماني وأحد المبشرين البيض القليلين في جنوب شيكاغو الحكومة قائلًا: «بمقدورها إصلاح معمل بأكمله لكن ليس بمقدورها إصلاح الجسـور في نيوأورليانز» أما جيمس ميك James Meek قسـيس كنيسة سالم الكبيرة Salem Megachurch فيسب زميله المستعد للتوصل إلى حل وسط وينعته

(1) حركة دينية أفرو أمريكية تأسست في ديترويت 1930. (المترجمة).

بأنـه «زنجـي الأسرة» في حـين أن القس جيرميا رايـت Jermiah Wright من كنيسـة ترينيتي يطلـق عـلى الأمة «الولايـات المتحـدة الأمريكيـة البيضاء» والسـبب في ذلك هـو أن المؤمنين يعتبرون أنفسهم ضحايا لسياسة العبيد «الخطيئة الأصلية للأمة».

«مـا زالت الكنيسـة تلعـب دورًا مركزيًّا في المجتمع الأفروأمريكي؛ لأنها كانت المؤسسـة الوحيدة المستقلة اقتصاديًّا في مجتمع يحكمه البيض» هذا ما قالته لي عالمة اللاهوت ليندا توماس Linda Thomas «وينطبـق هـذا عـلى حقبـة العبيـد بنفس القدر الـذي ينطبق بـه على العصر اللاحـق لتحريـر العبيد، ففي الكنيسـة كانت الخطـب الحرة وتأجج المشـاعر ممكنة، لقد كانت الكنيسـة بورصـة عمل وممولة لمشروعات السـود، وكانت تهتم بعمل جنـازات لائقة، وتعطي شعورًا بالأمان الاجتماعي في بلد لا يعامل السود على أنهم أنداد».

أغلـب الكنائـس في غـرب المدينة الكبـيرة متأثرة بنظريـة التحرير التي يتبناها القساوسـة الثوريـون في أمريـكا اللاتينيـة، غير أن الكثير من رجال الدين السـود يبحثـون عن أصولهم في قارة أسـلافهم أفريقيا، إنهم يتضامنون مع معركة السـود ضد العرب في السودان، ويتظاهرون ضـد حكومـة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا ليشـاركوا في إسـقاطها، وبعض القساوسـة يستبدلون مصطلح الأفروأمريكان باسم الأفري أمريكان Afriamerican أيضًا نسبه الأفريقي نال إعجابهم «كينيدي القادم من كينيا» وهو اللقب الذي أطلقوه على أوباما في الحال.

إن الرجـل الـذي يحمل الاسـم الأول أوبامـا ومعنـاه في الإنجيل «المبـارك» كان متأثرًا للغاية بالشخصية المميزة للكنيسة السوداء، لأن المسيحية أهديت إلى الإنسانية بأكملها بدافع الضرورة كما كتب هو بنفسـه: «في آلاف الكنائس في شـيكاغو يرتبط تاريخ الأسـود البسيط بتاريـخ داود وجالوت وموسـى وفرعـون، إن قصص النجاة والحريـة والأمل أصبحت هي تاريخي» كان أوباما يؤيد كنيسـة ترينيتي تحت القس جيرميا رايت الذي أسـس في عام 1972 من 87 مؤمنًا كنيسـة تضم سـتة آلاف عضو من بينهم محامون وأطباء واعدين وسـيدة الحوار أوبرا وينفري Oprah Winfery.

إن عالمة اللاهوت ليندا توماس على يقين من أن أوباما كان يبحث عن هذه الحماية لأسباب عقائدية، لكنه أيضًا كان يعلم أن الانضمام إلى كنيسة كبيرة وناجحة ضروري لصعوده السياسي والاجتماعي.

في أكتوبر عام 1991، قاد أوباما المحامية ميشيل روبنسون Michelle Robinson إلى المذبح، ميشيل أفروأمريكية نقية من أبناء ساوثسايد Southside وسانتيتا صديقة مقربة لميشيل، وابنة لمناضل الحقوق المدنية جيسي جاكسون، وكانت عرابة الطفلة الأولى لأوباما وعن طريق ميشيل تعرف أوباما على فاليري جاريت Valerie Jarett وهي أفروأمريكية ولدت في إيران وكانت صديقة مقربة لعائلة ديلي Daley أي عائلة العمدة، ومن هنا رافقت فالري أوباما في طريقه.

كان أوباما لاعب كرة سلة متحمسًا، وكان زوج أخته الجديد مدرب كرة سلة، وعن طريقه تعرف على مارتي نيسبيت Marty Nesbitt وهو رجل أعمال شاب ناجح مهد له الطريق إلى فريق التجار الأسود، كما فتح له المدرب كريج روبنسون Craig Robinson بوابة أخرى فقد كان من بين تلاميذه أبناء كريس بريتزكر Chris Pritzker وأبناء أصحاب الأموال والرعاية في شيكاغو، وبهذا كانت مسألة اندماج أوباما أمرًا منتهيًا: فالآن أصبح القادم الجديد الذي لا يملك أي ماضي أو أقارب في شيكاغو ينتمي إلى المؤسسة، وكانت هذه نقطة انطلاقه نحو السياسة العليا.

الشرارة الأولى

في عام 1995، تقدمت أليس بالمر Alice Palmer ـ وهي عضوة في مجلس الشيوخ في إلينوي ـ لمقعد في مجلس النواب في واشنطن، كانت أليس بالمر لها علاقة قوية بجهاز الحزب، وكان الرجل الذي أرادت أن تحل محله قد عزل بسبب جريمة جنسية، وبدوره حاول باراك أوباما الحصول على مقعد أليس في مجلس الشيوخ في إلينوي، وحصل على بركتها، لكن هذه الصداقة الحزبية

انتهت عندما تخلفت أليس في سباقها للوصول إلى مجلس النواب في واشنطن وأرادت أن تستعيد منصبها القديم لكن أوباما منعها من ذلك ـ بالحيلة هذا ما يعتقده البعض أو دون إنصاف كما يعتقد الآخرون واستطاعت الحيلة السياسية التي أزاح بها أوباما أليس بالمر وغيرها من المتنافسين من طريقه أن تنتزع احترام جهاز الحزب، فتحول من غريب على الحزب إلى مطلع على شؤونه.

في مؤتمر الحزب الديمقراطي في عام 1996 الذي عقد في شيكاغو، شهد أوباما الترشيح الرسمي لبيل كلينتون لفترة رئاسة ثانية، وحصدت هيلاري كلينتون Hillary Clinton أقوى تصفيق، فمن ناحية كان أصلها من شيكاغو من ضاحية الفيلات بارك ريدج Park Ridge ومن ناحية أخرى حصدت رؤيتها حلو الحياة الأسرية وخصوصًا مع ابنتها تشيلسيا Chelsea التي تبلغ من العمر ستة عشر عامًا الكثير من التصفيق، فصاحت في جموع الوافدين حولها في تأثر قائلة: «شيكاغو مدينتي الطيبة» تلك الجملة المأخوذة عن موسيقى الجاز، لكنها لم تكن تعرف حينذاك أن شابًا أفروأمريكيًا سوف يقف يومًا ما في مكانها في هذه المدينة.

فاز أوباما وصديقه من الحزب جاكسون الأصغر بدائرتهم الانتخابية في نفس المنطقة المحيطة بمكان الحفل، وهو إستاد شيكاغو بولز Chicago Bulls وقد قابلت حينذاك آني جيه Anie Gee التي كانت تنفق على ثلاثة أطفال من أبوين مختلفين، وإيف أنجل ماما ديه Eve Angel Mama Dee التي أعلنت إضرابًا عن الطعام أمام إستاد لاعب السلة المشهور مايكل جوردن Jordan Michael من أجل ملايين الأطفال الذين كان من المفترض إدخالهم الملاجئ أو تشريدهم بسبب إصلاح كلينتون الاجتماعي.

علق باراك أوباما وقتها على هذه الأحداث قائلًا: «كيف تريدون أن تنقلوا إلى أطفالكم القيم دون أساس؟» «إن قضية العنصرية هي في المقام الأول قضية اجتماعية» وترجع هذه الجملة إلى لقاء صحفي أجرته المصورة الأمريكية ماريانا كوك Mariana Cook وقتها مع السيد والسيدة أوباما، لكنه لم يعرض فدار النشر تجاهلت السيد والسيدة أوباما في شريط ماريانا المصور بحجة أن بريقهما كان باهتًا للغاية.

افتتح العمدة ريتشادر ديلي الذي كان يبدو متوترًا للغاية مؤتمر الحزب في عام 1996، إنه ديلي الأصغر الذي كانت مهمته في مؤتمر سابق في شيكاغو تسوية مظاهرات الشوارع العنيفة، كانت وقتها مظاهرة الثمانية والستين شخصًا الذين يحتجون ضد حرب فيتنام وضد الرئيس الديمقراطي جونسون Johnson الذي شن هذه الحرب وبعد، أن رجعت من فيتنام رأيت وقتها الآلاف من أطفال الورود والنمور السود[1] والمحاربين يتظاهرون، ومن بينهم توم هايدن Tom Hayden الزوج السابق لجين فوندا Jane Fonda وبوبي رش Bobby Rush أحد مؤسسي النمور السود.

تنافس أوباما في عام 1999 مع بوبي رش من أجل الدرجة التالية في السلم الوظيفي، وهي مقعد في مجلس النواب في واشنطن، وكان منافسه في دائرته الانتخابية بوبي رش قد خسر لتوه السباق على منصب عمدة شيكاغو ضد ريتشارد ديلي؛ مما تسبب في إضعافه على الصعيد السياسي، لكن التشابك بين بوبي رش والقاعدة السياسية المسلحة في ساوثسايد Southside أكبر قيمة من تنازل أوباما العلني عن مبدأ اقتصاد محاباة الأقارب والصفقات المضادة لشيكاغو، ففشل أوباما غير أنه ظل يحتفظ بمنصبه كسيناتور في الكونجرس.

لقد علمته الهزيمة أمام رش الوصول إلى الأبرشية الكنسية لدائرة السود التي كان عليه أن يتقاسمها مع غيره من المرشحين. كان هدفه جني أصوات الناخبين من الأعراق المختلفة في حي برونزفيل Bronzeville وهو الاسم الذي يطلق على حي السود القديم، فبعد علاقته القوية بطبقة الأفروأمريكين المؤثرين كان يسعى واستطاع فعلًا التواصل مع القوى القيادية البيضاء في السياسة والاقتصاد، حتى إن الحي الأبيض كان في جانبه وحتى هؤلاء الذين كانوا في الظروف العادية يقعون تحت سيطرة الجمهوريين، لكن هذا لم يزعج منافسيه فقد كانوا يعتقدون أنه لا توجد أي فرصة لمرشح أسود من حي السود.

---

(1) النمور السود هي حركة حقوقية لسود الولايات المتحدة الأمريكية، نشأت بعد مقتل مالكوم إكس وما أعقبه من توترات راح ضحيتها 300 مواطن أسود. (المترجمة).

لكـن كـما اتضح فيما بعد وفرت هذه المنـاورة على أوباما الطريـق المرهق عبر رتب الحزب «لقد سلك المدخل الجانبي إلى السلطة» هذا ما كتبه أحد الصحفيين في هايد بارك هيرالد، لكن الذي كان عائقًا بالنسبة له في صعوده التالي لم يكن لون جلده وإنما اسمه.

في 11 سبتمبر 2001، هز الهجوم على برجَي التجارة في نيويورك الأمة وشعورها بالحصانة، وكانت الردود هي السـعي إلى القصاص والارتياب، وفي هذه الظروف كان» شـخص ما اسم أبيه مثل اسـم الديكتاتور العراقي صدام حسـين واسمه الأول يبدو شبيهًا باسم زعيم القاعدة أسامة يجب أن يسكت الآن تمامًا» كانت هذه النصيحة التي وجهها إليه أحد معاونيه الانتخابيين المقربين إليه.

بـدلًا من ذلك شـارك أوباما في فريـق الحملة الانتخابيـة لرود بلاجوجيفيتـش، فقد أراد بلاجوجيفيتش الذي كان ابنًا لأبوين صربيين أن يصبح محافظًا لولاية إلينوي، لكن أصله لم يكن عاملًا مسـاعدًا في تلك الظـروف، فقد كانت صربيا وقتها تعتبر بمعزل عن السياسـة الدولية، لكن خبرة وحيلة مستشـاره أوباما ركزت على «سياسة الرجل الشريف» وفاز بلاجوجيفيتش بالسباق في عام 2002.

ربما بسـبب خليط من الاقتناع واليأس دخل أوباما في أكتوبر 2002 في مقامرة سياسـية في وقـت بلغت فيه معـدلات التأييد للرئيس بـوش قمتها، فأمام بضعة مئات من الناس اسـتنكر أوبامـا في الميـدان الاتحادي الحرب على العراق »أنا لسـت ضد الحـرب في حد ذاتها، وإنما ضد حرب حمقاء ... ستصرفنا عن تزايد الفقر وتناقص الدخل في أمريكا».

بجانـب أوبامـا احتـج رجل آخـر كان وقتها سياسـيًّا معروفًا في إلينوي ضـد الحرب على العـراق. وكان هـذا الرجل هو السـيناتور ديـك دوربين Dick Durbin فقد عـرف ابن العائلة المتجولة القادمة من ليتوانيا Litauen أن حكومة بوش تتلاعب بمعلومات المخابرات لصالحها، لكن نظرًا لأن دوربين نفسه كان عضوًا في لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ، فقد كان

عليه أن يلتزم الصمت، وكان جليًا أن دوربين يحرض صديقه من الحزب أوباما في اليوم الثاني من أكتوبر 2002 على الاحتجاج ضد سياسة بوش.

سواء كان هذا أم ذاك فإن خطاب أوباما لم يحدث سوى أثر ضئيل في الأغلبية البيضاء ـ فقد كانوا لا يزالون يشعرون أنهم يخوضون حربًا عادلة، ولم تكن مؤامرات واشنطن قد كشفت بعد، لكن الكثير من الأفروأمريكان هتفوا لأوباما؛ لأن أغلب الجنود في ساحة المعركة كانوا من السود، طبعًا كان أوباما واقعًا تحت تأثير خطبة ألقاها جيرميا رايت قبل ذلك بعام في كنيسة ترينيتي:

«إننا نقذف العراق بالقنابل ونقتل الأبرياء في الجنوب ثأرًا للهجوم على سفارة الولايات المتحدة الأمريكية، لقد ألقينا القنابل الذرية على هيروشيما ونجازاكي وقتلنا عددًا أكبر ممن قتلوا في الهجوم على مركز التجارة العالمي ولم يهتز لنا جفن».

ردًا على تلك الخطبة، قالت ليندا توماس:

> «في تلك الخطبة التي دارت حول سقوط بيت المقدس اقتبس قول جيرميا قول النبي أرميا واتهامه بإساءة استخدام السلطة من قبل ملك يهوذا، إن جيرميا رايت يملك الجسارة في ترجمة كلمات الإنجيل على حكام اليوم وعلى الأضرار التي ألحقوها بالعالم».

كانت خطبة الكراهية التي ألقاها جيرميا رايت بمنزلة قنبلة موقوتة طويلة الفتيل وبمنزلة عائق منيع في طريق حملة أوباما الانتخابية للترشح للرئاسة، لكن السياسي الناشئ كان لا يزال يتحرك تحت عتبة الإدراك.

كان أوباما في سبرينجفيلد العاصمة الصغيرة لولاية إلينوي يتابع بمشقة كبيرة عمله اليومي كسيناتور في المعارضة، حتى حدث في عام 2002 تغير سياسي في السلطة، فبعد انتخابات ناجحة أصبح أحد الديمقراطيين زعيمًا للأغلبية في مجلس الشيوخ، وهذا الديمقراطي كان أوباما نفسه يطلق عليه العراب، وكان إميل جونز Emil Jones معجبًا بهذا اللقب حتى إنه جعل من موسيقى فيلم العراب Godfather نغمة لهاتفه الخلوي.

كان جونـز الأفروأمريكـي سياسـيًا من مدرسـة شـيكاغو القديمة، فكان يعـين أقاربه في الوظائـف الحكوميـة، ويـوزع الدعم الحكومي بطريقة تعسـفية، ويسـتخدم سـلطته لإخضاع منافسـيه ـ مخلصًـا لقاعدة «في داخل كل سـياسي مـن إلينوي يختبئ رجـل عصابات صغير» لم يعد أوباما يصطدم بتلك الوسـيلة، فقد تعلم من النظام وكان إلى حد معين مسـتعد للاشتراك، واستطاع أوباما أن يكسب السياسي المحنك جونز راعيًا له.

وكان السـيناتور المخضرم يمنح السيناتور الشاب الرئاسة في التشريعات الهامة على سبيل المثـال إصلاح عقوبة الإعـدام والقانون الأخلاقي الجديد. وفي عـام 2004، كان أوباما قد أقر 800 لائحة قانونية، والكثير منها تم بتأييد ودعم الجمهوري المعارض، لقد استطاع هذا الخليط المـزدوج من الاقتناع الشـخصي والقدرة عـلى الوصول إلى حلول وسـطى أن يجد صدى كبيرًا لدى جهاز الحزب الديمقراطي على الصعيد القومي.

كان جون كيري John Kerry مرشـح الحزب الديمقراطي للرئاسـة في عام 2004 يبحث من أجل برنامج مؤتمر الحزب عن متحدث لم يستهلك بعد، فكان باراك أوباما من ضمن قائمة الاختيـار، وجس منظمـو المؤتمر النبض من بـين آخرين لدى إميل جونز ولدى ريتشـادر ديل عمدة شيكاغو، وتحولـت التوصية إلى أمر.

أسـمى أوباما خطابه على اسـم موعظة قسـه جيرميا رايت « جرأة الأمل The audacity of hope» وكانـت الخطـاب يـدور حول الأمل بـدلًا من اليـأس، والتغيير بدلًا مـن الروتين، والشـفافية بدلًا من الاحتيال، والوحدة بدلًا من التمزق: «لا يوجد أمريكان بيض وأمريكان سـود، لا توجد أمريكا يمينية وأمريكا يسـارية، هناك فقط الولايات المتحدة الأمريكية» هكذا كان دعوة أوباما إلى الوعد الذي ربته أمريكا ليحطمه الخوف.

هذه كانت الرسـالة التي هزت السـبعة عشر موفدًا في مؤتمر الحزب في فليت سـنتر Fleet Center ببوسـطن عن مقاعدهم، كانت رسـالة استمرت في الانتشار من التلفزيون ونالت ثناء نقابة المعلقين، فقد ولد نجم جديد في سـماء السياسة وكانت هذه الشهرة هي نصف رأس المال لمعركة أوباما الانتخابية للحصول على مقعد في مجلس الشيوخ بواشنطن.

لكن الأموال الكبيرة كانت داخل اللعبة تتنافس على مقعد السيناتور الثاني الذي سيصبح شاغرًا في إلينوي. ولم يحدث من قبل أن استثمرت أحزاب أمريكا هذه الملايين في انتخابات مجلس الشيوخ، وكان السباق يضم خمسة عشر مرشحًا منهم سبعة تبلغ ثروتهم عدة ملايين، وأنفق بلير هول Blair Hull أحد الديمقراطيين الذي كان لاعبًا محترفًا، وأصبح غنيًا جدًّا من خلال بلاك جاك Black Jack أربعين مليون دولار في الحملة الانتخابية، أما دان هاينس Dan Hynes الذي ينتمي إلى سلالة سياسية فقد قامر بآلة شيكاغو وبشهرته.

أوباما نفسه لم يكن يمتلك المال لكن حلفاءه كانوا يمتلكونه مثل بيني بريتزكر Penny Pritzker الذي كانت ثروته تزيد على 20 مليار دولار، بالإضافة إلى سلسة فنادق حياة Hyatt أو جورج سوروس George Soros أسطورة الاستثمار. سجل أوباما نقاطه من خلال حملة صور طورها مستشاره الجديد ديفيد أكسيلرود David Axelrod، وقد قاد ابن اليهودي الأمريكي الكثير من الحملات الانتخابية وفاز ببعض منها لمرشحيه، وكان أكسلرود مقتنعًا تمامًا بكفاءة أوباما لدرجة أنه لم يأخذ من أوباما ما يتناسب مع قيمته في السوق.

في البداية ضمن الفريق الجديد التأييد المجاني لأهم جرائد ولاية إلينوي، ثم قام الفريق بضخ أموال الرعاة في الحملات الدعائية في التلفزيون، وكان من ضمن إستراتيجيتهم أيضًا استغلال الأخطاء الفادحة للمتنافسين: يجب على المتنافسين، الأقوياء من الناحية المالية داخل الحزب أن يعلنوا أخطاءهم الضريبية وحصصهم الآثمة ويتراجعوا. اتضح أن جاك ريان Jack Ryan أغنى مرشح جمهوري كان رجل عصابة جنس.

أخذ الجمهوريون يبحثون محمومين عن مرشح بديل، ووقع اختيارهم على آلان كيز Alan Keyes وهو سياسي أفروأمريكي محنك، وأدى هذا إلى جدال ملون وإلى أول مبارزة بين اثنين من الأمريكان السود للوصول إلى مقعد في مجلس الشيوخ، لكن تابع ريجان المحافظ لم يعش من قبل في إلينوي ولم يفز في أي انتخابات من قبل، فحصل على 27٪ من الأصوات ليخسر أمام أوباما الذي حاز 70٪ من الأصوات.

خسر المرشح الديمقراطي للرئاسة جون كيري في انتخابات نوفمبر 2004 أمام الرئيس القائم بالأعمال بوش، لكن أوباما حقق فوزًا ساحقًا في انتخابات مجلس الشيوخ. وفي الرابع من يناير 2005 حلف أوباما اليمين أمام نائب الرئيس القائم بالأعمال ورئيس مجلس الشيوخ تشيني.

خلال مسار حياته الوظيفية الصعب عرف أوباما وحفظ جيدًا طرق وقواعد مبدأ آلة شيكاغو، لكنه لم يدع نفسه ينجذب إليها تمامًا، فقد لعب الجهد والفكر الشجاعة والصدف السعيدة دورًا كبيرًا في حياته، لكن بقعة سوداء صغيرة ظلت عالقة في ثوبه الأبيض، وكان لهذه البقعة علاقة بتاجر غامض يدعى توني رزكو Toni Rezko.

اشتغل رزكو السوري الأصل في العديد من الوظائف بدءًا من كبير طهاة ومرورًا بعمله لسنوات طويلة مديرًا لأعمال الملاكم الشهير محمد علي حتى أصبح مضارب عقارات، لكنه كان دائمًا يستفيد من السلطة السياسية المختصة، ولقاء ذلك كان يتبرع بالكثير من الأموال لخزينة الحزب أو لمحافظ الاستثمار الشخصية، وكان شركاؤه والمستفيدون منه على سبيل المثال ديلي عمدة شيكاغو وبلاجوجيفيتش محافظ ولاية إلينوي و... باراك أوباما، لقد شارك رزكو في تمويل حملة أوباما الانتخابية لمجلس الشيوخ، وساعده في شراء أرض فيللا في هايد بارك وعندما حكم على رزكو بالسجن لسنوات طويلة بسبب ارتكابه العديد من الجرائم، منح أوباما أموال التبرع لاتحاد خيري، لكن قضية رزكو أصبحت فيما بعد رصاصة يوجهها إليه منافسوه في الانتخابات.

في البداية انتصرت الشخصية الطفولية الرائعة للسيناتور الجديد في واشنطن، واستطاع العضو الأسود الوحيد في الغرفة العليا أن يكسب بسرعة صداقة الكثيرين من هذا الجانب أو من الجانب الآخر في الحزب، ومن بينهم هيلاري كلينتون وجون كيري وجو بايدن Joe Biden الديمقراطيون، وكذلك جون ماكين وريتشارد لوجار Richard Lugar الجمهوريان كما أنه شارك أيضًا في إقرار القوانين المهمة، وكان يسافر في رحلات مطولة للخارج مركزها أفريقيا، وفي كينيا احتفل به الناس هناك كالعائد إلى وطنه، وأثرت فيه كثيرًا معاناة الناس في

درافور وخلال عامه الأول في مجلس النواب كتب أوباما كتابه الثاني «جرأة الأمل» وتضمن الكتـاب قائمة بالـرؤى والنوايا التي تصلح لأن تكون برنامجًـا انتخابيًّا، فدخل كتاب «جرأة الأمـل» ضمـن أكثر الكتـب مبيعًا وكانـت مبيعاته أفضل بكثـير من كتب هيـلاري كلينتون وجون ماكين.

كان ديـك دوربين Dick Durbin كبير السـيناتور في إلينوي، وهـو أول من رأى في زميله الشـاب ما هو أكثر من كونه متباريًا في معركة الوصول إلى الكابيتول Kapitol فدفعه للترشـح للرئاسة بجملتين اثنتين دخلتا التاريخ: «إن آلاف الخطب الأخرى في مجلس الشيوخ لن تجلب لـك المزيـد» و«في بعض الأحيـان تقرر أنـت الوقت المناسـب وفي أحيان أخرى يقـرر الوقت اختيارك أنت».

في تلـك المـرة كان الوقت مناسـبًا، فقد كان الأمريكان مسـتاءين من جـورج دبيليو بوش وحكومتـه بعـد معركته الصعبة في العـراق، وكانت الضربة القاضية عندما لم تسـتطع الحكومة التعامل مع كارثة نيوأورليانز New Orleans.

كآبة نيوأورليانز

تعتـبر مدينة نيوأورليانز في الولايات المتحدة «السـهل الكبير The big easy» فهي مدينة تسـهل فيها الحياة. وفي أغسـطس 2005 عصف إعصار كاترينا بالبلاد الواقعة بين المسيسـيبي وبحـيرة بونتشـارترين Pontchartrain ومـع قوة مياهه اسـتطاعت الزوبعات تحطيم السـدود لتقود السكان إلى اليأس أو الموت.

كانت صور المدينة النصف غارقة والنصف مدمرة تشـبه تسونامي والعالم الثالث، غير أن مدى الدمار الذي لحق بها فاق أي تخيل وهو ما تبينته أنا باعتباري مراسل الموقع، وكان الدمار الأسوأ قد لحق بشرق أورليانز، فمن جانب القناة كان الشارع الاتحادي 10 يفضي إلى مدينة تشبه مدينة الأشـباح، وكانت أعـلام الولايات المتحدة الأمريكية بمنزلة إشـارة إلى عمليات الإنقاذ

التـي لم تنجـح، وكانـت هناك مناطق كبـيرة من المدينة لا يمكـن الوصول إليها إلا باسـتخدام الزوارق، وقد سـاعد آرثر ماثرنـا Arthur Matherna بقاربه الهوائي الـذي يعمل بالمروحة في التنقيب عن الناجين أو في نقل الأموات، وأدت هذه الكارثة إلى مقتل 2000 شخص.

لم تسـتطع أمـواج المياه تحطيـم القبة العملاقـة[1] (سـوبر دوم Superdome) فتحولت إلى جزيـرة إنقـاذ داخل نيوأورليانز التي غمرتها المياه، كانت صالـة كرة القدم المكونة من 27 طابقًا تأخـذ شـكل قبة، وتسـتوعب 90000 نسـمة، وبعـد كاترينا فاق عـدد اللاجئـين كل الأبعاد: الآلاف كانـوا ينتظرون أيامًا وأسـابيع لنقلهم إلى الخارج، لكن السـلطات فشـلت، فقد كانت دولـة التكنولوجيا واللوجسـتية المتطـورة تفتقر إلى القـدرة التنظيمية، وربما كانـت تفتقر أيضًا لحسن النية وهذا ما خمنه ديفيد بربور David Barbour: «لقد كان أغلبهم من السود الفقراء» هكذا بدا اتهام الأفروأمريكي الذي لم يستطع إنقاذ سوى حفنة الأمتعة.

كان باستور هاينتس نويمان Pastor Heinz Neumann يوجه مهمة بحرية في قناة بوليفارد، واضطـر إلى أن يصمـد أيامًا وليالي فـوق الشرفة العلوية حتـى أنقذته طائـرة هيلكوبتر ويقول: «لم أرغب حتى النهاية في ترك بلدتي، لكني الآن أعتقد أنه لن يعود إليها أحد ولفترة طويلة» كان ديفيـد يقف وهو يرتدي ثياب النوم ويحمل بندقيـة فوق شرفة منزله الذي غمرته المياه كي يبعد اللصوص، ويقول: «لأن السلطات لم تهتم في البداية فهي الآن لا تعرف ماذا تفعل».

في الحقيقـة كان العمـدة الأسـود لنيوأورليانـز والعمـدة الأبيض لولايـة لويزيانا عديمي الحيلـة فيـما يتعلق بالأزمة. أمـا العار فقد تركوه لواشـنطن حيث تؤكد تسـجيلات الفيديو أنه قـد تـم إبلاغ الرئيـس بوش قبل ذلك بأيـام بتهديد إعصـار كاترينا، كما طلـب رئيس مصلحة الحماية من الكوارث نجدة السـلطات المختصة قبـل الكارثة بيوم «لأنهم لم يخرجوا المرضى من المستشـفيات أو السجناء من السـجون كما أنهم تركوا الفنادق مفتوحة» لقد كانت الانطباعات

(1) قبـة لويزانـا العملاقـة Superdome هي صالة للألعاب الرياضية تقع في منطقـة العمل المركزية في مدينة نيوأورليانز بولاية لويزيانا. (المترجمة).

التـي خلفتهـا المدينـة المدمرة تتحـدث عن أمريـكا أخرى، أمريـكا تجـاوزت مزاعمها الخاصة «مدينة فوق الجحيم».

انقسم السكان إلى الهاربين داخل بلدهم الذين أداروا ظهورهم لوطنهم إلى الأبد، وأولئك الذين سقطوا أسرى لسحر المدينة التي تقع على نهر «أولدمان Old man» وظلوا مهووسين بها لقد تحرروا من صدمة الإعصار ومن السبات بمساعدة تقاليد الرقص والجاز الأصلية.

وينتون مارسـاليز Wynton Marsalis من أعظم كبار موسـيقي الجاز في نيوأورليانز، وهـو ملحن ومؤلف ومناضل سـابق من أجـل الاندماج العرقي وصديـق للعمدة جيسي جاكسـون، وقبـل كل شيء كان معينًـا كبيرًا في أزمـة المدينة، فقد ألـف ملحمة جديدة من ثمانين دقيقة، وأهداها إلى موطنه وأداها في ميدان كونغو Congo Square وهو اليوم حديقة تحمل النصب التذكاري واسـم لويس أرمسترونج Luois Armstrong فقد ولد البروجي المشهور هنا ووقتها كان يحيط بميدان الكونغو حي الضوء الأحمر Rotlicht وكان ساتشمو Satchmo يعزف في كباريهات الرقص سـيئة السـمعة، لكن بعد اكتسـابه لشـهرته الكبيرة لاحقًا ابتعد أرمسترونج عن السياسة.

لكن ليس وينتون مارسـاليز فقد ألقى خطبته الموسـيقية «عار عليك Shame on you» في ميدان كونغو، وكان يقصد بها الحكومة ومصلحة الحماية من الكوارث والصليب الأحمر، وكل من لم يتمكن من مساعدة المدينة في الأزمة بعد إعصار كاترينا.

أمـا مـن كانت مميزة جـدًا في نقدها للسـلطات، فهـي جريـدة بيكايون تايمـز Picayune Times وقـد حصلـت من أجل ذلك عـلى جائزة بوليتـزر Pulitzerpris، ويقـول المقرر الحائز عـلى الجائزة بيـتر كوفاكـس Peter Kovacs: «لقد دمرت المدينة حتى إن العودة إليها سـوف تستغرق وقتًا طويلًا»، «لقد كان عدد سكان المدينة قبل كاترينا 480000 لكن بعد الإعصار قد ينخفض العدد إلى الثلثين أو الثلاثة أرباع من يعرف!» وردًا على سؤاله حول ما إذا كانت هناك إرادة للعودة إلى المدينة قال: «بالتأكيد، لكن السلطات لا ترغب كثيرًا في هذا، وإنما المتطوعون

والطلاب والمؤسسات الكنسية الذين يقدمون المساعدة» بعض أحياء نيوأورليانز ضاعت إلى الأبد، وبعض الأحياء يتأرجح سكانها بين اتخاذ قرار إعادة البناء أو عدمه.

على أية حال لقد كان وينتون مارساليز حاضرًا ليس بالموسيقى فقط فقد كتب «دعونا نرى العالم» وكتب عن عمله «إن ما جعل أمريكا أقوى أمة على سطح الكرة الأرضية ليست البنادق والقنابل والرفاهية المادية، وإنما الرحمة والحياة الروحية، لقد أعطانا إعصار كاترينا الفرصة كي نوقظ هذه القيم ونحييها».

قد يكون هذا القول مأخوذًا عن باراك أوباما الذي اعتبر إعصار كاترينا فرصة مع كل ذلك الكم من التعاطف، يتذكر بيل ريتشاردسون Bill Richardson محافظ نيومكسيكو فترة الأسئلة المشتركة، ويتذكر غفلته عندما طرأ موضوع نيوأورليانز، هنا همس أوباما في ريبة «كاترينا كاترينا» على أية حال فإن وينتون مارسالياز هو تابع قديم لأوباما، وبالنسبة للاثنين أثبتت الكارثة التنظيمية بعد إعصار كاترينا عدم كفاءة حكومة بوش».

سواء كانت الحرب عل العراق أو نمط الحياة غير المحكم في نيوأورليانز هما السبب في نهاية الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة؟ «فإن إعصار كاترينا قد أماط اللثام الأخير عن الوجه القبيح للسياسة الأمريكية» كما كتبت وقتها جريدة نيوزويك Newsweek:

«البعض يعتقدون أن وصول أوباما إلى البيت الأبيض بدأ بخطابه الذي ألقاه في عام 2002 ضد الحرب على العراق، وبالنسبة للبعض الآخر كانت البداية هي الخطبة المثيرة التي ألقاها أمام الحزب الديمقراطي في عام 2004، لكن هذا الخطاب كان ضروريًّا لفتح شهية الناخبين للقائمة التي سيعرضها بهذا المعنى كانت بدايته الحقيقية في الأحياء الغارقة لنيوأورليانز في صيف 2005 الحار اللاحق».

لقد أصابت رسالته روح العصر، فقد أظهرت محادثته الأخيرة الحاسمة مع هيئته الاستشارية مدى قرب التبشيرية والمدنسة: وكانت هيئته الاستشارية هي زوجته، لقد أعطت ميشيل لأوباما الضوء الأخضر لبدء المعركة الانتخابية مقابل وعد زوجها بالإقلاع عن التدخين.

وريث لينكولن

في يوم قارس البرودة من شهر فبراير 2007، دخل باراك أوباما تصاحبه زوجته والطفلتان الملفوفتان في الثياب الثقيلة المعرض القائم أمام الكابيتول الصغير لسبرينجفيلد Springfield، وأعلن نفسه مرشحًا للرئاسة أمام 15000 مؤيد.

«أنا أعرف أنني لست خبيرًا منذ فترة طويلة بطرق واشنطن، لكني مكثت هناك بما يكفي كي أعرف أن هناك شيئًا ما يجب أن يتغير في واشنطن فقط الناس الذين يحبون وطنهم هم من يستطيعون تغييره، وهذا ما كان أبراهام لينكولن يعرفه».

كان أوباما يرى في نفسه خلفًا للرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية الذي قاد منذ 150 عامًا حربًا أهلية من أجل الوحدة والمساواة ـ وحدة الأمة الأمريكية ومساواة مواطنيها السود.

هنا رُشِح لينكولن في عام 1858 لمجلس الشيوخ، وفي بيوريا المجاورة ألقى خطبه العظيمة ضد العبودية ومن أجل وحدة الأمة: «فالمنزل المقسم من الداخل لا يمكن لأحد أن يقيمه، وأعتقد أن هذه البلد لا يمكن أن تتكون من نصف أحرار ونصف عبيد» وبعد حرب أهلية دموية هُزمت أقاليم الجنوب سكلافهولدر، وعادت الوحدة من جديد لكن المساواة لم تتحقق لفترة طويلة، وكان هذا بسبب الأسطورة.

ففي ميدان المعركة استطاعت الولايات الجنوبية أن تحرز النصر للخاسرين بالأغاني والفن الشعبي والشهرة، لقد استطاع القادة المهرة مثل روبرت لي Robert Lee والأفلام الرائعة مثل الجبل البارد Cold Mountain وروايات الألم التي تحكي قصص الوداع والبطولة أن يحلوا محل تاريخ تحرير العبيد، وبالتالي الفرصة في المساواة السريعة.

وكان خط الحدود وقتها يطابق الفجوة العقلية السائدة اليوم؛ حيث كان سكان الجنوب شجعانًا ويتحدثون ببطء، ومنحوا اللغة الأمريكية إيقاعًا موسيقيًا، وكان سياح الشمال يبحثون في جورجيا Georgia ولويزانا Louisana عن بريق المجد الزائل.

نظرًا لان أبراهام كان وقتها بطل الحزب الجمهوري الجديد، فقد ساندت حشود السياسيين القادمين من الجنوب الحزب الديمقراطي الذي تم تأسيسه سابقًا اعتراضًا على أبراهام، لكنهم بعدها انضموا إلى جانب الأفروأمريكيين بدافع الفضول، وفي انتخابات الرئاسة كان البيض من ديمقراطيي الولايات الجنوبية يختارون دائما المنافسين الجمهوريين، واستفاد الجمهوري ريجان من هذا الموقف المعارض، لكن باراك أوباما استطاع هذه المرة أن يسجل نقاطه من الناخبين البيض في الجنوب، وهذه إحدى الإشارات الكثيرة التي تشير إلى حدوث تغيير جذري في المجتمع الأمريكي، ذلك التغيير الذي أقسم على تحقيقه أبراهام لينكولن قبل 150 عامًا.

في خطابه الذي ألقاه في سبرينجفيلد في فبراير 2007 نادى أوباما: «أنا أقف اليوم أمامكم من حيث دعا لينكولن ذات يوم البيت المقسم إلى الاتحاد، وحيث لا تزال الآمال والأحلام المشتركة حية، وأعلن ترشحي لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية».

أحيانًا يكون المرشح عاطفيًّا، لكن نادرًا ما يؤخذ ذلك عليه ـ لكن ما يأخذونه عليه هو أن لديه مسحة من الغطرسة، ففي الملحق الخاص لمجلة تايم Time بمناسبة افتتاح مكتبة لينكولن الجديدة في سبرينجفيلد كتب أوباما: «إن صعود لينكولن من الفقر وتعليمه لنفسه... وقدرته والتعامل مع هزائمه الشخصية... كل ذلك يذكرني بكفاحي».

كما كتبت جريدة وول ستريت Wall Street Journal المحافظة عن ظلمة السلطة، وأن السيناتور يزين حديثه للغاية عندما يقارن نفسه بأبراهام لينكولن، لكن اتهامه بالغطرسة والغرور من قبل الجرائد المحافظة وعملها على ترويج هذا الاتهام لم ينقص من عزيمة المرشح، فلم يحد أوباما عن تبجيله للينكولن وعن تقليده له: «في مواجهة الحرب يمكنكم أن تؤمنوا بالسلام، وفي مواجهة اليأس يمكنكم أن تجرُؤوا على الأمل وفي مواجهة السياسة التي طالما قسمتنا يمكنكم أن تسعوا إلى الوحدة» إنه قول مقتبس من الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، هذا القول الذي يستعمله أوباما لصالحه وضد رئاسة بوش، إن هذا القول مناسب حتى وإن كان ضحايا الحرب على العراق أقل من ضحايا الحرب الأهلية الأمريكية وحتى إن لم يكن الوضع محبطًا للغاية، كما كان وقتها وحتى إن لم تتأثر وحدة الأمة لهذه الدرجة.

إنها على الأرجح الأطلال الاقتصادية التي تدعو إلى المقارنة المباشرة، وكذلك الأزمة الاقتصادية المرتبطة بها، وقد اشتكى لينكولن ذات يوم: «إن الاتحاد الفيدرالي من أمامي (العدو آنذاك) والمصرفيين من خلفي، وأكثر ما أخشاه هو هذا الأخير» لقد احتضن أبراهام لينكولن ذلك الخليط من احتقار واحترام رأس المال والإقطاعية، فقد ولد كابن لأسرة فقيرة في كوخ عديم النوافذ في المناطق النائية من أمريكا، وكان يوفر مصاريف دراسة الحقوق من قوت يومه، وفي البداية فتح مكتب محاماة صغير في سبرينجفيلد الفقيرة.

كان من الممكن أن يظل مقر الحكومة في إلينوي غير جذاب حتى الآن لو لم تقم الأجيال التالية بوضع النصب التذكارية لأشهر رجل سكنها، ولم تخصص المتاحف ولم تجعل من كل أثر من إقامته التي دامت خمسًا وعشرين سنة أثرًا يستحق المشاهدة إعادة بناء الكوخ الذي ولد فيه: كأنه مذود الأمة؛ توسيع الحي الذي سكن فيه: كأنه معرض مفتوح؛ التشكيل المنمق لقبره: كأنه حرم مقدس؛ المكتبة الرئاسية الحديثة التي تضم 46000 قطعة لهواة الجمع - كل ذلك يدخل ضمن برنامج الزيارة التي يقوم بها كل وطني أمريكي.

توجد قبالة مبنى الكابيتول تماثيل لينكولن وزوجته وتمثال لأحد أبنائه ومدخل مكتب المحاماة الذي كان يديره مع شريكه بيلي هيرندون Billy Herndon أما ما أعجبني كثيرًا فهو عرض الغرف غير منظمة مثلما كانت في الحقيقة يومًا ما، فقد كان لينكولن لا يهتم بالمظاهر إلا قليلًا، وأكثر من كان يلفت الانتباه من بين كل الرؤساء هو ذلك الرجل النحيف الطويل الذي كان يحمل لحية التيس وأسطوانة وعباءة قذرة، إنه ببساطة العم سام.

كان أوباما معجبًا بشكل خاص بمحطة لينكولن التي استقل منها لينكولن قطارًا إلى واشنطن من أجل تنصيبه باعتباره الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، وكان على الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية أن يقوم بهذه الرحلة، لكن من فيلادلفيا إلى واشنطن.

لقد ركب قطار التاريخ وهو واثق بنفسه لكونه وريث لينكولن، ومرة أخرى كان الأمر في أمريكا يتعلق بالوحدة بعد أن انقسمت الأمة بصورة كبيرة، ومرة أخرى كان الأمر يتعلق بالأمل في مستقبل بلا خوف، ومرة أخرى كان الأمر يتعلق بتغيير سياسة التقليديين، كان أوباما يشعر أنه على قدر هذا التحدي، ويتنبأ بتحقيقه، وفي الذكرى المائتين لميلاد لينكولن في 12 فبراير 2009 اقتبس أوباما قول مثله الأعلى: «إن مهمة الحكومة هي أن تفعل من أجل الناس ما يجب عليها فعله وما عليها أن تفعله، لكن ما تبذله من جهود لا يستطيع أو ربما يكون غير كافٍ».

يمكننا أن نعتبر هذه الجملة أساسًا لمبدأ يتبعه أوباما نفسه.

مبدأ أوباما

في فترة الرئاسة الثانية للرئيس جورج دبليو بوش كانت الرغبة في الوحدة والأمل والتغيير واضحة وجلية لكن البطل كان عليه أن يؤكد ويعلن أنه هو نفسه تلك الأداة اللازمة لتطبيق هذه القيم، ويقول ديفيد أكسلرود David Axelrod المخطط الرئيسي لأوباما منذ البداية: «عندما قرر خوض السباق لم يكن لدينا أي بنية تحتية سياسية، وكان علينا أن نقف ضد آلة الحزب الضخمة».

اتفقت رودي جولياني Rudy Guliani التي كانت عمدة محترمة لنيويورك وقت وقوع الهجوم على برجي التجارة، والتي أصبحت بعد فترة قصيرة مرشحة للرئاسة على نقل كل خبرتها لأوباما: «الذي لم يحقق في حياته شيئًا أكبر من هذا» لكن بيل كلينتون اعتقد أن فرصة سياسي غير مستهلك ستكون كبيرة؛ نظرًا لاستياء الشعب، وكذلك ميل الصحافة إلى اتباع القادم الجديد: » فرصة تأتي مرة واحدة في العمر، ولو كنت مكانه لانتهزتها أيضًا» وعندما دخلت هيلاري كلينتون السباق بدأت أكثر انتخابات تمهيدية مثيرة في تاريخ أمريكا، ويتذكر ديفيد أكسلرود قائلًا: «من أكثر الأشياء التي ظهرت في هذه القضية أهمية هي الكفاءة الإدارية الهائلة التي أظهرها مرشحنا».

لقـد تعلـم أوباما من عمله كمنظم اجتماعي ألا يقوم فقـط بتحميس الناس، وإنما أيضًا أن يؤكـد لهم على أهدافه، وفي وقت قصير تكون من حفنة من المتطوعين جيش كبير اسـتخدمه في البداية لتمييز علامة أوباما التجارية، علاوة على ذلك كانت سيرته الذاتية غير العادية، وكذلك صورته باعتباره بانيًا للجسور في عصر الاستقطاب ومتحديًا للنظام السابق. من ذلك نتج نوع مختلف تمامًا من الانتخابات.

في ندوة مع المخططين الانتخابيين أشـار المستشـار السـياسي جوسـون سـتانفورد Joson Stanford أن من بين كل الإستراتيجيات كانت إستراتيجية إدارة الحملة السلبية هي الأنجح، لأنـه دائـما مـا كان يعلـق شـيئًا مـا بالمنافـس سـواء كان حقيقيًـا أم لا. وفي الحقيقـة كانت هذه الإسـتراتيجية تـؤتي ثمارها في الكثير مـن الانتخابات، ولم يتعامل جون كـيري المتنافس الأخير على الرئاسـة من الديمقراطيين بالحماس الكافي ضد حملة المخضرمين الذين اتهموه بالجبن أمام الأعداء، وربما أسـهم ذلك في هزيمته، لكن من الواضح أن الجمهور هذه المرة لم تكن له شـهية لخاتمة معتادة، وإذا حدث ذلك فإن فريق أوباما كان سيتصرف على الفور.

لقـد صوره مناضلوه بأنه إسـلامي وأن زوجته مناضلة تابعة لطالبـان، كان ذلك تصويرًا كاريكاتوريًا ظهر حتى في مجلة نيويوركر المشهورة، وكانوا غالبًا ما يدخلون اسمه الثاني حسين في اللعبـة لكـي يصلوا إلى رابط بينه وبين صدام حسـين، وقد حاول زوجان طبيبان في سـانت لويس أن يقنعاني بأنه أقسم اليمين على القرآن كسيناتور.

إن ذلـك الكـم الهائل من القذف والسـب الذي انتشر عن طريـق البريد الإلكتروني حول المرشـح الأسود كان يضعف بطريقة مباشرة الفريق الإضافي الذي نشر موقعًا إلكترونيًا خاصًا به، لقد فند فريقه تلك الاتهامات الموجهة لأوباما بأنه مسلم: » لقد حلف أوباما يمينه لمجلس الشـيوخ على إنجيل العائلة، كما أن عائلته تؤدي مراسـم الصلوات المسـيحية بانتظام« أما الرد عـلى اتهام أوبامـا بأنه غير وطني فكان: »لقـد كان جد أوباما الكبير جنديًـا في الحرب العالمية، وعلم باراك وهو طفل صغير معنى العلم الأمريكي«.

من الغريب أن هذه الاتهامات حسـمت من تلقاء نفسـها عندما بـدأت تتعارض تعارضًا كبيرًا مع قسـه المسيحي الأفروأمريكي جيرميا رايت الذي كان معروفًا عنه هجومه الجدلي على «العنصريـين البيض» لقد سـألت نورمان بيرنبـاوم Norman Birnbaum الذي يشـغل المقعد الوحيـد للمركسـيين في الولايات المتحـدة الأمريكية عـما إذا كانت تلك الحـوادث قد ألحقت الضرر بالمرشـح، فأجابني: «على العكس لقـد زال ذلك التعارض مبكرًا بالقدر الكافي، وخدم شهرة المرشح فقد أعطاه الفرصة لأن يقول شيئًا جوهريًا عن مشكلة العنصرية» ما زلت أتذكر كيف كان يشبه جدته البيضاء القادمة من هاواي بالقس.

«أسـتطيع أن أخبركـم عنـه شـيئًا ما، إنـه تمامًا مثل جدتي، إنها سـيدة سـاعدت في تربيتي وأحبتنـي، لكنها اعترفت لي أنها تخشـى الرجال السـود أنا لا ألوم ريفيرينـد رايت Reverend Wright لأنـه يتناول قضية العنصرية، ولكن لأنه يعتبرها ثابتة كأنها لم تحدث أية تطورات لكننا نعرف أن أمريكا تغيرت».

التغيـير: لقد فهمت الجماهير هذا المعنى، وفشـل الهجوم، ولم يعتمد المرشـح بدءًا من هذه اللحظة على الإعلام وإنما على التواصل عبر الإنترنت، فعن طريق رسـائل SMS القصيرة كان أوبامـا يتوجـه شـخصيًا ليخاطب النـاس قائلًا «صديقي العزيـز» كما كان يتوجـه دائمًا بصيغة «نحن» وهو يخاطب معجبيه: «سوف ننجح معًا».

كانـت أكثـر فكرة عبقرية لأوبامـا هي الجمع بين جمـع الأموال ودعايـة أتباعه، وفي نفس الوقـت التخلي عن مسـاعدة أكبر جماعات الضغط داخل البـلاد التي كان من الطبيعي أن تمول حملته الانتخابية، لكن كل الشـباب الذين تواصلوا مع فريقه وشعروا أن أوباما يخاطبهم بنفسه نـشروا رسـالته، وتبرعوا بمبالغ صغيرة بلغت هذه الإسـهامات الصغـيرة مبلغًا لا يمكن لأي مرشـح آخـر أن يجمعـه، على الرغم مـن ذلك بقيت الانتخابـات التمهيديـة في صراع كبير بين احتمالية الأسود الأول أو المرأة الأولى في المكتب البيضاوي.

تعـود هذه الانتخابات التمهيدية إلى «اجتماعات المدينة Town meetings» وهي نوع من الحكم الذاتي في مستعمرات المهاجرين الأولى المتفرقة في الأماكن البعيدة من الساحل الشرقي، حيـث كانـت اجتماعات أفراد المسـتوطنة المخولين بالانتخـاب تخدم التقرير في مسـألة رواتب الشريـف ومبـاني الإطفـاء والتراخيـص المهنية وقضايـا الملكيـة، وفي عام 1875 ظهـر (قاعدة روبـرت Robert Rule) وهو عمل نموذجي يتناول الإجراءات والامتيازات المحلية الصارمة بخصوص حرية اتخاذ القرار في اجتماعات المدينة.

أحيانًا كانت تخرج من هذه الاجتماعات مطالب وتعارضات فكرية، كانت تمتد إلى الحكم الذاتي فقط بعد الحرب العالمية الثانية دعت البلديات الأولى مرشـحي الرئاسـة للمناقشة، ومن هذه المناقشـة أجرت ولاية نيوهامبشـير اختبارًا نتج عنه قرار الانتخابات التمهيدية، وكان أول من اسـتفاد من هذا القرار هو إيك أيزنهاور Ike Eisenhower في عام 1952، في عام لم تجر فيه سوى اثني عشر انتخابًا تمهيديًّا ومنذ ذلك الحين، وهذا النوع من صناعة الرأي تحول إلى قضية سياسية تضم الآن جميع الولايات.

اسـتخدمت أمريكا التـي تؤمن بالإحصائيات هـذا الإجراء المطول لاختيار المرشـح كي تصل لرؤية محددة حول أحد المرشـحين وأيضًا حولها هي نفسـها، ويشتكي مخطط الانتخابات ويليام ستروثر William Strother منذ 30 عامًا:

«إن نظـام الانتخابات التمهيدية يمارس ضغطًا مسـتمرًّا ويورط الخاسرين في ديون ثقيلة، لكـن للأسـف لا يبـدو لي أن هناك طريقة أفضل يمكن أن تلفت انتباه الشـعب المشـتت لأحد المرشحين».

تبدو الانتخابات التمهيدية Primaries في الولايات المتحدة الأمريكية مختلفة، لكنها دائمًا ما ترتبط بالالتزام بعدم تزوير نتائج الترشيح التي هي مجرد إجراء شكلي.

استطاعت هيلاري كلينتون أن تفوز في الانتخابات التمهيدية في نيوهامبشير، لقد دمعت عيناها من فرط التأثر، لكنها كانت قد شـهدت هناك الصدمة الأولى، فقد سـبق أن أقيم تجمع

حـزبي في ولايـة أيـوا Iowa في بدايـة 2008 غير أنهم لم يأخـذوا الولاية على وجـه الجدية؛ نظرًا للمشـاركة الضعيفـة المعتـادة وقلـة عـدد المصوتين، لكن هـذه المرة وبطريقة اسـتثنائية ذهب الكثيرون من السكان إلى التصويت، ومنحوا باراك أوباما الأولوية، وكان المدهش في ذلك: أن 95٪ من السكان الريفيين كانوا من البيض.

كانـت بقية أحداث هذه الانتخابات التمهيدية الأكثر شـدة على مـر العصور حكاية، فقد حصـل أوبامـا عـلى 300 مليون دولار مـن 15 من المتبرعـين الصغار، وأتاح لـه ذلك الحضور القـوي في جميع أنحاء البـلاد، أما هيلاري فقد نفدت منها الأمـوال، وفي النهاية نفد منها أيضًا استحسان كبار رجال الحزب، وفي السابع من يوليو 2008 اعترفت بالهزيمة.

في يونيـو كان أوبامـا لا يـزال يجمع حولـه المخلصين مؤكـدًا على المعركـة التالية ألا وهي معركته ضد جون ماكين John McCain:

«لو أنني خسرت في ولاية أيوا، فلا مانع من ذلك، حينئذ كانت ستفوز ديمقراطية أخرى، لكن الآن وحيث إننا كسبنا الانتخابات التمهيدية فعلينا أن نواصل، إننا مدينون للناس الذين يضعون آمالهم علينا، وأنا أحبكم فدعونا الآن نكسب الانتخابات».

في سـبرينجفيلد العاصمـة الصغـيرة لولايـة إلينوي بدأ مسـار أوباما السـياسي في عام 2007، وبعـد ذلـك بثمانية عشر شـهرًا كان كابيتول المدينة يقف مرة أخـرى تحت الأضواء، فعن طريق رسـائل SMS القصيرة نادى أوباما اتباعه للتجمع للاحتفال برجل اسـتطاع أن يخرجـه مـن الورطة كانت هنـاك دمدمة بين روسـيا وجورجيا مما منح الخصـم المتبقي جون ماكين القوة؛ لأن الجمهوري كان يعتبر خبير حرب والقائد الأعلى المصدق للقوات المسلحة في أوقات الأزمة.

أمـا أوباما فكان مبتدئًا في السياسـة الخارجية حتى وإن كان قد قـام برحلة مؤثرة إعلاميًّا إلى الـشرق الأوسـط وإلى برلـين، وهنا ظهر جو بايـدن Joe Biden كمنقذ له في وقت الشـدة، وكان

بايـدن رئيس لجنة السياسـة الخارجية، وبهـذا كان على قدر كبير من الخبرة مثـل جون ماكين، وفي ذلـك اليـوم الحار من الصيـف أعلن أوباما بحفاوة كبـيرة جو بايدن نائبًا له، لقد أثبت السـيناتور صاحـب الـروح القتالية أنه الاختيـار الأمثل، وأنه لاعـب الفريق الذي يمكنـه التعامل مع جميع المواقف.

أعد أوباما من أجل حفل التعيين الخاص بالديمقراطيين في دينفر Denver خطابًا ألقاه في النهاية، وكان مكان العرض صالة رياضية مزخرفة بممرات الأعمدة اليونانية التي كانت تذكر بأصل الديمقراطية في أثينا اسـتقبل أوباما حفاوة الحزب بخليط من التواضع والانفعال: «أنا أعرف أنني لا أفي بالمعايير المعتادة لهذا المنصب، لكنني أشعر أن شيئًا ما يتحرك في الأمة وما لا يفهمه من يقولون لا هو أن الأمر لا يتعلق بي وإنما بكم».

احتفـل الجمهور الذي بلغ 70000 مشـاهد في دينفر بأوباما كأنـه باراك المبارك الذي عليه أن ينجـز مهمـة ما في أمريكا، وقالت إحدى الملاحظات الألمان :«كأنه تطويب لأوباما في قائمة القديسين».

من الناحية المضادة ناحية الحزب الجمهوري وبعد ذلك بأسـبوع سادت السخرية وسائل الإعلام » ماذا يفعل عندما يسـير فوق الماء دون أن تبتل قدماه، وعندما يشـق الأمواج ويشفي العالم؟» إن صورة المخلص أوباما أثارت سخرية قوة سياسية جديدة: سارة بيلين Sarah Palin محافظة ولاية ألاسكا Alaska التي عينها جون ماكين نائبة له، إن الجمهوري العجوز لا يعتمد الآن على «امرأة» وإنما على «شـابة» وكان حكم النقاد السريع عليها أنها صغيرة جدًّا وسـاذجة للغاية.

لكـن سـارة بيلين كانت مثلـما كان أوباما في البدايـة: ضيفًا مفاجئًا على المسرح السـياسي، لقـد منحـت القضية الجمهورية الأمـل من جديد، وكانـت تتفق مع الـروح المحافظة أكثر من جـون ماكين، وكما قال الناطق بلسـان الحزب وصاحب اللسـان السـليط رش ليمباوج Rush Limbaugh: » إن بالين صالحة وضد الإجهاض وتؤيد حيازة الأسلحة».

لكـن الأمريـكان كانـوا يتوقعون من المتنافسـين الاثنين مناقشـة سياسـية مثيرة في قضية أصبحت بالفعل إحدى طقوس الانتخابات، وهي المبارزات التلفزيونية الرسـمية وخصوصًا عندما يكون هناك تقارب في شـعبية الحزبين يلجآن إلى المباراة الفاصلة. ففي عام 1963 في أول مبـارزة أخذ نيكسـون Nixon يثرثـر، بينما ظل كينيـدي هادئًا وفاز بالمبـارزة، أما جورج بوش الأب فقد كان ينظر إلى ساعته، بينما يتحدث خصمه كلينتون، وخسر بوش المبارزة، وأبدى آل جور شـعوره بالملل، بينما كان بوش الابن يتعثر في الكلام، وعوقب على ذلك، وعندما خاطب مونديـل Mondale خصمـه ريجان عن كبر سـنه، رد ريجان: «أنـا لا أريد أن ألوم خصمي على صغر سـنه» كل شيء يوضع تحت العدسـة المكـبرة ويتم تقييمه: المزحـات.. الوقفة.. حركات الوجه والجسد.. التوتر.

في رأيـي كانـت كل المبـارزات في خريـف 2008 متوسـطة، فلم يـرد البطـلان الوقوع في الأخطاء، وكانت أخطاء ماكين المتبجح أكثر، ونائبته المرشحة التي بدأت بالهجوم، لكن أوباما ظل هادئًا لدرجة الغطرسة وفي النهاية كانت الأحداث هي الفاصل وليس المرشحين.

ففي النهاية جرت الانتخابات تحت أزمة اقتصادية لم تشهد أمريكا مثلها منذ الكساد الكبير الـذي شـهدته في عـام 1929، وهنا تحول جزء كان حتى الآن في صف ماكـين لينحاز إلى أوباما الـذي كان يبدو أصغر سـنًّا وأكثر قوة ولديه برنامج قـوي، لقد صمم هذا البرنامج قبل الأزمة بكثير لكن البرنامج كان مرنًا حتى إنه تمكن من مراعاة ما لا يمكن توقعه كما خطط أوباما أيضًا لفترة طويلة الأمد للسياسة وللموظفين. وكان بذلك يقتدي بلينكولن:

«لأنه كان يربط الإخلاص للمبدأ بالبراغماتية: فإنني أميل إلى الرأي القائل بأن لينكولن لم يكن قط مستعدًّا لأن يبوح بأي اقتناع فقط لأنه مناسب، فقد كان الأمر بالنسبة له على الأرجح يتعلـق بالحفـاظ عـلى الاتزان بـين القوى المتنافسـة لقناعتـه بأن علينـا أن نتصرف وأن نسـعى للاتفاقيات لأننا كلنا غير كاملين».

هـذا ما كتبـه أوباما في كتابه «جرأة الأمل» ووفقًا لذلك فإنه اختار لبعض الوظائف المهمة أفضـل من يمكنه الحصول عليهم وليس الأكثر لطفًا. فمنذ البداية وهو يحدد حملته الانتخابية: ليس ضد الحرب وإنما ضد حرب العراق؛ ليس ضد المنافسـة الحرة وإنما ضد انقسـام المجتمع؛ يؤيـد سياسـة الطاقـة الجديـدة ولكـن مع مراعـاة حمايـة البيئـة؛ يدعـو إلى المزيد من الشـفافية والأخلاق في التصرف السـياسي؛ وإلى تعليم أفضل وتأمين صحي ومعاش تقاعدي وسياسـة اقتصادية مسؤولة، لكنه لم يدخل في تفاصيل هذه المشاريع، وإنما تركها مبهمة كي يسمح بذلك بالاختيارات المفتوحة.

في الوقـت الـذي ما زالـت فيه بورصة وول سـتريت Wall Street تدفـع الاقتصاد إلى هوة سـحيقة وتقوده إلى الكسـاد، قام أوباما بتوسيع إطار المساعدة دون أن يعتمد في ذلك على الخطط المكلفة الأخرى، وكانت المكافأة على هذه السياسة الحذرة واضحة جدًّا في فوزه في الانتخابات.

في مسـاء الرابـع إلى الخامـس مـن نوفمـبر 2008 أثبتت أمريـكا أنها بلـد الاحتمالات غير المحدودة. لقد انطلق الوعد بفكرة التأسـيس تحت سـماء شيكاغو: كل الناس سواسية أمام الله وأمـام القانـون «إننـا نشـهد في تلك الليلـة وفي وصولنا إلى الهـدف الذي سـعينا إليه وفي تلك اللحظة التاريخية نقطة تحول».

كانت النشوة تغمر الآلاف الكثيرة التي احتشدت في جرانت بارك Grant Park بشيكاغو، وسالت الدموع من عيني المناضل القديم لحقوق الإنسان جيسي جاكسون، لكن معركته كانت هيمنـة البيـض وليس تخطي التضـاد العرقي، فقد تـم انتخـاب أوباما على الرغم من أنه أسـود وكان ذلك انتصارًا ضد تحيز الأمريكيين البيض.

عندمـا خرجت عائلة أوباما الرباعية إلى الجماهير، كانوا يظهرون كأنهم فاصل إعلاني عن الأسرة السـليمة، وكان البعض يرون في ذلـك نموذجًا للمجتمع الأفرو أمريكي وموعظة عن سـلوكها الأخلاقي، والبعض الآخر اعتبرها صورة زائفة لا تتطابق مع واقع السـكان السـود كان يرون فيها رجعية إلى أخلاق العائلة قديمة الطراز.

هزيمة ماكين النبيلة

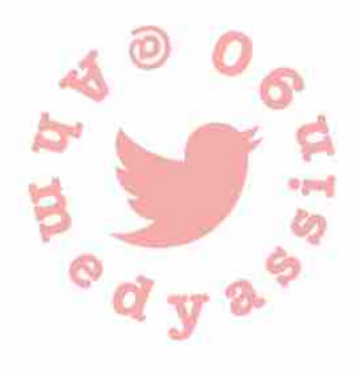
«قبـل عـدة دقائق نلت شرف تهنئة السـيناتور أوباما، لقد هنأتـه على أنه أصبح الرئيس الحالي للبلاد التي نحبها كثيرًا، فبعد تلك الحملة الصعبة الطويلة اسـتحق أن ينال احترامي بنجاحه ومثابرته وقدراته، وأعجبني كثيرًا أنه استطاع أن يحمل الأمل إلى الكثـير مـن الناس الذين كانوا يعتقدون أن حياتهم لـن تتغير بالانتخابات، وأنهم أنفسـهم لا يمكن أن يكون لهم أي تأثير على مسـار الانتخابات الرئاسية، لقد كانت انتخابـات تاريخيـة وأعتقـد أنها كانت قبل كل شـيء ذات أهمية كبيرة بالنسـبة للكثير مـن الأفروأمريكيين، ولا بد أنهم يشـعرون بالفخر الشـديد في هـذه الليلة (...) لقد كان بيني وبين السـيناتور أوباما خلافات لكن الغلبة كانت له وبلا شك سوف تبقى هذه الاختلافات في المسـتقبل، لكن بلدنا تمر بأوقات صعبة، وأنا وعدته مسـاء اليوم أن أبـذل كل ما في وسـعي كي أقـف إلى جانبه وأدعمه في كل التحديـات وأنا أنادي جميـع الأمريكيـين الذين أيدوني أن ينضموا إلي: ليس فقط بأن يهنئوا أوباما، وإنما بأن ندعم رئيسـنا الجديد، وأن نحاول جاهدين أن نجد سـبيلًا كي نتجاوز الاختلافات بيننـا وكي نبني إمبراطوريتنا، وندافع عن أمننا في عالم مليء بالأخطار لنترك لأطفالنا وأحفادنا بلدًا أفضل مما ورثناه نحن ذات يوم».

(جون ماكين)

لقد حقق المجتمع بأسره تلك القفزة الأخلاقية الكبيرة إلى الأعلى في وقت الأزمة الكبرى، وبقـي أوبامـا بعد فـوزه في الانتخابات متأرجحًا هل يتدخل في سياسـة الحكومـة التي لا تزال قائمـة بالأعـمال أم لا، لم يفعل فرانكلين ديلانو روزفلـت Franklin Delano Roosevelt هذا في موقـف مشـابه منذ 80 عامًا، وإنما أخذ إجازة ما بعـد الانتخابات، لكن وقتها لم تكن أمريكا في عالم العولمة.

عندمـا قـرر أوباما الترشـح لم يسـتطع التنبؤ بجبـل الديون الـذي عليه أن يتسـلقه،

وبالـوادي الـذي عليـه أن يعبره، كانت هناك شـهور قصـيرة بين بدايـة الانتخابات وبين الفـوز لكنهـا كانـت تبدو كأنها سـنوات ضوئية طويلة، فـأول رئيس أبيض سـابق في أمة بيضاء سابقًا دخل البيت الأبيض بطلًا، لكن ممارسات حكومته كانت أكبر عدو للبطولة كما ذكرت مجلة أتلانتيك Athlantic.



الفصل السادس

باراك أوباما والملحمة الأمريكية العظيمة

إن تولي باراك أوباما السلطة فى الولايات المتحدة الأمريكية كان يعني للعالم أكثر من مجرد بداية إدارة أمريكية جديدة، لقد كان يعني نهاية عهد من الخوف والارتباك وذلك بعد ثماني سنوات من سلوكيات جورج بوش العدوانية والمخيفة، بل والخاطئة فى الكثير من الأحيان، لقد تساءل الصديق والعدو على حد سواء عن من هو جالوت القادم الذى تخبئه لهم أمريكا.

لم يكن من الغريب أن يحبس سكان العالم أنفاسهم خلال العامين الماضيين، بينما وقفوا يشاهدون الولايات المتحدة الأمريكية تختار رئيسها القادم، وبينما بدأ ينقشع دخان المعركة - وصف أحد المراقبين الألمان سكان العالم بأنهم «راقبوا ذلك الطقس الصوفي لتجديد النفس الجماعي لأمريكا»، كذلك تابع العديد من الناس بتعجب شديد صعود تلك الشخصية غير المألوفة على المسرح العالمى.

إن باراك حسين أوباما، رجل ينتمى إلى خليط عرقي ذي أصول معقدة، وسيرة ذاتية فريدة من نوعها، وجاءت بداية ظهوره على الساحة الوطنية فى عام 2004، وذلك عندما قام بإلقاء خطاب نال استحسانًا واسعًا، والذى خاطب من خلاله المؤتمر القومي الديمقراطي. عمل فى السنوات الأربعة الفاصلة بعناية على بناء شبكته السياسية، وأن يصبح معروفًا فى مختلف أنحاء البلاد، ولكن عندما بدأت الحملة الرئاسية لعام 2008 فى بداية عام 2007 بشكل جدي لم يعطه أحد الفرصة للفوز.

تنافس ما لايقل عن نصف دزينة من المرشحين المخضرمين للحصول على ما بدا أنه فوز تلقائي بسبب انهيار الجمهوريين بعد ثماني سنوات من حكم جورج بوش بشكل خاص، وبدت هيلاري كلينتون ـ زوجة رئيس سابق ـ وعضو فى مجلس الشيوخ ووريثة واحدة من أكثر الماكينات السياسية[1] الواعدة من حيث النتائج كمرشح مفضل بشكل واضح.

هزم أوباما بعد ثمانية عشر شهرًا، مايقرب من دزينتين من أكثر من مرشحى أمريكا السياسين طموحًا وخبرة، ليصبح الرئيس الرابع والأربعين فى تاريخ أقوى أمة، وما زال العديد من المراقبين مندهشين من كيفية انتصاره الحاسم.

إذا تمكن سكان العالم من التصويت، لجاءت النتيجة تصويت ما يقرب من ثلاثة أرباع سكان العالم لصالح باراك أوباما؛ حيث جاءت صورته جديدة وشافية بصورة كبيرة، حتى جاء يوم تنصيبه فى العشرين من يناير (كانون الثاني) حيث احتشد أكبر حشد سياسي مؤيد له، لم يحتشدوا فى شيكاغو Chicago أو دينفر Denver، ولكن فى برلين Berlin، لقد تسبب انتخابه في موجة من سيل التعاطف، حيث القرية مسقط رأس والده في كينيا وصولًا إلى أستراليا وهونج كونج، بل وحتى فى منطقة الشرق الأوسط.

جسد باراك أوباما بالنسبة لكثيرين من سكان العالم، الأمل فى الحصول على العدالة ومستقبل مزدهر، كذلك جاء انتخابه ليبعث الثقة فى الولايات المتحدة مرة أخرى، والتي استطاعت أن تظهر قوى القدرة على التحول، ولكن ما زال هناك العديد من ملايين المواطنين والقادة يتساءلون عما هو قادم.

لقد عايشت المشاعر التى يمكن لأوباما أن يبعثها خارج الولايات المتحدة، وذلك خلال زيارته لبرلين في شهر يوليو (تموز) من عام 2008، حيث طلبت شبكة ZDF التليفزيونية [2] أن

---

(1) الماكينة السياسية: هي منظمة حزبية يرأسها رئيس واحد أو مجموعة أوتوقراطية (استبدادية) صغيرة، والتي تتحكم في عدد من الأصوات كافٍ للحفاظ على السيطرة السياسية والإدارية لمدينة أو مقاطعة أو ولاية. (المترجمة)

(2) شبكة التليفزيون الألماني الوطني، وهي منظمة مستقلة غير ربحية وتوجد في مدينة ماينز Mainz. (المترجمة)

انضم إلى مراسليها للتعليق عليه من خلال التواجد على منصة تم تعليقها فوق الجمهور وقريبة من مكان وقوف أوباما.

أستطيع القول أنه كان يمكنني الشعور حرفيًا بسعادة وإثارة الجمهور، والذي امتد من عمود النصر [1] Siegessäul رجوعًا إلى بوابة براند بورج [2] Brand Burger Tor، وقد وصل تعداد الجمهور إلى حوالى 200 ألف شخص.

أظهر الخطاب الذي ألقاه أوباما فى مساء ذلك اليوم الصيفي الدافئ أسباب جاذبيته، لقد تحدث من فوق مسرح بسيط، منفردًا وسط ذلك الحشد الغفير، ولم يكن هناك مقدمات طويلة أو منمقة، فقط شخص طويل ممشوق القوام، والتي ذكرتني كلماته وأسلوبه فورًا بأبطال السينما الأمريكية العظام القدامى، لقد كان مثل جارى كوبر Gary Cooper في فيلم «وقت الظهيرة» High Noon، وأبراهام لينكولن Abraham Lincoln في مدينة جيستبرج Gettysburg. لقد قدم خطابه مستخدمًا أسلوب السرد الأمريكى الكلاسيكى، لقد استخدم عبارات روائية بسيطة ليشرح من خلالها كيف تتماشى الإنجازات الأمريكية والألمانية مع رؤيته المستقبلية، وذلك حين قال: «عندما قمتم ـ الشعب الألمانى ـ بتحطيم ذلك الحائط، بدأت الحوائط تنهار فى جميع أنحاء العالم، من كييف Kiev إلى كيبتاون Cape town، وأغلقت معسكرات الاعتقال، وفتحت أبواب الديمقراطية، وكذلك نمت الأسواق، وجاء انتشار تكنولوجيا المعلومات ليقلل العوائق أمام إتاحة الفرص والازدهار، وبينما تعلمنا من القرن العشرين أننا نتشارك فى مصير واحد، فإن القرن الواحد والعشرين كشف عن عالم متشابك بشكل غير مسبوق فى تاريخ البشرية».

---

(1) عمود النصر: نصب تذكاري شهير بالعاصمة برلين، صممه هاينريش ستراك بعد عام 1864 لتخليد ذكرى الانتصار البروسي في الحرب البروسية الدانماركية، وتم الانتهاء منه وافتتاحه في عام 1873، ثم تم إضافة تمثال لفكتوريا. (المترجمة)

(2) بوابة براندبورج: كانت البوابة الرسمية لبرلين فيما مضى، وأحد رموزها الأساسية. تقع غرب وسط المدينة، بدأ بناءها في عام 788 وانتهى في عام 1791. (المترجمة)

تسـبب فى البدايـة طلب الحكومة الألمانية من أوباما عـدم التحدث من أمام بوابة براندبيرج بالشعور بخيبة الأمل، ولكنني شعرت أن حضوره عند عمود النصر أضاف الكثير إلى المناسـبة؛ حيث اسـتطعت من الطرف الآخر من الشـارع أن أشـعر بالمشاعر المنبعثة من منطقة المشجعين[1] Fan Meile الشهيرة بشكل أفضل، والتى احتلت نفس المكان منذ عامين عند استضافة ألمانيا كأس العالم لكرة القدم للاحتفال به.

إن الـروح المعنوية المرتفعة التـى ظهرت من منطقة المعجبين تم الترحيب بها في عام 2006 كعلامة على أن صغار الشباب الألماني بالتحديد قد تغلبوا على روح التشاؤم من الماضي، وأنهم يستطيعون فعلًا الاحتفال بأمتهم. إن عشرات الآلاف الذين تجمعوا لسماع باراك أوباما أعادوا خلق ذلك الجو مرة أخرى، ودللوا على سبب واحد رئيسي لشعبيته حول العالم؛ حيث قد يكون هـو الرئيس الأمريكي، ولكنه قادر أيضًـا على ترجمة الخطاب الأمريكي إلى كلمات ممكن فهمها خـارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث أصبحت عبارة «نعم، نحن نسـتطيع» تقريبًا الشعار الرسمى الجديد لجيل عالمي لفترة ما بعد الحداثة.

اسـتطاع مـرة أخرى ذلك المزيج الثقـافى الفريد من نوعه للولايـات المتحدة الأمريكية أن يصل لجميع الأشـخاص حتى هؤلاء الذين سـخروا منه فى جميع أنحاء العالم، إنها تلك القدرة التى تتمتع بها الولايات المتحدة الأمريكية لإعادة اكتشـاف نفسـها لمواجهة الظروف الجديدة، وهو الأمر الذى يسبب القلق لمعظم دول العالم. إن أسلوب رواية القصة هو الوسيلة الأمريكية الرئيسية للتواصل، ويتقن أوباما استخدام تلك الوسيلة مثل الذين سبقوه، ويمكن فهم أوباما بشكل أفضل من خلال ربطه لنجاحه بأسلوب السرد الأمريكى، وبالرغم من مواهبه المتعددة، فإنه لم يصنع النصر بمفرده، حيث إن قصة حياة أوباما دفعت به فوق موجة من التعاطف والتي مثلت تحول الحياة السياسية الأمريكية.

---

(1) مصطلح تم صياغته أثناء استضافة ألمانيا لكأس العالم عام 2006، وهي عبارة عن مناطق تجمع ينصب بها شاشات عرض ضخمة لمتابعة المباريات، وذلك بالمدن الرئيسية بألمانيا. (المترجمة)

قدم باراك أوباما نفسه بالفعل من خلال رواية قصة حياته، حيث يشير أوباما فى كتابه «فى أحلامي... من والدي In Dreams from my Father» والذي نشر عام 1995، وذلك قبل دخوله معترك الحياة السياسية إلى العديد من الأمور التى أثرت عليه، وكانت السبب فى تكوين شخصيته، فهو يفكر بعناية كبيرة في هويته وكيف أنه أصبح نوعًا فريدًا من الأمريكيين، وبصفته مواطنًا ووافد اندمج داخل الحياة الأمريكية، ولكنه يثير نقطة زيارة منزل والده في كينيا أيضًا.

يشير أوباما فى كتابه أنه أخبر أصدقاءه في عام 1983 أنه قرر أن يصبح «مُنظمًا مجتمعيًّا» وحين سألني أصدقائي ماذا تعني وظيفة «المُنظم المجتمعي»، لم أستطع إعطاءهم إجابة مباشرة، وبدلًا من هذا أعلنت الحاجة إلى التغيير، التغيير في البيت الأبيض، التغيير في جو الدولة... إن التغيير لن يأتي من أعلى، سيأتي التغيير من حشد القاعدة الشعبية».

كتب باراك أوباما بعد خمس سنوات مقال لجريدة إلينوي إيشيوز Illinois Issues، والذي أشار فيه إلى حديث دار مع إمرأة أفروأمريكية خارج أسوار مدرسة ما . بدأت بالحديث قائلة «استمع إلي يا أوباما، أنت شاب صغير وواعد، لقد ذهبت يا أوباما إلى الجامعة، أليس كذلك ... أنا فقط لا أستطيع تفهم لماذا يذهب شاب ذكى وصغير مثلك إلى الجامعة ويحصل على مثل تلك الدرجة العلمية ليصبح «مُنظمًا مجتمعيًّا»، يكمل أوباما قائلًا : «لقد راجعت الحديث في رأسي مرارًا وتكرارًا ... وللأسف لم تكن الإجابات التي وردت على ذهني بنفس سهولة سؤالها، وعلى الأرجح، أعتقد أن أقصر الإجابات هي: أنه أمر يجب القيام به ولا يوجد أشخاص كافون للقيام بهذا الأمر».

نستطيع سماع شعار » تغيير يمكننا الإيمان به» من خلال تلك الكلمات والتي مثلت رسالة أوباما الأساسية الثانية في عام 2008. إن سماع تلك الكلمات يساعد على فهم كيف أنه من الواضح أنه ربط نفسه بالسرد الأمريكى حتى قبل خمسة وعشرين عامًا . كان من الممكن أن يصبح دخيلًا غاضبًا أو محاميًا في إحدى الشركات، وقد يكون مثالًا نموذجيًّا حيًّا لكيفية بناء الهوية فى أمريكا من خلال فصول القصة الأمريكية.

يعـرف باراك أوباما كيفيـة توصيل قصصه لعدد كبير من الأشـخاص . لقد علق الكاتب الأفروأمريكي الكبير توني موريسـون Toni Morrison[1] على كتاب «أحلام من والدي» بأنه «كتـاب خارق للعادة»، ولكن لخدمة أغراضنا هنا فإن الكتاب يناقش إتقانه لفن السرد والذي يقع في صميم الوعي السياسي الأمريكي.

تحدي الإعسار المالي

لقـد عاقـت آمالنـا لهـذا النـوع الجديـد مـن القـادة الأمريكيـين الضائقـة الماليـة والاقتصاديـة التـي ورثهـا، ولم يكـن الاقتصادي بـول كروجمـان [2] Paul Krugman الحائز على جائزة نوبل الوحيد عندما تساءل «لماذا قد يريد أي شخص تلك الوظيفة؟».

لم يتأرجـح الاقتصـاد الأمريكي نحو الانهيار بهذا الشـكل منذ عـام 1933، ولم تنهار على مدار التاريخ المصداقية الأمريكية مثلما حدث خلال الثماني سنوات الماضية. إن عدوانيـة بـوش الفردية (الأحاديـة)، أدت إلى تورطه في حربـين مؤلمتين، وإهماله لمسؤوليات أمريكا الدبلوماسية أدى إلى انخفاض حاد في قدرة أمريكا على دور حفظ التـوازن، وهـو الدور المتوقع من أكبر قوة في العالم. يـكاد يكون بوش نموذجًا للتنبؤ الذي قام به المؤرخ البريطاني الأمريكي بول كينيدي Paul Kennedy في عام 1982، وذلك للتوسع العسكري والاقتصادي لدولة لم تعِ ماهية حدود سلطتها.

يرجـع انتخاب بـاراك أوباما جزئيًا إلى أنـه أثار الآمال بداخـل عقول الناخبين الأمريكيين والمجتمع العالمـي، وذلك عندما أوضح جليًا أنه يتفهم تلك التحديات، وأنه يسـتطيع تغيير طريقة تعامل الولايات المتحدة مع تلك التحديات. تبنى العديد

(1) تـوني موريسـون: (18 فبرايـر 1931) روائيـة أمريكيـة ـ أفريقيـة، فـازت بجائزة نوبـل في الأدب لعام 1993عن مجمل أعمالها، وجائزة بوليتزر عن رواية «المحبوبة Beloved». (المترجمة)

(2) بـول كروجمـان: (28 فبرايـر 1953) اقتصـادي أمريكـي، فـاز بجائـزة نوبـل للاقتصـاد عـام 2008. (المترجمة)

من الأمريكيين من مختلف الفئات والأعمار رسـالته للتغيير، لقد بينت تلك الرسـالة مـن خلال الشـعور بالتحـول والتجديد في الولايـات المتحدة الأمريكيـة، لقد جدد الحماس لرسـالة أوباما النقاش السـياسي في أمريكا، وأعطى قوة دفع جديدة للبحث عن حلول جديدة.

يقـول أوباما إن الطريق سـيكون طويـلًا وصعبًا؛ حيث سـيواجه الرئيس الجديد أزمة الإعسـار المالي والتـي عانت منها معظـم القاعدة الصناعيـة الأمريكية، مع حالة إفـلاس الإدارة العامـة وفي وجـود وزارة خزانة فارغة ومثقلة بالديـون والتي تعرض أمـلًا ضعيفًـا جدًّا في وجود تمويل إضافي للبرامج الجديدة، كل ذلك في ظل انهيار فعلي للمصداقية الأمريكية في جميع أنحاء العالم.

مـن غـير المرجـح، أن يكـون قد واجـه أى رئيـس جديد هـذا الكـم الهائل من التحديات. على السـطح، يعطي باراك أوباما القليل من الأدلة على أنه يمتلك الخبرة أو أفـكارًا محـددة للتعامل مع تلـك التحديات، لقد تم انتخابه على أسـاس من الثقة بالنفـس والتغيـير، التغيـير لـن يكون في النظـام الأمريكـي ولكن سـيكون في كيفية إدارته، سـيكون التغيير في مفهوم اسـترجاع الأمانة والكفـاءة للحكومة ولبناء الثقة للمسؤولين المنتخبين.

قبل توليه ذلك المنصب، لم يفصح أوباما عن كيف ينوي أن يحقق هذا التغيير أو حتى عن ما هو جوهر سياساته، لم يكد أن ينتقل إلى البيت الأبيض حتى تعالت الأصوات في الداخل والخارج محذرة من خيبة الأمل الكامنة وراء خطاب أوباما البلاغي.

بالنسـبة للمراقبين الأجانب على وجه الخصـوص، كان من الهام بمكان ألَّا يتم الخلـط بين خطاب أوباما البلاغي وبـين منهجه الإداري والذي تم إيضاحه بالفعل؛ حيث جاء حاسـمًا وطموحًا، أما بالنسـبة للدول الأوروبية، نجد أن القادة السياسين يتفادون الخطب الرنانة، وذلك بسبب تجارب الناخبين السابقة، والتي أصيبوا خلالها

بخيبة أمل مأساوية وتعلموا من خلالها أن النداءات العاطفية قد تؤدي إلى الغوغائية، فمن الأفضل أن تقدم عروض التغيير في شكل وعود حتى يمكن الحفاظ على ثبات النظام القائم.

فى الولايات المتحدة الأمريكية، يتم استخدام أسلوب الدوافع من أجل الحصول على التزام عاطفي نحو الأفعال اللازمة للتعامل مع المشاكل الملحة. وبالرغم من قوة الولايات المتحدة الأمريكية، فإن التوازن القومي لا يزال هشًّا إلى حد مدهش، فهي تعتمد إلى حد كبير على التوسع في التوازن الداخلي بعناية مدعومة بإعادة التأكيد المتكرر لأهدافنا ومعتقداتنا.

نحن مجتمع غير كامل النمو بشكل دائم؛ حيث نعيش باستمرار في حالة بناء وإعادة بناء، يؤدي هذا الموقف إلى قلق متواصل حول مدى صلاحية أهدافنا وأغراضنا . إن فهم لماذا ينادي دائمًا الزعماء بالروح الوطنية، الرؤية، العقيدة (الدين)، يعني فهم أحد الأوجه الكامنة وراء كيفية عمل الولايات المتحدة. على الرغم من كل تلك القوة والثقة، فإن الأمريكين غالبًا ما يشعرون بأنهم مثل راكبي الدراجات، في حاجة مستمرة للحركة حتى يتأكدوا من أن مجتماعتهم ستتمكن من النجاة والبقاء.

وكما صاغها دي توكويفييل De Tocqueville «هذا التغير الدائم الحادث فى الولايات المتحدة، وتلك التقلبات المتكررة للثورات، مصحوبة بتقلبات غير منظورة في الثروات العامة والخاصة، تصب في مصلحة الحفاظ على عقول المواطنين في حالة من الهياج المحموم المستمر، والتي تجعل مشاركتهم مثيرة للعجب وتبقيهم في حالة من الإثارة والحماس فوق المستوى العادي للبشرية».

«تمر حياة الأمريكي بأكملها على شكل لعبة حظ، أزمة نووية (مصيرية) أو معركة». تحت تلك الظروف نجد أن المقاربات الحكيمة ليست فقط شائعة، بل أيضًا عقد أساسي للحياة السياسية الأمريكية. لتصبح صاحب رؤية وبصيرة، لايعنى

بالضرورة أن الرئيس شخص حالم أو أنه لايستطيع أن يكون حازمًا على المستوى السياسي. ولكن القدرة على توصيل تلك الرؤية أمر ضروري للحفاظ على المجتمع في مساره الصحيح. لقد اكتشف جورج بوش الأب هذا الأمر بالطريقة الصعبة. متسائلًا لماذا خسر المعركة الانتخابية لصالح بيل كليتنون فى عام 1992، استنتج أن ذلك يرجع إلى عدم إعطائه الاهتمام الكافي فيما يتعلق «بجزئية الرؤية».

أهم الدروس المتعلقة بتلك الرؤية الأمريكية جاء في هلسنكي Helsinki (فنلندا)؛ حيث كنت أتفاوض حول الثغرات المتعلقة بالأقليات، والتي ظهرت في إعلان مؤتمر القمة Summit Declaration في مؤتمر منظمة الأمن والتعاون الأوروبي OSCE في عام 1992، في تلك الفترة، كانت هناك عشرات الدول الشيوعية سابقًا تندمج فى عملية الديمقراطية. وقد وجهت الاهتمامات لاجتماعات هذه القمة بالبحث عن قوانين وقواعد جديدة للعمل على التعاون فى أوروبا الجديدة.

لقد أمضيت ساعات في مناقشة مشاكل القوميات والأقليات مع وفود الدول حديثة العهد بالديمقراطية من منطقة وسط وغرب أوروبا. لقد أرادوا تأمين الحماية للأقليات الوطنية والتي قدرت بالعشرات، وأتذكر بالتحديد وزيرة شؤون الأقليات في دولة ليتوانيا Lithuania، والتي أخبرتني أنه يوجد دولتها أكثر من 40 مجموعة عرقية مسجلة. عارضت وجود مثل تلك الحماية مستخدمًا في ذلك منطقة الأمريكي القائل بأن أفضل طريقة لضمان تناول جيد لموضوع الأقليات، هو من خلال إعطائهم حق المواطنة الكاملة تمامًا مثل حقنا فى الولايات المتحدة.

إستمرت المناقشة لأكثر من أسبوع قبل أن أقبل بأن وعينا الأمريكي لا يمكن أن يطبق في دول نجت من قرون من الصرعات الدينية، والطائفية، والعرقية. لم تصدق تلك المجتمعات الشعار الأمريكي القائل «من العديد، نشكل واحدًا صحيحًا».

«من العديد، نشكل واحدًا صحيحًا»

وآمنوا عوضًا عنه بأن الوحدة تأتي فقط عند الاعتراف بوجود الكثيرين. هذا هو المثل الأعلى الثوري، حيث يمكن دمج المواطنين ذوي الأصول والمعتقدات المختلفة من خلال مجتمع واحد متناغم، والذي يشكل بدوره أساس الهوية الأمريكية. يعتقد الأمريكيون بأن الأشخاص ذوي الأعراق والأديان المختلفة يمكن لهم أن يتوافقوا مع المجتمع إذا بذلوا قصارى جهدهم في المحاولة أمنوا بدولتهم. إن تعريف «الأمركة Americanism» يخفف عبء العديد من المشكلات التى قد يخلقها مجتمع كهذا، كذلك يضيف قوة ومصداقية للرواية الأمريكية. وهذا هو السبب في وجود العديد من الطوائف والجماعات الدينية، هذا هو السبب وراء لعب كل من الآلة والدين دورًا بهذه الأهمية، كذلك السبب وراء لماذا رواية القصة هو جزء متكامل من كتابة التاريخ الأمريكي، وهو سبب هام جدًّا وراء نجاح باراك أوباما.

إن وحدتنا القومية مبنية على أساس الهوية المشتركة للمجتمع الجديد الذى قد بنيناه ليس على أساس سابقة تاريخية، وللحفاظ على بقاء المجتمع الأمريكي، يجب عليه أن ينظر للأمام دائمًا، يجب تسجيل وإعادة كتابة التاريخ والإنجازات التي تم تحقيقها فيما مضى طبقًا لاحتياجات كل جيل.

غالبًا ما يتم التخلص من الأجانب من خلال عرض الرموز الوطنية والشعارات الوطنية والتي تنتشر في كل مكان والتي من خلالها تتحدد معالم الحياة الأمريكية. خلال سنوات حكم بوش بالتحديد، نجد انتشار الإعلام والفرق والأغاني الوطنية والتي على ما يبدو رمزت إلى أمريكا العدوانية، متبلدة المشاعر.

ولكن بالأخذ في الاعتبار انعكاس توني موريسون على الشخصية الأمريكية، نجد أن موضوع الهجر والعزلة يتكرر بشكل منتظم في كتابها. لقد قالت «هذا هو انعكاس التاريخ الأمريكي بأكمله، والذي حدد معالمه تجربة الهجرة، والانتقال إلى الوطن الأم هناك ذلك الشعور بالعزلة والوحدة العميقة والذي يوجد في الأدب والحياة الأمريكية، وكأنه قد انتزع شيئًا ما».

إن الافتقار إلى الحس المجتمعي الذي قامت ببنائه معظم الدول على مر قرون من خلال هياكل المجتمعات المحلية، خلق الأمريكون ما قد نسميه اليوم بـ «المجتمع الافتراضي»،

وذلك من خلال رواية وإعادة رواية ملحمتهم الوطنية. ذلك السرد المتصل يؤخر نفس الحس بالتوجه والذى اشتقه الفرنسيون من إنجازاتهم الثقافية، أو الأفريقيون من قبائلهم وقراهم. إن الخطاب الرؤيوي البلاغي ليس تحولًا عن التفكير الجاد، ولكنه بالأحرى الركيزة الأساسية للوحدة الوطنية.

إن التكرار المستمر للموضوعات الأساسية، تكريم الأبطال والإشارة إلى الله والتوجيه الإلهي، هي العناصر المحورية للملحمة الوطنية، والتي يبدأ الأطفال في تعلمها في سنوات عمرهم الأولى، ويتم الاقتباس من التاريخ لنسج قصص للأطفال والبالغين.

إن التنغم الكامن يتيح للأمريكيين برواية قصتهم الوطنية بطريقة أكثر انسجامًا أكثر من العديد من المجتمعات الأقدم؛ حيث يتم تهذيب فصول القصة، وغالبًا ما تكون النهاية سعيدة، حتى الأشرار يجدون طريقهم للتوبة . تلك الطريقة الهوليوودية في رواية التاريخ غالبًا ما يتم انتقادها، حيث تقدم الصورة العالمية خالية من أي عيوب أو تناقضات بطريقة تخدم الغرض في النهاية. ولايحدث هذا فقط فى أمريكا، بل استرجع الأثر الدرامي للمسلسل الأمريكي التليفزيوني عن الهولوكوست Holocaust وذلك من خلال تقديم الرسالة الإنسانية الأساسية من تقديم حادث المحرقة في قالب قصصي، أيقظ هذا الضمير السياسي في ألمانيا بطريقة لم تكن متوقعة.

إن دورالرئيس أساسي هنا من أجل تجميع فصول الرواية. إن جاذبية أوباما هي صدى لوجود أبطال رئاسيين عظماء بداية من جورج واشنطن George Washington، إبراهام لينكولن وصولًا إلى العصر الحديث مثل فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt، جون. إف. كينيدي John F. Kennedy ورونالد ريجان Ronald Regan.

وشدد كل منهم بطريقته الخاصة على الاعتزاز والفخر الذى يحمله الأفراد الأمريكيون من خلال قدرتهم الشخصية على للتأثير على مستقبلهم ومستقبل بلدهم . كل من روزفلت وريجان واجه مشاكل اقتصادية بالغة الصعوبة . إن شعار أوباما » تغيير يمكننا الإيمان به«

والـذي يقارب شـعار روزفلـت «الصفقة الجديدة» أو شـعار ريجان » إنه صبـاح يوم جديد في أمريكا» ونجد أن تلك الشعارات رغم بسطاتها فإنها لعبت دورًا قويًا فى تعزيز الحس الأمريكي بالاعتزاز والاعتماد على النفس.

على الرغم من أن مؤسسـى الجمهورية رفضوا بشدة إقامة النظام الملكى الذى يذكرهم بالنظـام الـذى أطاحوا به، إلا فإنهم نشـؤوا فى ظـلال التقاليد البريطانية . لقد اسـتوعبوا أن التوافـق الوطنـى يعـزز من قوتـه بوجود رئيس قوي ومسـتقل حيـث لايعتمد عـلى التأييد والدعم البرلماني.

وجـاءت صلاحيات الرئيس مقيدة للعمل على عدم تحوله إلى عاهل مطلق الصلاحيات، وهذا الأمر الذى كرهوه من قبل، ولكن دور المسـتقل كرئيس للحكومة والدولة يعطيه سـلطة أخلاقية، وسياسية، لا يوجد ما يماثلها حتى يومنا هذا.

وهكذا، فإن أمريكا عندما تنظر إلى تحديد أهدافها وحل مشكلاتها، فإنها تنظر إلى رئيسها. إن الحقـب التاريخيـة من خـلال عدد رئاسـة الإدارات المختلفة، إن المراحل التأسيسـية سـواء الاقتصاديـة أو السياسـية غالبًـا ما تحمل اسـم الرئيس الذي أسسـها، وعند الذهـاب للإدلاء بالأصـوات في الانتخابـات لاختيار من يخلـف هذا المنصب الرفيع، فـإن الناخبين الأمريكيين غالبًا ما يبحثون عن قدرة المرشح على تحقيق الصورة الموجودة في عقولهم على أرض الواقع فيما يتعلق بالسنوات القادمة. جادل البعض بأن جاذبية أوباما غالبًا هي رد فعل لفشل إدارة بوش، ولكن تكمن جاذبية أوباما الحقيقية في قدرته على إرضاء حاجة الشـعب الأمريكي في الحصول على التوجيه الرياسى لكتابة الفصل الناجح في الرواية القومية.

إن حمـاس الـولاء الشـخصى الذى وصل إليـه أوباما من الناخبـين، لا يوحى فقط برفض قبـول رئيس فاشـل، بل أيضًـا بقدرة أوباما على الوصـول إلى إعادة الترتيب الأساسـية للحياة السياسية الأمريكية، والتي لم يقم باختراعها ولكنها جارية منذ فترة من الوقت.

بعد أن حضرت خطاب أوباما في برلين، كتبت مقالة قصيرة لجريدة واشنطون بوست Washington Post، والتي وضعت فيها انطباعاتى، لقد قلت بأنه من الواضح لجميع من حضروا هذا التجمع أن هناك شيئًا جديدًا يحدث ولكنه لم يتضح بعد. لقد نجح أوباما لأنه في حد ذاته يجسد التحول النامي للحياة السياسية الأمريكية، ولكن هذا الأمر لم يكن واضحًا في هذا الوقت وما زالت غير واضح على الأرجح. يستطيع الناخبون سماع آمالهم تتردد من خلال كلماته. لقد عرف «التطبيع الجديد» في أمريكا وخلق أفكار سياسية جديدة حيوية والتي تم اعتناقها فى نهاية المطاف.

إن الآثار المترتبة على إعادة الترتيب بعيدة المدى للحياة السياسية الأمريكية لم يتم استيعابها بالكامل بعد، سواء داخل الولايات المتحدة أو على المستوى الخارجى. ولكن التجارب تخبرنا بأن آثار زعزعة الاستقرار التي تحدثها هذه الاضطرابات السياسية في أمريكا عادة ما تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم. عند متابعة أوباما أثناء العمل، سيكون من الهام البحث عن دليل لتلك الحقبة السياسية الجديدة.

لقد تزعزع النظام العالمي مرتين خلال الخمسين عامًا الماضية، وذلك بسبب حركات سياسية متطرفة انبثقت من داخل الولايات المتحدة. الأولى، التمرد الطلابي في جامعة كاليفورنيا والتي نتج عنه ثقافة الاحتجاج الشبابي، والتى يمكن الشعور بآثارها حتى يومنا هذا. الثانية، نهضة حركة المحافظين والتي بدأت مع رد فعل باري جولد ووترز Barry Gold Waters، ضد حالة الرفاهية، وحركة الحقوق المدنية في حقبة الستينات ووصلت ذروتها مع حكم رونالد ريجان وسقطت مع حكم جورج بوش.

وكان لهاتين الحركتين أصولهما في المواجهات الحادثة في الولايات المتحدة وأوروبا، والتي ظهرت من حروب الكساد الاقتصادى في القرن العشرين. لقد مثلوا جوهر الثقافات الدائرة بخصوص التعريف الأساسى للمجتمع الغربي والذي ظهر من قلب تلك الكوارث.

بعد مراجعة الأحداث، يمكننا أن نرى بوضوح أكثر لماذا «دولة أمريكا الأمبريالية» الخاصة ببوش لم تحظ بالفرصة قط لترسم معالم أمريكا في المستقبل. لم يكن بوش يمثل عهدًا

جديـدًا لأمريكا محافظة، وصغيرة، وشـبيهة بالكنيسـة. بل الأحرى كان يمثـل الفصل الأخير المأسـاوي لفكـرة القطبيـة، والتـي أثارتها الحـروب الثقافيـة التي أفرزتها سـنوات السـتينيات والسـبعينيات والثمانينيـات المضطربة. ظهر جيل جديد من الناخبـين، لا يهتم بحروبه الصليبية مـن أجـل الديمقراطيـة أو الهجوم على الحكومـة، لم يحملـوا بداخلهم غضبًا، واهتموا بشـكل ضعيف بالأيديولوجيا، لقد أرادوا رئيسًـا يسـتطيع إرشـادهم خلال التحديات التي يواجهها في القرن الحادي والعشرين.

سـتصيب المؤرخين الحيرة بضع سـنوات، متسـألين لماذا حادت إدارة بوش بهذا الشـكل الحـاد عن السياسـات التي يوافقها بالإجمـاع منذ إدارة بوش الأب ومن بعـده كلينتون . كما لو كانت قد تجمعت سموم المواجهات للأربعين عامًا الماضية في الوعي المشترك لمستشاريه، والتي اجتاحت إلى فوزة أخيرة لتنفجر خارج الروح الأمريكية مطهرة إياها في نهاية المطاف.

إن أسـاس إدارة بوش هو الغضب، غضب متأصل في سياسـة المواجهة والتي بدأت أثناء حقبة فيتنام Vietnam وثار في السـتينيات. بالنسـبة لمحافظي بـوش الجدد، كان النصر أهم من التقـدم أو التسـامح. إن أحداث الحادي عشر من سـبتمبر جاءت لتأكـد دومًا بأن نهاية الحرب البـاردة تمثـل تهديدًا أكثر منهـا تحريرًا. إن التغـيرات الاجتماعية الحادثة نتيجـة الهجرة، وحركة الحقوق المدنية، والمطالبة بحقوق الشواذ، لم ينظر إليها على أنها الأساس لمستقبل خلاق، بل هي بالأحرى مؤشر على انحدار القيم التقليدية الأمريكية.

لقـد فاز بوش بولايتين لأنه اسـتخدم تهديـد الإرهاب كذريعة لإصابة الأمـة كلها تقريبًا بالشلل خوفًا.

لقد حاول بوش وإداراته إعادة كتابة الرواية الأمريكية، ليس على أساس الأمل والتعاون، بـل على أسـاس الغضب، والخـوف، والانتقام . لقد أعـادوا الهوية الأمريكيـة إلى الأيام الأولى للاسـتعمار، حيث أديرت مسـتعمرات مثل مسـتعمرة خليج ماساتشوسـتس بسـلطة كهنوتية مصممة على الدفاع عن دينها ضد جميع التهديدات الخارجية.

ولكـن نجـد أن أمريكا في بدايات القـرن الحادي والعشرين لديها أمور قليلة مشـتركة مع الرؤى الإسـتراتيجية لبوش. في ضوء التغييرات الجذرية الجارية على مسـتوى القاعدة الشعبية للمجتمع. كان من المسـتحيل حتى بالنسـبة لكارل روف Karl Rove أن ينسج قصة لها علاقة بالجيل الأمريكى القادم.

إن قطبيـة الولايـات المتحدة ما بين الولايـات «الحمراء» و«الزرقـاء» في الانتخابات التي أجريت في المرتين الأخريتين. كانت مؤشرًا لما هو آتٍ. اعتقد كثير من المراقبين أن «تقسيم الأحمر ـ الأزرق» يـدل عـلى أن أمريكا في طريقها نحو الاقتسـام، ولكن عند فحـص نتائج التصويت بدقـة أكـبر، نجد أن النتائج توحي بعكس ذلك . ما بين عامـي 2000، 2008 بدأت العديد من الولايـات الريفية الغربية والجنوبية والتي تمسـكت بانتخابها للحـزب الجمهوري لفترة طويلة بالانتقال إلى الحزب الديمقراطي. لم يحقق الجمهوريون أي مكاسب مناظرة في المناطق الحضرية الاكثر اختلاطًا في البلاد.

كل جزء من الدولة، والذي أصبح يحتوي على أعراق مختلفة، أصغر وأكثر تقدمًا تكنولوجيًا، هو بلد أوباما، مثل الولايات الشـمالية، فيرجينيـا Virginia ونورث كارولينا North Carolina والولايـات الغربية مثل كولورادو Colorado، نيو مكسـيكو New Mxicoé ونيفادا Nevada والتي بدأت مراكز التكنولوجيا تظهر فيها، وهو الأمر الذي لم يهتم به الجمهوريون.

بعـد مرور أربعـين عامًا، تغـير العالم بشـكل كبير، وانكمشـت قاعـدة الغاضبين الخاصة بالحزب الجمهوري بشكل منتظم. نحن في نهاية عصر هيمنة الحزب الجمهوري على الحكومة. كان الجمهوريون يدافعون عن جزء تقليدي متضائل من الشعب الأمريكي، والذي تم المبالغة في قياس حجم قوته في انتخابات 2004، وذلك من خلال المخاوف المتصاعدة من الهجوم على مركز التجارة.

عـلى ما يبدو أن أوباما استشـعر وجود اسـتعداد واسـع النطاق بين الناخبـين الأمريكيين للتخـلي عن الغضب والمواجهة للصرعات الناتجة بعد الحرب. إن هدوءه، ومقاربته لبناء إجماع

لـلآراء. عكس حسًّـا توازنيًّا والذي يسـمح لنتائج الحكم لتصبح أكثر أهمية من الفلسـفة التي ترتكـز عليهـا. إن افتقـاره إلى الحماية الأيدولوجية مناسـب تمامًـا، تلك الحقبة والتـي تفتقر إلى اليقين الذي صاحب السنوات التالية للحرب.

أثناء الحملة الأولية، سـخرت هيلاري كلينتون من وصف أوباما لنفسـه أنه كسطح فارغ يعكس رغبات وأفكار الناخب التي يريده أن يتبعها. ولكن في النهاية، جاءت السيدة كلينتون التي تتصف بتعنتها وعدوانيتها الشـديدة، والتي لا تناسـب المناخ السـياسي للولايات المتحدة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين.

إن اسـتعداد أوباما للاسـتماع والاسـتيعاب وتمثيل آمـال ومخاوف أمته. لهو إحدى سـماته المميزة، حتى إن مستشـاريه ينصحوه بأن يتصرف بشـكل أقوى عندما يتعرض للدفع من قبل معارضيه، ولكن أوباما التزم باسـتخدامه المهارات للانتقادات غير المباشرة الموجهة إليه، بدلا من الاعتداء بغضب. بعد أربعين عامًا من الحروب الثقافية، كان الأمريكيون أكثر من سـعداء لاستماع الرئيس لهم بدلًا من أن يملى عليهم أفعالهم.

إن «المعيار الجديد New Normal» اليوم في أمريكا هو أقل أيدولوجية وأكثر انتشارًا. لقد تم وصفه مؤخرًا في جريدة لوس أنجلوس تايمز Los Angeles Times بأنها مدن بدون أغلبية عرقية، حيث إن اللغة الإنجليزية ليست هي اللغة الوحيدة المهمة، في وجود صناعات لم توجد قبل عشر سـنوات في ظل وجود ما يسـمى خليط العائلات Patch Work Families وذلك في وجود أكثر من مجموعة من الآباء والأمهات.

ولكن «المعيار الجديد» تضمن أيضًا صناعات متدهورة، والتي يجب استبدالها أو تحديثها، كذلـك وجود حالـة تهديد دوليـة، والتدهور الكبير في ثقـة المواطنين فى الحكومة والمسـؤولين المنتخبين . الإفلاس السياسى واسع الانتشار مثله مثل حالة الإفلاس المالي.

صمويل هنتنجتون، الباحث الأمريكي المعروف والذي صاغ مصطلح «صراع الحضارات Clash Of Cultures»، وفر توضيح مثير للتحديات التي أثارتها التغيرات السريعة للمجتمع الأمريكي فى كتابه الأخير، والذي أكمله قبيل وفاته في ديسمبر 2008 بوقت قصير.

لقد جادل بأنه في العقيدة الأمريكية تآكل مايسمى بـ «تميز الثقافة الإنجلو-بروتستنانية» والتي أسسها آباؤنا، والتي تتسبب بذلك في تفويض أسس المجتمع الأمريكي. رأى هنتنجتون ثلاثة أشكال مستقبلية للولايات المتحدة، وذلك على العكس من خلفية التغيرات الثورية الحادثة فى العالم، ألا وهي إما أن تكون الولايات المتحدة عالمية الإمبراطورية أو وطنية.

إن أمريكا العالمية من شأنها أن تتحول بفعل العولمة إلى هوية جديدة، إما أمريكا الإمبريالية أو الإمبراطورية الأمريكية، فهي كما عرفها الناس في عهد جورج بوش بأمريكا جورج بوش.

إن أمريكا الوطنية لن تنسحب من العالم، ولكنها ستظل طموحاتها وتركيزها أكثر على المحافظة على طريقتها الخاصة فى الحياة.

إن الجدل والقلق الدائر حول تلك الثلاثة احتمالات لمستقبل أمريكا وآثارها، قد حلت محل الحروب الثقافية التي دارات في الستينيات والسبعينيات كمحددات لمحتوى الدولة الأمريكية في يومنا هذا.

لقد فشل كلٌّ من هيلاري كلينتون وجون ماكين John McCain في التواصل مع الناخبين، لأنهم مهما نأوا بأنفسهم عن بوش، إلا أنهم ما زالوا يعرفون من خلال المؤسسة السياسية التقليدية . لقد رددت مناقشتهم صدى الصراعات الماضية، ورفضوا رؤى أوباما على أنه سطحية وساذجة. ولكن كان لديهم القليل ليقولوه حول الخيارات الكامنة في بدائل هنتنغتون الثلاث المستقبلية.

إن الملايين التي تم تعبئتها من أجل حملة أوباما الانتخابية، يبدو أنها فهمت بوضوح ما كان يتحدث عنه . لا يمكن إرجاع حماسهم فقط إلى رفض فشل رئيس. لم يرد أيضًا أوباما ببساطة أن يحسن الحكم عن سابقه جورج بوش، بل أرادوا منه أن يغير طريقة عمل الحكومة جذريًا.

لقد استفاد أوباما من نوع جديد من النشاط السياسي والذي انتشر في أمريكا، مستندًا إلى عدم الرضا المتزايد عن سلوكيات كل من النخبة السياسية والاقتصادية . لقد وعد بإيجابية أمينة وصادقة وبرجوع السلوك الأخلاقي والمصداقية إلى الحياة السياسية الأمريكية.

لقد فقدت الإمبراطورية الأمريكية مصداقيتها بسبب جورج بوش وحرب العراق. أما أمريكا الوطنية ستظل ذات أفضلية قوية بين المحافظين والطبقة العاملة، وهم الأمريكيون الذين يؤمنون بأن اقتصادهم قد تدمر بفعل العولمة . أما أمريكا العالمية تجد معظم أتباعها وسط النخبة.

بالنسبة للمهاجرين الجدد أيًا كان أصلهم العرقي، فإنهم يميلون إلى تفضيل مسار العمل الوطني، على الرغم من مساعدتهم لجعل أمريكا أكثر عالمية.

يواجه باراك أوباما مهمة صعبة للعثور على توليفة عملية من بين عناصر تلك الاحتمالات الثلاث المستقبلية. إن وظيفة المواءمة الحقيقية بين الاحتياطات المعقدة في كل من الخيارات، سوف يذهب إلى أبعد من الدعوة البسيطة للصدق والتغيير. وفي نفس الوقت، نجد أن رسالة أوباما السياسية تتضمن عناصر من الاحتمالات الثلاث لهنتنغتون. هو بنفسه قد حذر بأن التغيير لن يأتي بسهولة، ولكن يبدو أن الأغلبية العظمى من الأمريكيين يؤمنون بأنه يمكنه القيام بذلك.

إن ما يجعل شخصية أوباما جذابة لتلك الدرجة لأنواع كثيرة من الأشخاص، هي قدرته على تجميع خبرات الأشخاص من ذوي الأصول والاهتمامات المختلفة والتعبير عنهم من خلال عبارات مفهومة للناخبين أيًا كانت توجهاتهم السياسية.

هو صاحب رؤية ومقاتل شوارع في آنٍ واحد، بينما العديد من أنصاره ومؤيديه اعتقدوا بأنه الرجل الوطني الكلاسيكي، إلا أن اجتماعاته السياسية وتصريحاته السياسية الأولى كشفت عن سياسي صارم ومنهجي يكاد ينتمي إلى المحافظين الذين يفكرون بشكل كبير على أساس وطني. إن اقتراحاته الاقتصادية وتعليقاته على جورجيا Gerogia، وأفغانستان Afghanstan والشرق الأوسط، لا تدع مجالًا للشك بأن يعتزم استخدام القوة الرئاسية بفعالية لتحقيق أهدافه.

إن الاستماع إلى الأحاديث الأمريكية عبر الراديو في تلك الأيام، سنجد أننا نستمع إلى سلسلة من الاعترافات من الجمهوريين الذين أعطوا أصواتهم في الانتخابات لأوباما. إن قس أوباما الأسود اللون الموقر «جيراميا رايت Jeremiah Wright»، قد بدا متطرفًا بعض الشيء بالنسبة لبعض الناخبين، ولكن فهم بعضهم حاجة أوباما الفطرية للبحث عن جذوره من خلال هذا القس.

إن الجيل الجديد من الناخبين، سواء كانوا مهاجرين، وشبابًا، أو أقليات، والذي استطاع أوباما أن يقنعهم بأن يعطوه أصواتهم في الانتخابات، يبحثون أيضًا عن نوع مختلف من الهوية الأمريكية . هم طموحون، واقعيون وغير أيديولوجيين. إن رسالة أوباما للتغيير حقيقية وليس تغيير النظام، ولكن تحسين طريقة تسيير شؤون الدولة الاقتصادية والعامة . لقد شعروا، وذلك بكلمات هنتنغتون، بقوة «وعد الاختلاف» في المجتمع الأمريكي والتي تأتي عندما لا تتماشى الأفكار والمؤسسات مع بعضها البعض.

في الحقيقة، أن أكثر الأمور تطرفًا بخصوص حركة أوباما، أنها ليست متطرفة على الإطلاق، بل إنها في حقيقة الأمر ليست حتى «حركة» بالمعنى المتعارف عليه للكلمة.

لقد حفز أوباما الناخبين من خلال رسالة إلهام إيجابي للمساعدة في استيعاب الثقة والتسامح والكفاءة، والتي فقدتها الحياة السياسية الأمريكية خلال الحروب الثقافية للقرن العشرين.

لقد جعل حكومته تبدو مهمة وجديدة، لقد عكس مؤيدوه وأنصاره مفهوم «المعيار الجديد» في ظل دولة تغيرت بشكل كبير بفعل الهجرة والتكنولوجيا والعولمة في الخمسة والعشرين عامًا الماضية. إنهم غاضبون من سياسين كبار وكبار رجال الأعمال الذين سمحوا لبلادهم بالتخلف في التعامل مع التغيرات الأمريكية الهائلة التي يواجهونها في حياتهم اليومية.

هـم يريدون التغيير، التغيير الإيجابي من أجل إحيـاء الروح الأمريكية، إن أهدافهـم بصفة أساسية ذات طبيعة محافظة، وطرقهم متفتحة وحرة ومتسامحة.

إن الزعماء السياسـيين العظام غالبًا ما يمثلون المصابيح، إن باراك أوباما أصبح رئيسًـا من خلال كونه المصباح المثالي لأمريكا القرن الحادي والعشرين، فهو يشـبه رونالد ريجان أكثر من كونه يشبه بيل كلينتون.

إن أوباما مثال حي للمزيج الشبه مثالي للرواية الأمريكية في الألفية الجديدة، حيث الوافد من أفريقيا، الوالدة ناشـطة سياسـية بيضاء . لقد ترعرع في قارات مختلفة، أحيانًا يعيشـون على الإعانات الحكومية ولكنه تم صقله في واحدة من أرقى الجامعات في الدولة. لقد نضج سياسيًّا في مناخ عمل التنظيم المجتمعي الخشن والمضطرب في شيكاغو.

لقد أكد أسلوب أوباما السياسي تلك القصة كعنصر موحد للتنوع الأمريكي، حيث انتقل بالروايـة الأمريكيـة إلى خطوة أبعـد من خلال مواكبتهـا لأجهزة الحاسـب الآلي، والإنترنت، والمجتمعـات الاجتماعيـة عـلى الإنترنـت، كذلك كيَّـف خبرته كمنظـم مجتمعـي لتوائم عصر تكنولوجيـا المعلومـات. لقد جند فريقًا من الخـبراء المتخصصين في الحاسـبات الآلية وصناعة المعلومات لبناء شبكة نشطة من الرسائل، والمتطوعين والمجتمعات من جميع الأنواع.

كل تلك التكنولوجيا بلا فائدة، في نهاية المطاف، إن صعود باراك أوباما على المسرح الرئاسي عبارة عن توليفة من خلفيته وإتقانه للغة السياسية الأمريكية، مهمة لاحتياجات الجيل الأمريكي الجديد وإتقانه للتكنولوجيا. إنه المثال المثالى للتوافق في الآراء في القرن الأمريكي الجديد.

الفصل السابع

أمة الرب

عندمـا فاز جـورج دبليو بـوش George W Bush في عـام 2000 بأقـل أغلبية ممكنة على منافسـه الديمقراطـي آل جور Al Gore، همس أحد أعضاء لجنة الأمـم المتحدة في برج بريدلي Bradely في بروسـل Brüssel: «لقـد عرفنـا أن الرب أمريكي ـ والآن قـد دخل أيضًا الحزب الجمهوري» لأن جورج دبليو بوش كان يعتبر المسيحي الذي ولد من جديد ليندد بالإجهاض وأبحـاث الخلايـا الجذعية والاتصال الجنـسي قبل الـزواج والمثلية، وكان يعتـبر أمريكا الأمل الأخير الأفضل للإنسانية Last best Hope.

لقـد تضمن ذلـك المبدأ الأسـاسي الذي يرجع إلى عـصر الرواد الحق في حيازة الأسـلحة الخاصة، والحق في عقوبة الإعدام، وتقسيم العالم إلى حلفاء ودول مارقة، فأخذت أوروبا تنظر بمشاعر مختلطة إلى مقياس للقيم لم يعد له شبيه في العالم القديم، وساد الذعر من سيطرة وشيكة من جانب الأطلنطي.

دائمًا عندما كانت تظهر أمريكا قوية وواثقة بنفسـها كانت أوروبا تظهر الاسـتياء والحقد، فعندما خطب رونالد ريجان بمناسبة الفوز الأمريكي في الألعاب الأوليمبية في لوس أنجلوس Los Angeles قائـلًا:» دعونـا نقلد أبطالنا الأوليمبيين، ولا نسـعى إلا إلى الذهب» هنا ارتاب الأوروبيـون أعليهـم فقط أن يكتفـوا بالفضة والبرونز وبمقعد في مدرجات السياسـة العالمية،

وكان رأي الأوروبيين في ريجان الذي لا يؤمن إلا بالسلام من خلال إظهار القوة Peace through strength أنه مادي وعسكري للغاية.

من خلال بوش قابل العالم رئيسًا أمريكيًّا يجمع بين الاثنين الأخلاقية والمادية، فقد كان يبدو كمادة خام تعمل على تأمين سيطرة أمريكا، وكان يشعر أنه موكل من قبل الرب ليجعل أمريكا حصينة منيعة، إن ذلك المزيج من الأنانية والثقة في الله أثار في أوروبا نوعًا من عدم الفهم وقلة الحيلة، فمن الواضح أن العالم القديم غير قادر على الاعتراف بأمريكا كقوة أعظم، لكنه يعتبرها أمة كغيرها من الأمم.

بعد فوز مواطن تكساس في الانتخابات بعام واحد، تحول ذلك الذعر إلى شفقة وتأييد، فقد تضامن المستشار الاتحادي الديمقراطي الاشتراكي (جرهارد شرودر Gerhard Schröder) والمجلة الفرنسية اليسارية التحررية (لو موند Le Monde) مع بوش تضامنًا مطلقًا: «اليوم نحن جميعًا امريكيون» كان ذلك في اليوم التالي لهجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، فقد حصد الهجوم على البرجين التوأمين Twin Towers أكبر قدر ممكن من التعاطف تجاه أمريكا في تاريخ الإحصائيات، وتمتع جورج دبليو بوش بالتأييد الدولي، وأعلن حلف الناتو NATO وقتها لأول مرة في تاريخه حالة التحالف: «الكل من أجل الواحد» وقال المستشار الاتحادي شرودر: «إننا اليوم على الجانب الصحيح من التاريخ».

قالت الخبيرة في الشؤون الأوروبية إليزابيث بوند Elisabeth Pond مذكرة ومنذرة: «لقد حَفَظْنَا تعاطفكم وتأييدكم من أن نبدي قوتنا بسبب تلك التجربة الجديدة، وتراجعنا إلى القلعة الأمريكية، إنكم ستعززون في الأسابيع المقبلة أعضاء حكومة بوش الذين يحاولون جاهدين أن يمنعوا التزامنا الدولي من أن يتحطم على صخرة الغضب والانتقام».

لكن إليزابيث بوند لم تكن على صواب، فقد هدد بوش القوى المظلمة بالثأر بلا رحمة، ودعا ذلك الرجل القادم من تكساس إلى القبض على أسامة بن لادن «حيًّا أو ميتًا»، وتحدث عن حملة صليبية ضد الإرهاب الدولي، حملة صليبية باستخدام كتاب الصلاة والمخابرات، كانت

الحرب وما زالت عالقة كذكرى سيئة في ذاكرة الألمان باعتبارهم أمة سببت الألم وتحملته، لكن طالما أن الحملة تخص الحكام الإسلاميين لأفغانستان فسوف نذهب ومعنا حلفاؤنا، فإذا كان الأمريكان يطلبون مساعدتنا وليست نصيحتنا فلتتراجع الريبة.

في ذلك الوقت وعظ السيناتور الشاب المجهول القادم من إلينوي باراك أوباما: «يجب علينا أن نتعمق في روح الحقيقة وفي قيم الطبيعة الإنسانية حتى يمكننا تجاوز الأزمة» غير أن صوت العقل لم يجد سوى صدى ضئيل، وضاع بين الرغبة في الانتقام من ناحية، والتفاخر بالذات من ناحية أخرى، فقد استطاع بوش وأعوانه أن ينتصروا بالتقوى التقليدية وأن يقيدوا المؤمنين في طول وعرض أمريكا بحزام الإنجيل.

عودة إلى الوراء نجد أن الكثير من الأمريكيين يدينون بأخلاق أجدادهم، فقد جلبوا معهم في عام 1620 الرب الحازم من بليموث Plymouth في إنجلترا إلى بليموث في نيوإنجلاند Neuengland لكن قبل أن يستقر البروتستانتيون وقّعوا فوق سفينة ماي فلور Mayflower عقدًا يجعل من الشكل الأرثوذكسي للعقيدة قانونًا أخلاقيًا. ومنذ ذلك الحين وكل الأخلاقيين يعودون إلى ذلك (الميثاق Compct) وهو الاسم الذي أطلق على (عقد الزوار) لكنه كان في نفس الوقت مرشدًا للتصرف الشريف والعملي: فقد بُني الدين على الأشياء الملموسة مثل المطرقة والمجرفة، وكما كتب هنري ستيل كوماجر Henry Steele Commager في كتابه «روح أمريكا» Der Geist Amerikas: «إن كل الأمريكان باستثناء السود يفضلون منذ البداية الحياة فوق الأرض في هذه الحياة الدنيا، وعندما يفكرون في السماء يتخيلون أن هناك دستورًا أمريكيًا ساريًا».

لقد اتعظ واضعو الدستور الأمريكي من الحروب الدينية لأوروبا، ولذلك أكدوا على فصل الكنيسة عن الدولة، وعلى حرية ممارسة العقيدة بالرغم من أنهم جميعًا كانوا يعيشون تحت سقف بروتستانتي، وكان أكثرهم يدينون بعقيدة البنائين الأحرار Freimaurer، فكما أراد الحجارون في قسم صيانة الكاتدرائية في العصور الوسطى أن يتحرروا من العبودية الإقطاعية

فقد أراد أيضًا الموقعون على قانون تأسيس أمريكا أن يتحرروا من الهيمنة، وكان قانون التأسيس كالتـالي: «يلتزم البنَّاء بطاعة القوانين الأخلاقيـة، وإذا كان يفهم فن البناء فعلًا فلن يصبح أبدًا ملحدًا أخرق» إن كل ملة لها حق الوجود نفسه طالما أنها تسير على خطة البناء الإلهية.

لم تخـدم الكنائس والمذاهب فقط الإعمار والقيادة الدينيـة، وإنما أيضًا الترقي الملموس في الحياة الوظيفية، وخلال رحلته عبر الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1904 أكد الفيلسـوف ماكـس فيـبر Max Weber: «إن المـرضى يحملون عنوان أبرشـيتهم وهم ذاهبـون إلى الطبيب كضمان لقدرتهم على السداد» واليوم عندما يدخل المضاربون في منطقة ما في عمق البلاد فإنهم غالبًـا ما يحاولون الاسـتفادة من الملة السـائدة ـ كدليـل على قاعدتهم الماليـة الجادة وخططهم الجديـرة بالاحـترام. ويوجد اليـوم في الأبرشـية النمطية نظـرًا للتـوازي الأمريكي وتلاصق الجمعيـات الدينيـة 10000 مواطن و200 كنيسـة وطائفة، لكن عدد العقـول الحرة ارتفع من 6٪ في عـام 1990 إلى 15٪ في عـام 2008 ويعتقـد وجود زيادة كبيرة في كليـة ترينيتي Trinity في هارتفـورد Hartford، وقد شـمل اسـتطلاع الرأي 54000 مواطن، ويسـير اتجـاه الأغلبية المسـيحية الباقيـة في مواجهة العدد المتزايد لغير المؤمنين، فقـد زاد تدينهم والكثير من المؤمنين يطلقون على أنفسـهم «إنجيليون» أو مسـيحيون ولدوا من جديد أو ميـلادًا ثانيًا، ومن بينهم الكثـير مـن الكاثوليك، لكن في هذه الغضـون زاد أيضًا عدد الكنائس غـير الطائفية أي تلك الكنائس التي تسـلك طريقًا خاصًا بها مثل كنيسـة ريك وارين Rick Warren الذي وعظ في حفل تنصيب أوباما.

بعد نهاية فترة كلينتون الرئاسية، استطاع أصحاب الفضائل والإنجيليون أن يقودوا واحدًا منهم إلى داخل المكتب البيضاوي، لقد كان الرئيس الثالث والأربعون مسـيحيًا ولد من جديد وتحـرر ذات يوم من إدمانه للكحول بإيمانه، واسـتطاع الاعتماد عـلى أغلبية المجتمع التقية التي كانـت تقريبًـا فريدة من نوعها في العالم الغربي الملحد، وعنـد انتخابه للمرة الثانية في عام 2004 أصبحـت الحقوق الدينية هي التيار الرئيسي للحزب متخطية الإنجيليين. وفي عام 2004، دفع

الديمقراطيـون ثمن إهمالهـم للجماعات المؤمنة التي كانت في متناولهـم فتضاءل عدد المبتعدين عـن الـرب مرة أخرى، واعتبر الكاتب موريس بيرمـان Morris Bermann انتصار الدين على العقل بأنه المرحلة الأخيرة للديمقراطية».

غير أن جورج بوش التقي وقع تحت تأثير تيار آخر ملحد على الأرجح، ذلك التيار الذي كان يمثل سلطة أمريكا المطلقة وتفردها بين جميع الشعوب: إنهم المحافظون الجدد.

سنوات الرصاص

تـم تصميـم المـشروع الأكبر للقـرن الأمريكـي الجديد في ربيـع عـام 1997، وكان هدف المشروع هو السـلام الأمريكي Pax Americana ذلك المشروع الذي كان يهدف إلى ضم باقي العالم طوعًا أو إخضاعهم كرهًا، وكان الشيء المحافظ في هذا المشروع هو الإيمان بالدور المميز الـذي تلعبه أمريـكا. أما الشيء المحافـظ الجديد في ذلك فـكان طلب الزعامـة والهيمنة مقترنًا بإجـراءات الكشـف المبكـر والوقاية من المقاومة واسـعة الشـغب، واتضح أحـد أهداف هذه الإسـتراتيجية من خطاب موجه إلى الرئيس بيل كلينتون: «إبعاد صدام حسـين عن منصبه» أو بلغة الإستراتيجيين تغيير النظام.

كان ذلك قبل الهجوم على مركز التجارة العالمي بثلاث سـنوات، وقبل الجدل الذي انتشر حول كون الرئيس العراقي جزءًا من هذه المؤامرة أم لا، وبعد انتخاب بوش رئيسًا لأمريكا في عام 2000 عهد بوش إلى المخضرم السـياسي المحافظ تشـيني Cheney بتشـكيل مجلس الوزراء وكان تشـيني عضـوًا واعـدًا في «مشروع القـرن الأمريكي الجديد» وفي الحـال أحضر معه من هناك دونالد رامسـفيلد Donals Rumsfeld وباول ولفوفيتـز Paul Wolfowitz كرقم واحد واثنين مسـتقبلًا في البنتاجون، وأصبح تشـيني نفسـه نائبًا للرئيس، وكان هو الأكثر سـلطة من بـين من شـغلوا هذا المنصب على مر التاريـخ، وأصبح لويس ليبـي Louise Libby الذي كان أيضًا عضوًا في «المشروع» رئيسًا للأركان أيضًا ريتشارد بيرل Richard Perle مستشار الرئيس

ريجان كان ينتمي إلى المحافظين الجدد، وكذلك العالم السياسي روبرت كاجان Robert kagan وكان هـو من عرف توزيع السـلطة بين أمريكا وشركائها على النحـو التالي: «أمريكا من المريخ وأوروبا من الزهرة».

من أجل الهيمنة العسـكرية بحث مخططو المشروع عن أسـاليب وإمكانيات التسليح، وفي تلك المباراة الذهنية كان حدث الهجوم الياباني على بيرل هاربور Pearl Hrbor هو ما يمكن أن يجعل أمريكا بين يوم وليلة صانعة أسلحة.

لكـن الحدث الهام وقع في 11 سـبتمبر 2001، فبعد الهجـوم على مانهاتن Manhattan كان الشـعب الأمريكي مسـتعدًا للحرب، وكان الكونجرس مطيعًا في تمويـل الحملات الانتقامية، وتحـدى ديك تشـيني والآخرون اعتراض بعـض حلفائهم على حرب العـراق بمبدأ: «عاقب الفرنسـيين وتجاهـل الألمان» إلى جانب هذا التنفيذ العسـكري والقيادة غـير المحدودة للحرب استغل المحافظون الجدد الفرصة لتعطيل أجهزة الرقابة الأخرى داخل البرلمان، جهاز الشيكات والميزانيات. ونجح ذلك بحجة «الأمن الداخلي» الذي كان معناه هنا الحد من الحرية الشخصية وكان الرئيس الثالث جيفرسون Jefferson يعرف أن «الأمن هو ثمن الحرية».

كان عـلى حكومـة بوش أولًا أن تنقل للأمريكيين الوعي بأن الأمة في حالة حرب، وبعدها يمكنها أن تطالب بحقها في الحرب: قانون التنصت المطلق، اعتقال من يتواجد في دائرة الشبهة، المطالبة بمراقبة الجيران، فقد أدت الشفرة البرتقالية Code orange والشفرة الحمراء Code red إلى تحويل التفكير إلى تفكير عسـكري، كل ذلك كان يشـبه الهياكل الرأسـية والتفكير الشـمولي للـدول المسـتبدة، وكان مقابل التنوير هو عزل المناقشـة وحرية الـرأي، كل ذلك أدى إلى عقلية القبو (العقلية المغلقة) فقد اتخذت الكثير من الإجراءات من أجل تقوية سيادة العصبة في البيت الأبيض تحت شعار السرية، وكما كتب جوفري ستون Geoffrey Stone في جريدة «الديمقراطية Democracy»: «طبعًـا هناك أسـباب شرعية لإبقاء بعض المعلومـات المحددة سرية عن الأمة، لكن هذه السرية قد تكون حجة للتهرب من المسؤولية، ولمنع أي مناظرة علنية.

تحت هذه الذريعة أخفت الحكومة معلوماتها عن الكونجرس، وأخذت تحذف المقاطع من على شبكة الإنترنت، وهددت الصحفيين المحققين، ومنعت التشريع، فكانت القواعد الأخلاقية تحترم بشدة. أما اللوائح المالية فعلى العكس من ذلك كانت ستخدم بتهاون وتسيب، وكما لاحظ السيناتور موينيهان Moynihn ذات يوم:» إن السرية هي الشكل الأعلى للحكومة؛ لأن الناس لا يلاحظون أنه يتم التلاعب بهم» لقد تحولت السلطة في البيت الأبيض إلى سيطرة على الوطن.

لكن الأمة كانت قد فقدت صورتها الحصينة مع الهجوم على البرجين التوأمين، وشحبت صورتها باعتبارها دولة لا تقهر من خلال الصراع المستمر في العراق وأفغانستان، وتحطمت صورتها كحامية لحقوق الإنسان في سجون التعذيب في أبو غريب ومعتقل جوانتانامو، فقد تحول المكتب البيضاوي الموقر إلى مطبخ للمؤامرت والدسائس وتحولت الأمة من مرح المستقبل والثقة بالنفس إلى الشك وعدم اليقين. كتب آل جور المرشح الخاسر في انتخابات 2000 لتصفية حسابه مع حكومة بوش: » لقد وصلنا إلى مرحلة لا نستطيع فيها تمييز صورتنا المنعكسة أمامنا في المرآة» لقد لفت هذا التغيير أيضًا انتباه المراقبين الخارجيين والزوار.

مذكرة سوداء

في أول أسبوع من شهر مارس عام 2009 ظهرت مذكرة جديدة في وزارة العدل الأمريكية تشير إلى القوى الاستبدادية لحكومة بوش/ تشيني بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، حيث تم تعطيل الفقرة الأولى في الدستور التي تضمن حرية الرأي والصحافة: «يجب أن تخضعوا لضروريات قيادة حرب ناجحة» هكذا كان المبرر بالإضافة إلى ذلك تم تعليق بعض القوانين التي تحظر التعذيب والمراقبة الإلكترونية وتفتيش المنازل، وبذلك ارتفعت سلطة الرئيس عدة أضعاف، لقد سمحت له هذه الإجراءات بأن يكون القائد الأعلى دون أن يهتم بشكوى أو تنديد المواطنين الأمريكيين له بأنه مقاتل عدواني.

بالإضافة إلى ذلك كان على الوزارة أن تكشف أن جهاز المخابرات CIA دمر تسجيلات تحقيقات أجريت في جوانتانامو من بينها 12 تسجيلًا تضمن «وسائل الاستجواب الأكثر شدة» وقبل 200 عام حذر جيمس ماديسون James Madison وهو أحد من شكلوا الدستور الأمريكي: »إن حكومة الشعب التي لا تعطي المعلومات للشعب أو تتيح لهم الوصول إليها هي مقدمة للعنف أو للمأساة أو كليهما».

بعد رحيل حكومة بوش/ تشيني كان على وزارة العدل أن تفرج عن المذكرة، ودافع تشيني عن السرية بإشاراته إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية أحبطت هجومًا آخر بعد الهجوم على برج التجارة العالمي.

بعد الكثير من الإقامات الطويلة في الولايات المتحدة الأمريكية، والكثير من الرحلات إلى نيويورك، حققت حلم طالما راودني: عبور المحيط الأطلنطي على متن سفينة مسافرين بها في ذلك الدخول إلى الميناء، وإلقاء نظرة على تمثال الحرية، غير أنني اخترت الوقت غير المناسب وهو ست سنوات بعد سبتمبر 2011 في المساء كان لدي موعد مع صديق لكنه وصل مبكرًا.

بدأ الترحيب بي على الأرض الأمريكية بتفتيشي المحرج في الجمارك؛ لأنني كنت أحمل زجاجتين من الخمر الفرنسي، فمن الواضح أن جنسيتي الألمانية وبضاعتي الفرنسية أثارت الشك، لكن أليس الألمان والفرنسيون هم من شاركوا في حملة أمريكا على العراق.

أردت أن ترك حقيبتي في قسم تخزين الأمتعة خلال فترة النهار، لكن لم يكن هناك شيء كهذا في الميناء وكذلك أغلق مكان الحقائب في المحطة المركزية لأسباب أمنية، وهكذا فقد حاولت أن أتركها في فندق منهاتن لكنهم لم يكونوا يقبلون سوى حقائب الضيوف الذين حجزوا مسبقًا، وفي بحثي المحرج لفتُ انتباه رجال الشرطة الموجودين ولم يكونوا شديدي الحساسية، وفي النهاية اضطررت للاتصال بصديقي الأمريكي كي يأتي لاصطحابي من قسم الشرطة، إنني لست مندهشًا من الشك غير المعتاد في أمريكا التي اعتبر نفسي خبيرًا بها، وإنما من سياسة القلق والتحريض.

كانت أمريكا مشهورة في جميع أنحاء العالم بأنها بلد الأمل والتفاؤل والحس المشترك، لكن لغة العقل غابت في ذلك الجدل مع الخوف، فقد أدخلت حكومة بوش الخوف كأداة سيطرة في المجتمع، وبهذا تغيرت الشخصية الأمريكية ولم يتبق شيء من السعي إلى السعادة.

إن الأمر يبدو كأنما هجرت أمريكا عصر التنوير لتفسح مكانًا للغوغائية، وهل هناك تفسير آخر لحقيقة أن نصف الأمريكين ظلوا يصدقون لفترة طويلة بعد كشف الأكاذيب أن صدام حسين كان وراء هجوم سبتمبر 2001؟ وأن غالبية الأمريكان حزنوا على موت الكثير من الجنود في العراق، لكنهم ترددوا في إلقاء اللوم على الحكومة؟ كيف يمكننا تفسير أن عددًا كبيرًا من وسائل الإعلام لم تنفذ واجبها، وإنما سكتت بدافع الخوف من أن تخسر مكانتها، وأن تهبط معدلات قرائها؟ ويقول المشرف على قناة سي بي إس CBS دان راثر Dan Rather «لقد وضعنا حول أعناقنا طوق الوطنية المفقودة المشتعل».

فقط بعد انتخاب جورج دبليو بوش للمرة الثانية بوقت طويل، تحول عنه الرأي العام الأمريكي، وعن سياسة القلق التي كان يتبعها، ففي العام الأخير لفترة رئاسته كان 70٪ من الأمريكيين غير راضين عن الحكومة في واشنطن، والأكبر من ذلك أنهم شعروا أن أمتهم تسير على الطريق الخاطئ.

على خلفية ذوبان الجليد في ألاسكا لم يعد الناس يؤمنون بنظرية الصعود والهبوط الطبيعي للطبيعة التي نشرتها الحكومة، ففي نيوأورليانز كان الخوف كبيرًا بعد إعصار كاترينا من عجز الحكومة عن تخطي الأزمة المحلية، وفي ساوث كارولينا South Carolina حيث توجد أكبر مخيمات لتدريب الجيش كان الدعائيون يكافحون بصعوبة مع التعبئة، وفي المنطقة الأمريكية اللاتينية في ميامي Miami ساد الشك في أن ملوك اليسار مثل شافيز Chàvez في فنزويلا سوف يسمحون بالمزيد من إهانات الولايات المتحدة الأمريكية دون رد فعل، وقد أوضح استطلاع للرأي تم إجراؤه من قبل جامعة جورج ماسون Georg Mason أن جورج بوش دخل ضمن أسوأ رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية.

في الحقيقة كان بوش هو الرئيس الصوري هو ونائبه تشيني، وفيما بعد كبش الفداء للمحافظين الجدد، على كل حال لقد بقي بوش وتشيني مصممين، فقد ظل رئيس الظل تشيني ممثلًا لأيديولوجية تستحسن ممارسة العنف في الخارج وتُبيد اليساريين في الداخل - إنها روح انتقامية ما زالت تحلق فوق أمريكا. ووفقًا لأقوال التحقيق شارك تشيني في سياسة تمويل السجون الخاصة مثل سجن ويلاسي كنتري Willacy Country ـ في جنوب تكساس.

هل ندم بوش على شيء ما في رئاسته؟ «لا تقف تحت الراية معلنًا أن المهمة أنجزت Don't stand under the banner declaring mission accomplished» ربما أنه أعلن مبكرًا جدًا وببطولية شديدة أن المهمة في العراق انتهت ربما لا أكثر كما يعتقد المخرج السينمائي ألكساندر كلوج Alexander klug: «لقد قبل فقط بمغامرة الحرب».

هكذا دخل العقد الأول من القرن الواحد والعشرين في التاريخ باعتباره الحقبة المظلمة أو العصور السياسية الوسطى حيث ضاع التنوير وواصلت الحرب زحفها، وسقطت ثروة الشعب ضحية للصوص البنوك وفقدت الأمة سمعتها.

وفي ارتداد مثير للدهشة قال المفكر السابق للمحافظين الجدد روبرت كاجان Robert Kagan في لقاء صحفي معه: » لا يهم من سيتم انتخابه؛ لأننا سوف نشهد تغيرًا جوهريًا، فالسيناتور جون ماكين واعٍ جدًا بأن صورة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم قد تدمرت، وأن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تعيد بناء سمعتها، وأن هذا لا بد أن يتم فوق طريق متعدد الأطراف، وهذا يسري طبعًا على باراك أوباما إذا تم انتخابه».

نهاية سياسة القلق

أعلنت نهاية سياسة القلق والتحريض في شكل وشخص مرشحي الرئاسة كليهما، فقد كان باراك أوباما هو النموذج المقابل لجورج دبليو بوش، وكذلك جون ماكين كان يرفض سياسة بوش، فقد كان السيناتور العجوز القادم من ولاية أريزونا Arizona دائمًا هو المشاغب

وسـط التجانـس الجمهوري، لكن هـذه العزلة كانت فرصة في جو مـن الصدمة والبغض تجاه وسائل حكومة بوش، علاوة على ذلك كان جون ماكين في نظر الأمة بطلًا.

كان جـورج دبليـو بـوش من سـلالة سياسـية. أما جـون ماكين فقـد كان من سـلالة من المحاربـين تمتـد حتى حـرب الاسـتقلال، وكان والده وجـده أميرالات يحملـون أربعة نجوم، وهو نفسـه كان طيار مارينز شـاب في حرب فيتنام عندما أطلق عليه النار في هجوم على هانوي Hanoi فهبـط بالمظلة مباشرة فوق أرض العدو وضرب حتى أوشـك على الموت، وظل طوال حياته يندم على اعتراف ضد أمريكا قاله تحت التعذيب، وعندما كان من المفترض أن يتم تبادله مبكرًا في انقلاب دعائي فيتنامي رفض التبادل تضامنًا مع الأسرى الآخرين.

بعـد خمس سـنوات ونصـف من الأسر عـاد الرجـل إلى الوطـن، وكرس نفسـه لموضوع أكـبر وهـو خدمة الأمة ونظرًا لأن إصابتـه كانت خطيرة فقد تم تسريحه من الخدمة العسـكرية ودخل السياسـة، وكسـيناتور كان يسـتنكر البيروقراطيـة والتملق لجماعـات الضغط (اللوبي) في الكونجـرس، لقـد كان رجلًا نظيفًا تنافـس في انتخابات عام 2000 ليصبح مرشـح الحزب الجمهوري للرئاسة.

وكان منافسـه في الانتخابـات التمهيديـة جـورج دبليـو بـوش، لكن بـوش القادم من تكساس أساء إليه ووصفه بأنه معتدل للغاية وأمريكي لدرجة قليلة جدًا، ولامه على اعترافه في السجن في هانوي، ثم ألصقت به حملة بوش طفلًا أسود غير شرعي، وكان هذا الطفل في الأصـل طفلًا متبنى من بنجلاديش، فخسر ماكين الانتخابات التمهيدية، وهنا ذهبت أيضًا صداقة الحزب إلى بوش.

هكذا كان الرجل القادم من أريزونا هو أيضًا البديل للرئيس التكساسي، وكان برنامجه يضع نهاية لجرائم المخابرات ولسياسـة القلق والتحريض، ويقول عن ذلك هورسـت تيلتشيك الذي كثيرًا ما كان يستضيف ذلك الأمريكي في مؤتمر الأمن في ميونيخ: «لقد كان يلعن التعذيب؛ لأنه يناقض القيم الديمقراطية، وقد عانى هو نفسـه منه، كما أنه أيضًا ضد المحسـوبية في السياسـة»

فماكين يريد مشاورة حلفاء أمريكا وعدم إبعادهم بعد الآن، لكن كان تنقصه الجينات الأساسية للحزب الجمهور: الجين المحافظ الأصلي، كما أنه كان غير مناسب لتكملة الأسطورة الأمريكية الكبيرة. أما الآخر فكان يسردها بما يتفق مع العصر: يمكنكم أن تؤمنوا بالتغيير، فهو يتحدث باللغة التي يفهمها جمهوره والمألوفة بالنسبة له.

إن غالبية الأمريكيين فهموا الرواية البوليسية التي كتبتها حكومة بوش بقصد أو بدون قصد، كأنها نص قراءة عن القصور السياسي، ونهاية للتعب السياسي وبينما ذهب 105 ملايين مواطن أمريكي في عام 2000 إلى الانتخابات كان عددهم في 2008 مائة وثلاثين مليونًا لقد ترجم باراك أوباما هذا الاستعداد إلى تبعية، ولم يكن فقط مجرد محفز، وإنما مصدر للأفكار: التعاون بدلًا من المواجهة، التعاون الذي يتخطى الحدود النفسية والاقتصادية والعرقية والسياسية، الحوار بدلًا من الصمت، الإصغاء بدلًا من الصمم، إلقاء نظرة فاحصة بدلًا من صرف النظر، وتسليط الضوء على المشكلات.

أوباما لم يؤمن بالشفعة ـ وهي الاحتياط من الحرب ـ وإنما بالوقاية ـ أي الحماية من النزاع العسكري الممكن، فهو لا يؤمن بالإجراءات الجبرية وبالتعذيب من أجل تحقيق الأهداف، ولا يعتبر «الحرية والأمن» شيئين متضادين، وإنما متحدان معًا، لكنه يربط الحرية بالاستدامة وليس بالنمو البري فهو ينقي مصطلح الديمقراطية من إشعاعات سنوات بوش.

لا يتحدث أوباما عن انتشار الديمقراطية بالعنف إذا لزم الأمر، وإنما عن حملة الكرامة ونهاية سياسة القلق، فمن خلال ظهوره أعاد إلى الأمريكيين الانفتاح والتعامل المهذب والاطمئنان واليد الودية الممدودة.

الفصل الثامن

العولمة والرئيس التحويلي

إن الذين ناضلوا منا في الحرب الباردة ناضلوا كجنود دبلوماسيين ـ جنود بلا أسلحة ـ ولكن في أي مذهب سواه كنا بقدر أي جندي آخر يرتدي الزي الرسمي. لقد حملت نهاية الصراع والمواجهة بين الشرق والغرب في عام 1989 معنى النصر والرضا، إنه انتصار ليس فقط على النظام السياسي الاستبدادي، ولكن أيضًا جاء كانتصار على الروح المظلمة التي خيمت على حكم العالم الأوروبي الأطلسي منذ ذلك اليوم المشؤوم من عام 1914، ويتضح هذا المعنى في كلمات وزير الخارجية البريطاني[1] حينها «لقد انطفأت الأضواء في جميع أنحاء أوروبا».

كان هناك شعور عظيم بالابتهاج؛ حيث جاء الاعتقاد بأن مبادرة إزالة الأسلحة النووية ستضمن انتشار السلام في جميع أنحاء العالم، لقد كنت نائب سفير الولايات المتحدة لدى حلف شمال الأطلسي في تلك الأيام، وكنا نعمل في ذلك الوقت على مشروع يتناول مفهومًا جديدًا للسلام، والذي من شأنه أن يجعل منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) والاتحاد الأوروبي مركزًا لمجتمع غربي من نوع جديد، ولكن في واقع الأمر لم يكن لدينا أدنى فكرة عن المشاكل الكثيرة التي تنتظرنا، ولا عن التغييرات الجذرية التي من شأن نهاية الحرب الباردة أن تساعد في جعلها ممكنة الحدوث.

---

(1) السير إدوارد جراي(25 أبريل 1862-7 سبتمبر 1933)، هو سياسي بريطاني ليبرالي شغل منصب وزير الخارجية في الفترة من1905إلى 1916. (المترجمة)

أصبح فرانسيس فوكوياما[1] Frances Fukuyama الباحث الأمريكي ذا شهرة واسعة، ثم انخفضت تلك الشهرة بسبب توقعاته بأنه مع نهاية الحرب الباردة شهد العالم ما أسماه بـ «نهاية التاريخ» على حد تعبيره، ولكن بدلًا من ذلك جاء التاريخ حاملًا معه الانتقام، كما كان الحال في عام 1914؛ حيث بدأت حقبة تاريخية جديدة في غضون سنوات قليلة في وقت لاحق في سراييفو Sarajevo، أتذكر كيف كنا نشعر بالصدمة لإمكانية نشوب الحرب بالفعل في أوروبا بعد مرور الكثير من السنوات في سلام.

لم يكن المسؤولون في الاتحاد الأوروبي مستعدين للبشاعة وخيانة الأمانة التي أبداها القادة القوميون ليوغوسلافيا Yugoslavia الذين تم التفاوض معهم؛ حيث ظنوا أنهم يستطيعون معالجة المشاكل اليوغوسلافية بنفس طريقة معالجة بيان ما حول السياسة الزراعية. لقد جاء منهجهم معتمدًا على السعي للوصول إلى التوافق مع الزعماء الذين لم يبدوا أي نية لاحترام أي اتفاق؛ حيث كان هدفهم الوحيد هو تبرير قرارهم بالذهاب إلى الحرب، وجاء موقف وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر James Baker غير مبالٍ لذلك النزاع الإقليمي، والذي بدا واضحًا في تصريحه بأن الولايات المتحدة ليس لها أي مصلحة في التدخل في هذا الأمر.

تحذير من الأحداث القادمة

جاءت هذه الأزمة اليوغوسلافية كإنذار مبكر للأحداث القادمة. هناك قاعدة تاريخية تنطبق على الأحداث هنا والتي أقر بها معظم السياسيين البارزين مثل هنري كيسنجر Henry Kissinger، وتقول تلك القاعدة بأنه كلما كان النظام القديم يبدأ في الانهيار، كان لديك لاعبون جدد يستعدون لدخول اللعبة، ثم يلي ذلك حالة من عدم الاستقرار.

---

(1) أستاذ علوم سياسية وعالم اقتصاد سياسي وكاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية، ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية في 27 أكتوبر 1952. يعد من أهم مفكري حركة المحافظين الجدد. من أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير». (المترجمة)

يجب أن يكون معلومًا لدينا أن الاضطرابات التي صاحبت عملية انهيار الشيوعية كانت من الضخامة التي تمنعها من المرور بسلام، وجاء تفكك يوغوسلافيا كخطوة أولى في عملية طويلة وصعبة بالنسبة لكيسنجر، والتي يقوم فيها باستبدال النظام القديم بآخر جديد، وهو الأمر الذي لا يزال مستمرًا حتى يومنا هذا.

إن مثل هذه التوترات هي رفيقة شبه تلقائية للعصور التي تشهد تغييرات جذرية، وكانت نهاية الحرب الباردة إحدى تلك الاضطرابات الكبرى التي حدثت مع نهاية القرن العشرين، بينما جاء عالم التكنولوجيا الحديثة حاملًا معه ثورة في الاقتصاديات ومحققًا تقدمًا كبيرًا، وجاء أيضًا حاملًا معه أسباب تدمير طرق الحياة التي نعتز بها، كذلك كان هذا يعني حريات جديدة لكثير من الشعوب في جميع أنحاء العالم، وأتاح الحرية لتسوية الأحقاد القديمة واستعادة الأراضي أو الشرف الوطني الذي فقدوه في الحروب الماضية.

كانت هذه الأشهر في عامي 1990 و1991 تمثل بشكل أساسي أولى دلائل ما نسميه الآن العولمة Globalization؛ وليس العالم التكنولوجي الحديث الذي نحتفل به الآن، ولكنها على أية حال لا تزال العولمة. كان هذا عولمة للمخاطر والتهديدات والتي هي أهم ما يميز عصرنا الجديد. لقد قامت العولمة بتغيير العالم.

شعرنا بالعولمة في أحداث البوسنة Bosnia، وكوسوفو Kosovo، والقوقاز، وبالطبع في مركز التجارة العالمي، وشعرنا بها عندما تفككت الأسواق المالية العالمية، وشعرنا بها بينما خفضت المؤسسات الصناعية العمالة لديها، وأدت إلى انخفاض تكاليف الإنتاج، ونحن الآن نختبر أسوأ تباطؤ اقتصادي منذ ثلاثينيات القرن الماضي، ولم يعد يوجد مكان على وجه الأرض في مأمن من ذلك الانتقال العالمي للخطر.

إذا أردنا أن نتعامل بنجاح مع القوى التي تغير عالمنا الآن، يجب علينا إذن فهم العولمة من منطلق هذا المصطلح الطويل Globalization، وفي نفس الوقت من وجهة نظر بنيوية. إن هذا ليس مجرد توسع في الأسواق أو اختراع تكنولوجي جديد علينا التحدث عنه. إن الإرهابيين

الإسلاميين لم يأتوا من فراغ. إن هذا هو التغيير الثوري والأساسي في طريقة الربح والخسارة في جميع جوانب الحياة والموزعة في جميع أنحاء العالم. لقد وضعت ضغطًا لا يوصف على الأنظمة السياسية في جميع أنحاء العالم.

كنت المبعوث الأمريكي الخاص إلى البلقان بعد خمس سنوات من اندلاع الحرب البوسنية، واجتمعت مع الرئيس الصربي ميلوسيفيتش Milosevic أكثر من عشرين مرة على انفراد، ووصف لي كيف تشجع بعد أن استبعد بيكر الولايات المتحدة من الصراع في عام 1990، وجاء صوته مفعمًا بالتهكم، كما وصف كيف تمكن من خداع الزعماء الأوروبيين للموافقة على بيان ساعده على تغطية نواياه للذهاب إلى الحرب.

لم يقدر الأوروبيون على منعه، ولا يرجع ذلك إلى عدم وجود قوة الإرادة، ولكن لأنهم فشلوا في فهم أن ميلوسيفيتش قد غير قواعد اللعبة، لقد كان زعيمًا تحويليًا. تم حساب الربح والخسارة خلال الحرب الباردة على أساس القدرة على الحفاظ على الاستقرار وتجنب الصراع، بينما عرف ميلوسيفيتش عدم الاستقرار والصراع المنظم بوصفهما أهم معايير النجاح، إن هذا الشعور بالصراع المنظم هو جوهر التوزيع العالمي الجديد للمخاطر والمكاسب التي نشهدها الآن.

دامت حرب البلقان الثالثة أكثر من ثلاث سنوات، وبحلول الوقت الذي انتهت فيه كان التاريخ قد أعاد نفسه مرة أخرى، وذلك ليس من خلال المواجهة النووية ولكن من خلال وحشية الصراعات المريرة بين الشعوب الفقيرة والمعزولة في تلك الزاوية المهملة من أوروبا، وفي نفس الوقت كان هناك عهد جديد قد بدأ، وسيكون التعامل مع آثاره واحدة من التحديات الكبرى أمام باراك أوباما Barack Obama.

شهد عالمنا المعولم الجديد في السنوات اللاحقة الكثير من اللحظات الإيجابية والحزينة؛ حيث لم تبدأ فقط الصراعات تندلع في أركان عجيبة من العالم، ولكن بدأت أيضًا دول العالم والشعوب في التصرف بطريقة مختلفة جذريًا.

تكاملت الاقتصاديات والثقافات على نطاق لم يعرف في الماضي، ثم نشأت فيما بعد اقتصاديات سوق جديدة في الهند والصين، وكذلك في أصغر بلدان آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية. توسعت الأسواق المالية في مختلف أنحاء العالم بسرعة الضوء، وضربت الديمقراطية جذورها في جميع أنحاء العالم، وشهدنا تقدمًا مهمًّا. هناك ما يدعو إلى التفاؤل بشكل كبير.

كانت هناك أيضًا أمثلة مروعة للكثير من السلوكيات غير الآدمية، وأصبح العنف والقتل من الأوجه القياسية للحروب الإقليمية والعرقية، ودخل مصطلح «الدولة الفاشلة» إلى اللغة ليصف كل بلد ينهار بها النظام الداخلي.

أدى بالطبع التوسع الاقتصادي الذي أصبح ممكنًا بفضل عدة أسباب، ومنها العولمة وتكنولوجيا المعلومات وحماس المصرفيين والمسؤولين الحكوميين في جميع أنحاء العالم، إلى نوع ما من الصراع الاقتصادي المنظم الذي نتج عنه تجاوزات أدت إلى خلق حالة من الذعر والخوف المالي، والتي تعتبر هي الأكبر خلال 75 عامًا. يجب علينا أن نضع تفاؤلنا جانبًا للحظة، بينما يقوم الاقتصاد بجمع شتاته مرة أخرى.

لم تمر علينا أحداث مثل تلك التي رأيناها في حرب البلقان، وما حدث من إبادة جماعية في رواندا منذ الحرب العالمية الثانية، ولم يكن ليحدث التضخم الوهمي المالي في عام 2008 في بيئة تسيطر عليها الحرب الباردة، إن الأمر يبدو كما لو أن كل القواعد التي تم بناؤها بعناية منذ عام 1945 توقفت عن العمل، وبدا على نحو مفاجئ للجميع أن النظام العالمي الجديد الذي حلمنا به جميعًا، لا يبدو في الواقع أكثر من مجرد فوضى عالمية جديدة.

تأثرت الولايات المتحدة بشكل كبير باضطراب ما بعد الحرب الباردة، في الوقت الذي كُلِفت فيه بالمحافظة على الشعور بالنظام. إن إدارة حملة ضد الشيوعية كان أمرًا مفهومًا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لكيفية التعامل مع عدة طبقّات من الصراع وعدم الاستقرار كان أمرًا من الصعب علينا إدارته.

أظهـر جـورج بوش الأب حدود القـدرة الأمريكية على التكيف عندمـا حاول وضع يده عـلى تعريـف محدد لـ «النظام العالمي الجديد» في عـام 1990، وذلك من خلال التركيز على أهم بلـد من العهد القديـم؛ حيث جاءت مبادرتـه الوحيدة الكبرى كمبادرة مسـطحة، والتي قدم مـن خلالهـا فرصـة الانضمام لألمانيا الموحـدة حديثًا إلى «الشراكـة في القيـادة». إن ألمانيا لم تكن على اسـتعداد للمسـاعدة في حرب الخليج الأولى، ناهيك عن أن تكون زعيمًا عالميًا، لقد جاءت رؤيـة بـوش أمريكية للغاية في حين أن النظام العالمي الجديد يتطلب تحولًا لا تسـتطيع ألمانيا أن تستوعبه ببساطة.

إن فهـم هـذا العامل هو أحد أهـم مفاتيح فهم الإسـتراتيجيات الأمريكيـة المتبعة خلال السـنوات العشرين الماضية؛ حيث لم تشـارك أمريـكا بأي قوة تذكر في ميزان القوى السياسـية العالمية في القرن التاسـع عشر. لقد فاتنا حقبة العولمة تمامًا، بل في واقع الأمر لقد دخلنا الحرب العالميـة الأولى على أمل أن نسـتطيع محو أسسـها، والتي تتمثل في التـوازن الداخلي المعقد للعالم الأوروبي، من المسرح العالمي إلى الأبد.

أصبحنا لاعبًا عالميًا نشـطًا عندما لم تكن مهمتنا إدارة التوازن العالمي المعقد، ولكن عندما كانت هزيمة الشر ـ أولًا القيصر Kaiser، يليه النازيون، ثم الشيوعيون. لقد تم اختزال مفهوم العولمة إلى علاقة فرد بفرد آخر، ولم يكن لدينا أي اسـتعداد سـواء على المسـتوى الشـخصي أو المعرفي يؤهلنا بشكل كافٍ للتعامل مع عالم العولمة المحير والمعقد، والذي أعقب انهيار الشيوعية في عام 1990، وما زلنا لم نحسن التعامل معه بشكل جيد منذ ذلك الحين.

أمريكا في عالم متعدد الأبعاد

إن السؤال الذي استهلك طاقة قادة العالم منذ عام 1990 - كيـف يمكن دمج العديد من الحـركات الحـرة الجديدة التي ظهرت بعد نهاية الحرب الباردة في أداء النظام الدولي؟، إن تلك المهمـة لكبـيرة بالفعل، تمامًا كتلك التـي واجهها قادتنا في عام 1945، ولكنهـا تفوقها تعقيدًا؛

حيث نجد أن المهمة هذه المرة ليست إنشاء إطار عمل وحيد من عدة هياكل متصلة، كما تم إنجازه من قبل مع منظومة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، بل إن المهمة للقرن الحادي والعشرين هي بناء آليات قادرة على تحقيق الاستقرار داخل مصفوفة متعددة الأبعاد ومتغيرة باستمرار.

اختفى الاتحاد السوفيتي بعد عام 1990، ولم تعد الشيوعية قوة أيديولوجية، لقد بدأ الناس في تسمية الولايات المتحدة «السلطة المتفوقة الوحيدة الباقية»، وسرعان ما أصبح دورها العالمي منقسمًا ما بين قوتها الاقتصادية والتكنولوجية، ووظيفتها في الدفاع عن نظام عالمي من نوع ما.

إن تعثر أمريكا في أداء كلا الدورين يرجع بشكل جزئي إلى النمط الفكري الذي مازالت جذوره متأصلة في السلوكيات المكتسبة في وقت سابق منذ ستين عامًا من نهاية الحرب العالمية الثانية.

حاولت منظمات دول الشمال الغنية تحديد مستقبل الدول المستقلة الفقيرة الناشئة حديثًا أو بلدان الجنوب التي بدأت في الظهور على الساحة. على أية حال، مع فتح الحدود قام كل من رأس المال والتكنولوجيا المملوكة للبلدان المتقدمة ببناء منظومة الإنتاج في الأسواق الناشئة، وتم صياغة القوانين من جانب المؤسسات المالية في نيويورك ولندن، ووقفت بقية دول العالم تشاهد ما يحدث على أمل أن تسير الأمور على ما يرام في النهاية.

كان من السهل اكتشاف العديد من العيوب فيما يختص بأوجه هذه السنوات المبكرة من عولمة القرن الحادي والعشرين، ولم تشعر الولايات المتحدة على وجه الخصوص بالراحة فيما يتعلق بكونها القوة الوحيدة العظمى؛ حيث وجدت نفسها منفردة بالمسرح العالمي، وحاولت أن تطبق أفضل ما لديها من معرفة وقيم لحل مشاكل العالم المعقدة، وكما ناقشنا في الفصول السابقة كيفية نشأة هذه القيم في الظروف التاريخية والجغرافية الخاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في أمريكا الشمالية، لم يستطع الرئيس كلينتون أو الرئيس بوش أن يوجدا

التوازن الصحيح بين الأساليب الأمريكية والتوافق الدولي في الآراء.

تمتعت إدارة كلينتون بالرخاء الاقتصادي والاحترام على المستوى الدولي، ولكنها عانت من مكافحة الإرهاب، ورحلت دون وضع أدنى صياغة توضح الرؤية المستقبلية. أعطى كلينتون تفسيرًا أكثر ليبرالية للمبادئ الريجانية، ولكن ظلت الطرق المتبعة في ممارسة الأعمال التجارية كما هي.

تقلد جورج بوش الابن منصبه في يناير من عام 2001، في الوقت الذي كثرت الإشارات التي تنذر بقدوم العاصفة كل مكان؛ حيث بدأت مؤشرات اقتراب حالة من الركود الاقتصادي في الظهور، وقلق بالغ يعم سوق الأسهم، كذلك كانت هناك مؤشرات لتصاعد الإرهاب، وتصاعد علامات حدوث كارثة بيئية على الأبواب. لقد بدأت الألفية الجديدة في عام 2001 وليس في عام 2000، كما كان يأمل العديد من علماء الرياضيات، ثم جاء الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك فجأة وبوحشية، وهو الأمر الذي كان من شأنه وضع الفوضى المتزايدة لحقبة ما بعد الحرب الباردة في منظورها الصحيح.

تغير منهج أمريكا وفهمها لدورها كقوة رائدة في العالم بعد هذا التاريخ بشكل ملحوظ؛ حيث لم تعد ترى إمكانية نجاح الإطار العالمي القديم، إلا أنها أيضًا لم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفية بناء آخر جديد.

من المنطقي أن يتساءل المرء ما إذا كان سيتم التعامل مع المشاكل بشكل أكثر نجاحًا إذا ما كانت هناك إدارة مختلفة، ولكن عند النظر إلى الأحداث سنجد أنه أيًا كان الرئيس الموجود في هذا المنصب يوم الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001 كان سيتصرف بقوة وبعنف من أجل مواجهة التحدي المتمثل في الهجوم الإرهابي الحادث، ولم يكن هناك في السمات الأمريكية ما سيجعلها تتصرف بشكل مختلف، وبغض النظر عمن هو الرئيس في تلك الفترة، إلا أن الثقة الأمريكية في نظام عالمي قائم على الشراكة وتوافق الآراء أصبحت ضعيفة.

إن الهجوم على مركز التجارة العالمي قد أضر بشدة المعتقدات الأساسية لجورج دبليو بوش ومستشاريه، والتي كانت تمثل آخر فصل من فصول الحروب الثقافية المريرة التي جعلت من أمريكا قطبًا لما يقرب من أربعة عقود من الزمن، لقد جاءت تلك الإدارة إلى السلطة برؤية مانوية Manichean view للخير والشر، وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ حيث بدؤوا في مزج العمليات الاجتماعية بفلسفتهم الأخلاقية الخاصة بهم، كما لو أن الأخلاق الأمريكية التقليدية يمكنها أن تحرك العالم، لقد حاولوا كسب القلوب والعقول من خلال توزيع وسائل منع الحمل، ومنح المساعدات الخارجية اعتمادًا على درجة قبول النظم الدينية، والتركيز على مشاريع التنمية لموضوعات مقبولة من قبل حركة المحافظين الأمريكيين.

تحدث جورج بوش عن نجاحه في الحفاظ على أمريكا في مأمن من الهجمات الإرهابية حتى اللحظة الأخيرة له في منصبه، وحاول احتواء المخاطر الكامنة في العولمة مع جهوده الطموحة لزرع الرؤية الأمريكية حول العالم، وجاء سلوكه في هذا الأمر يشبه إلى حد كبير في ذلك سلوك المتشددين الذين استقروا في وقت مبكر في ولاية ماساتشوستس Massachusetts أو الكهنة اليسوعيين الذين حاولوا تنصير أمريكا الجنوبية.

ساعد بوش في إقناع أجزاء كبيرة من العالم النامي التي تستخدم التكنولوجيا والإدارة الغربية بأنها تُستخدم في المقام الأول من أجل التدخل في مجتمعاتهم، وذلك بدلًا من كسبهم كأصدقاء. نما شعور بوجود خاسرين وفائزين بين الشمال والجنوب، وأصبحت العولمة كلمة ترمز للاستغلال، وذلك على الرغم من أن الإحصاءات أظهرت أنه تم انتشال الملايين من الناس من الفقر من خلال تكامل النمو الاقتصادي العالمي والذي أصبح ممكنًا بفضل العولمة.

ترك كل من كلينتون وبوش مهمة تحديد ووضع أساس لإدارة العولمة إلى خليفتهم باراك أوباما، والذي ورث منهم عددًا من الأزمات تحدث جميعها في نفس الوقت. حدث انخفاض في سوق الأسهم بما يقرب من 2000 نقطة، وذلك بعد أربعة أسابيع من تولي أوباما منصبه، وبالتالي سيكون نجاحه أو فشله في إدارة هذه الاضطرابات أحد العناصر المحددة لشكل إدارته. يوجد

أمل كبير في أن يستطيع باراك أوباما قيادة العالم للخروج من خلال تلك الفوضى التي خلفتها تسعينيات القرن الماضي، وإن كان لا يوجد دليل على أن هذا يمكن أن يكون واقع الحال.

على الرغم من قوة أمريكا، فإن هذه ليست وظيفة يمكن لدولة عظمى أن تقوم بها من تلقاء نفسها، حيث إنها لا تمثل السياسة الخارجية بالمعنى التقليدي، أو أن إتقان المهمة يكون فقط بكونها قوية على المستوى القومي، إن ما نواجهه هنا هو مهمة بناء أنواع جديدة من الاتصالات، سواء في الداخل أو الخارج والتي يمكن أن تساعدنا على الإرشاد نحو التغييرات الأساسية.

اقترح جون كاو John Kao خبير التطوير الابتكاري الأمريكي المعروف، أن التحول يتطلب القدرة على رؤية الأشياء بشكل مختلف. إن القادة التحويليين الناجحين استطاعوا إيجاد أنماط جديدة من العناصر الموجودة بالفعل، وهذا بالفعل ما قام به سلوبودان ميلوسيفيتش Slobodan Milosevic وجاءت النتائج مرعبة. إن العثور على النظام في عصر العولمة الجديد يحدث ببطء ولكن بثبات على مدى سنوات عديدة، ولذلك قال أوباما إن الحلول لمشاكل اليوم من المرجح أن تصبح واضحة بعد أن يغادر منصبه بفترة طويلة، ولهذه الأسباب من المرجح أن ينظر إلى عامي 2008 و2009 من قبل المؤرخين على أنهما يمثلان نهاية المرحلة الأولى من نسخة القرن الحادي والعشرين للعولمة، لقد تبددت حيوية التسعينيات وأوائل الألفية بالفعل؛ بحيث تبدو الرأسمالية غير المقيدة ورعاية الشركات للتنمية العالمية مثل ذكرى سيئة من الماضي. إن القناعة بإمكانية رقمنة ومعايرة العمليات الاجتماعية والتي يجدها المرء في كتب توماس فريدمان Thomas Friedman حل محلها الشك حول منطق تطبيق النظم المتكاملة على كل من المشكلة الاقتصادية والاجتماعية.

تعني العولمة في الأصل على النحو المحدد من قبل المُعمَمين Popularizers مثل فريدمان، وصف التكامل المتزايد للأسواق والعمليات عبر الحدود الوطنية وجميع أنحاء العالم. إن تعريف عالم معولم هو عبارة عن هيكل شبكي، والذي فيه يتصل الأفراد من خلال شبكة من الروابط المتعددة التي تتجاوز الحدود السياسية والهياكل الهرمية.

فوضى عالمية جديدة

أعطت الحروب والكوارث الاقتصادية في السنوات الأخيرة معنى جديدًا لكلمة العولمة بالنسبة لبعض الأشخاص؛ حيث صارت الآن تُستخدم أيضًا لوصف هذه الفوضى العالمية الجديدة التي نمت في السنوات العشر الأخيرة، وليس فقط لوصف عولمة الأسواق والتمويل، ولكن لوصف كل شيء، حتى الثقافة ولعب الأطفال والاتجاهات الفكرية وبالطبع التكنولوجيا، كل شيء يتم وصفه بصفته نتيجة للزيادة الكبيرة في مجال التجارة والاتصالات عبر الحدود.

أصبح من الواضح أن «العولمة» في حد ذاتها أصبحت تعني الآن أكثر قليلًا من كونها مجرد مصطلح أنيق يصف الترابط المتزايد للشعوب في جميع أنحاء العالم؛ حيث يلقى الكثير من اللوم فيما يخص العديد من التغييرات على العولمة، والتي هي في الواقع نتيجة لتلك النقلة النوعية التاريخية الأوسع، والتي تعيد تشكيل عالمنا أمام أعيننا، تمامًا كما هو الحال عندما تنتقل الأمراض عبر القارات عن طريق المسافرين على الخطوط الجوية، كذلك انتقال المكسب والمخاطرة على الفور تقريبًا في جميع أنحاء العالم من خلال العديد من قنوات الاتصال الجديدة التي نشأت وترعرعت وتوفرت لها بيئة خصبة متبادلة.

لا يوجد هناك ما يسمى بالعملية الواحدة، وبالتأكيد لا يوجد شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص يمكن أن توجه إليه/ إليهم اللوم أو التهنئة. لم يصبح العالم «مسطحًا» كما اقترح توماس فريدمان؛ حيث استخدم فريدمان هذه الصورة ليشير إلى أن الاتصالات الحديثة سوف تسمح للبضائع والمعلومات بعبور الحدود دون أي تدخل، أما ما تم العثور عليه بدلًا من ذلك هو أمر أكثر منطقية. إن الثقافات غالبًا ما تكون مهددة أكثر في حال ما توسعت الاتصالات وليس في حالة محدوديتها. نشأت حواجز جديدة تعوق عملية الفهم والتي كان العنف نتيجتها في بعض الأحيان.

تضاعف مع انتشار العولمة الجشع والفرص لتحقيق المكاسب المادية، ولم تستطع أن تواكب الأنظمة التنظيمية ما يحدث، وبدأ السياسيون والقادة وأصحاب الشركات في التحدث بلغات مختلفة، واتبعت الشركات منطق الترابط والكفاءة في ظل عالم ينتشر فيه خدمات الحاسبات الآلية اللوجستية الموجهة والإنترنت بسرعة عالية، وبدأت المعايير القديمة للزمان والمكان تفقد معناها؛ حيث لم تعد هناك حاجة إلى وجود المصنع بالقرب من الموارد أو حتى الأيدي العاملة، لقد أصبح الانتقال الآن على المستوى الدولي، وهذا يعني أن المناطق الصناعية التقليدية لم تعد لها أي قيمة، وأصبحت إدارة سلسلة التوريد هي الشعار الجديد، وأصبح التسليم في الميعاد هو الهدف.

أدى هذا الشكل الجديد من التكامل الصناعي والاقتصادي إلى جلب العديد من الفوائد الرئيسية إلى أجزاء كثيرة من العالم، وأصبحت البلدان الغارقة في الفقر قادرة على الوصول إلى الأسواق العالمية بطريقة لم تكن ممكنة حتى قبل عشر سنوات مضت، ويتم استخدام التعليم والتدريب لجلب الصناعات عالية التكنولوجيا الجديدة للاقتصاديات الناشئة.

على الرغم من أننا نجد أنفسنا الآن في موقف صعب فإنه لم يضعف من مزايا التكامل العالمي المتنامي الذي تمتعنا به خلال السنوات الأخيرة، ولم ينجح في منع انتشار أساليب جديدة من التنظيم والاتصالات، ولكن حتى ونحن نعترف بالمزايا لا يمكننا أن نتجاهل العلامات الدالة على أن العالم ما زال يحتاج إلى تأقلم ناجح للتعامل مع العمليات الثورية الجديدة التي جعلتها التكنولوجيا ممكنة الحدوث.

كانت المرة الأخيرة التي شهدنا فيها اضطرابات من هذا القبيل، خلال الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، ولم نتمكن من إداراتها جيدًا في ذلك الوقت، وصمد النظام القديم بصعوبة شديدة وجاءت النتيجة كارثة؛ تمثلت في حربين وفترة الكساد الكبير وانهيار العالم بالشكل الذي عرفناه به.

نجد أيضًا أن أسباب التغيير الجذرية من هذا القبيل موثقة جيدًا من خلال التاريخ؛ حيث نرى على مدى قرون أن كل تقدم جديد في مجال النقل والاتصالات يقابله نمو مماثل في

الاتصال العالمي، مثل ما حدث في القرن التاسع عشر عندما اخترع المحرك البخاري والتلغراف اللذان شجعا على التوسع الهائل في مجال الاقتصاد والتجارة، ولكن يؤدي حدوث التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في كثير من الأحيان إلى إزعاج وتدمير النظام السياسي القائم في نهاية المطاف، كما كان الحال مع الإقطاعيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومع الأنظمة الملكية في القرن التاسع عشر.

جعلت الموجة الأخيرة من العولمة أوروبا حرة من الرقابة على الحدود بشكل عام في وقت مبكر من القرن العشرين، معطية لها عملة موحدة (الذهب)، وساعدتها على تحقيق الكثير من الأرباح من خلال المستويات المتزايدة من التجارة.

وصف الاقتصادي الإنجليزي الكبير جون ماينارد كينز John Maynard Keynes الوضع كما يلي: «يستطيع أحد سكان لندن أن يقوم بطلب أي من منتجات العالم عبر الهاتف، ويستطيع في نفس اللحظة أن يغامر بثروته في الموارد الطبيعية والمنتجات الجديدة في أي ركن من أركان العالم». واعتبر كينز هذا الوضع بأنه «طبيعي ومؤكد ودائم».

ألف البروفيسور هارالد جيمس Harald James من جامعة برينستون Princeton كتابًا بعنوان نهاية العولمة The End of Globalization، وهو كتاب في التاريخ، وليس للتنبؤ بالمستقبل بل يصف الماضي وكيف انهار العصر الأول للعولمة في القرن العشرين.

أشار جيمس إلى أنه بعد سنوات قليلة فقط من وصف كينز لمزايا العولمة، أعادت المنافسة القومية والاقتصادية أوروبا إلى حالة من الشك والمواجهة المجهولة منذ القرن السابع عشر، ونعود اليوم فقط ببطء إلى روح الانفتاح والتكامل التي وجدت منذ مائة سنة مضت.

يناقش البروفيسور جيمس قائلًا بأن آخر عصور العولمة قد انتهى في المقام الأول؛ لأنه لم تستطع المؤسسات الاقتصادية ولا السياسية أن تمتص الهزات الكبرى التي حدثت في تلك الحقبة، والتي نجمت عن ظهور تقنيات جديدة وقوى اقتصادية جديدة مثل الولايات المتحدة

وألمانيا واليابان وروسيا، وكنتيجة لهذا جاء القرن العشرين ليصبح واحدًا من أعنف العصور والأقل استقرارًا والأكثر تطرفًا ودموية في تاريخ البشرية.

يقول فرانسوا هنري بينو François-Henri Pinault الرئيس التنفيذي لشركة مجموعة PPR الفرنسية «نحن ندخل عصر اللاعقلانية»، ويقول أيضًا «نحن في بداية اتجاه اجتماعي جديد وتغيير في القيم التي سوف تستمر لسنوات، فبعد كل شيء لقد دام عصر العقلانية لأكثر من قرن من الزمان».

نترك مرة أخرى حقبة تميزت بالاستقرار ولكن بنظام عالمي غير مرن، وندخل عصر التعددية المتزايدة والشفافية، والتي تتفاقم بفعل التغييرات الباعثة على القلق، وبدلًا من السيطرة على الأحداث، من المرجح أن تجد الحكومات والشركات نفسها على حد سواء تسعى جاهدة لمواكبة التطورات والتي لم تعد قادرة على أن تدار بشكل عقلاني، وسوف يكون لزامًا عليهم التخلي عن الهياكل القديمة وطرق التفكير. يجب أن تعلم أن تعتمد جون كاو وصفة طبية، وتعلم كيفية رؤية الأشياء بشكل مختلف.

الرئيس التحويلي

إن العولمة تتمتع بسمعة متباينة في الولايات المتحدة، كما هو الحال في معظم الدول الصناعية؛ حيث نجد أن العلماء الأمريكيين وخبراء التكنولوجيا متحمسون للعديد من الإمكانيات التي يقدمها عالم بلا حدود، أما الصناعة الأمريكية فقد عملت لسنوات على تكييف أعمالها في عالم جديد متعدد الأقطاب.

إن معظم الأمريكيين لا يعرفون سوى القليل عن تفاصيل تلك القوة الجديدة التي يقرؤون عنها، وعندما يحدث هذا يكون من خلال نتائج ملموسة والتي غالبًا ما تأتي في شكل خبر إغلاق المصنع، أو فقدان للوظائف. إن التجارة الحرة والاتفاقيات التعاونية مثل اتفاقية التجارة الحرة لشمال أمريكا (نافتا) North American Free Trade Agreement (NAFTA)

يتم انتقادها على نحو متزايد واتهامها بتقويض القوة العاملة الأمريكية، ويفترض أيضًا أن أزمة السكن والرهن العقاري قد نشأت بطريقة أو بأخرى في فضاء العالم المعولم، كذلك هناك اعتقاد واسع بأنه يجري استغلال الدول الفقيرة؛ حيث يتم الاستعانة بالمصادر الخارجية (التعهيد) واستغلال تدني معدلات الأجور فيها حتى لو كان العكس هو الحال غالبًا.

سببت العولمة أيضًا تغييرًا في بنية الاقتصاد الأمريكي؛ حيث يوجد اليوم 13٪ فقط من الوظائف في مجال الصناعات التحويلية التي تصنع منتجات حقيقية، أما الصناعات التي كانت مبعث فخر فيما مضي مثل صناعة السيارات أو صناعة الصلب فهي على وشك الانهيار الآن، وبدأت الثقافات الصناعية التقليدية في الشمال الشرق أو الغرب الأوسط من البلاد تختفي ببطء، وتعافيها في وقت قريب هو أمر مشكوك فيه، ومن ناحية أخرى، تشير التقديرات إلى أنه هناك أكثر من مليون وظيفة صناعية تم تصديرها إلى المكسيك كنتيجة لاتفاق منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا).

ناقشنا في الفصول السابقة أن فوز باراك أوباما جاء إلى حد كبير كنتيجة للنقلة النوعية التي شهدتها الولايات المتحدة على مدى العشرين عامًا الماضية، تم خوض الحروب الثقافية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي من أجل كيفية تعريف المجتمع الصناعي الحديث الذي برز من فترة الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية. ركزت القضايا على مسائل مثل المساواة في الفرص، والتعليم، وظروف العمل، والتي مر عليها وقت طويل دون حل، والتي تمثل أسئلة من الماضي؛ حيث يتم ترتيب تلك الصراعات القديمة بدلًا من بناء شيء جديد.

فقد الناخب الأمريكي الحالي الشعور بالمصير الذي طالما حرك كلًّا من طلبة الجناح اليساري وناخبي ريجان المحافظين، وذلك قبل ثلاثين عامًا. إنهم لا يكتوون بنار الحق؛ لأنهم ليسوا متأكدين مما هو صواب؛ حيث قدم إليهم مجموعة محيرة من الخيارات مثل، كيفية حماية وظائفهم، ما هي أفضل طريقة للعثور على التأمين الصحي، كيفية تعليم أبنائهم، وكيفية التمتع بمرحلة شيخوخة آمنة، وهي الأمور التي لم ترد قط على عقل الناشطين فيما مضى.

إن العولمة والآثار الكثيرة المصاحبة لهذا المصطلح، كان لها تأثير كبير على طريقة حياة الأمريكيين والطريقة التي يفكرون بها ويصوتون على أساسها. لقد بدأ ينهار الهيكل الأنيق الذي نشأ من الحرب العالمية الثانية.

إن مواطني بيوريا Pioria الذين التقينا بهم في فصل سابق، لا يعتمدون فقط على الأسواق العالمية في معيشتهم؛ بل هم أنفسهم تغيروا الآن بشكل كبير، لقد مثلوا فيما مضى خليطًا من المهاجرين الإنجليز والألمان والفرنسيين، أما الآن فهم يمثلون أجناسًا وثقافات كثيرة لكوكبنا بشكل أكثر شمولًا من أي وقت مضى. إن المزارعين من ولاية أيوا Iowa والصيادين من ولاية ماين Main، يحددون وقت الحصاد على أساس موسم صنع البيرة في الصين أو العطلات في اليابان. لم يعد يشكو العمال الأمريكيون في مجال صناعة السيارات في ديترويت Detroit من منافسة الواردات؛ حيث لديهم ما يكفي: الخوف من المصانع «الأمريكية» المتواجدة في ولاية تينيسي Tennessee، أو ولاية كارولينا الجنوبية South Carolina، أو ولاية ألاباما Alabama، والتي يصدف أنها مملوكة لشركات أجنبية ليست مرتبطة بعقود النقابة التقليدية لولايات الشمال.

هذه هي أمريكا التي فاز بها أوباما خلال حملته الانتخابية، وهي التي سوف تتحول إليها جهوده الرامية إلى تحويل المجتمع الأمريكي، وستتولى غرائزه كمنظم مجتمعي مهمة توجيه إستراتيجيته في هذا الأمر. إن شعار حملته الانتخابية الرئيسي «تغيير يمكننا أن نؤمن به» يتخذ معنى مضافًا عندما يعرض في هذا السياق.

إن الخبر السار هو أن النهج الذي يتبعه أوباما في السياسة والحكم يبدو أنه يمثل تطور الأساليب التقليدية المذكورة أعلاه. إن أوباما نشأ في أماكن وثقافات مختلفة، فهو أول رئيس يولد في هاواي Hawaii، وعاش في ظل ثقافة متعددة الأعراق. إن أوباما هو مثال حي على العولمة، كذلك إن عقليته تمثل العكس تمامًا من منهج المنافسة والندية الذي اتبعته الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة.

تتمثـل إحـدى الـرؤى الثاقبة التي يتمتع بهـا الرئيس في إنجـاز مهمته، في إقامة شـبكات اتصال خلال حملته الانتخابية؛ حيث إنه يؤمن بتعدد مصادر المعلومات وصُنع القرار، ويطلق جون كاو John Kao على ذلك: «حاسة استشعار الفرص الممكنة».

عـلى سـبيل المثـال، كان التركيـز في هـذه الحملـة منصبًّـا عـلى زيـادة عـدد أعضاء هـذه الشـبكات أكثر ممـا كان منصبًّـا عـلى جمع أكـبر قـدر مـن المال منهـم. ولذلـك، يعتقد أوباما والإسـتراتيجيون العاملون معه أن توسـيع مصادر الأفكار والأمـوال كان أكثر أهمية من أي مسـاهمة فرديـة أيًّا كان حجمها أو أهميتها؛ نظرًا لأن أي مسـاهم ـ سـواء كان رجـلًا أم امرأة ـ بمجرد ارتباطه بالمساهمة كان أميل إلى الاستمرار في الوجود بهذه الحملة.

إن مثل هذا المنهج يتلاءم تمامًا مع مفاهيم بناء الشبكات الاجتماعية، بل وحتى مع تكوين الجينـوم البـشري، ويبدو أن أوباما يرى العالم باعتباره يشـبه سلسـلة الحمـض النووي، والتي يتصـل فيهـا كل جين مع الآخرين جميعًا، أكثر من كونه سلسـلة من الوحـدات الفردية. يمكن رؤيـة مثل هذه الشـبكات الاجتماعية متمثلـة في الأدوات الجديدة مثل الفيسـبوك Facebook أو يوتيوب YouTube. ولكنها أيضًا توجد في أسـاس الشـبكات المعقدة ـ سـواء كانت تنظيم القاعدة أو إحدى الشركات العالمية الحديثة ـ والتي تعمل بكفاءة على الرغم من أنه لا يبدو أن لديها مركز محدد.

اتخـذ الرئيـس ثلاث خطـوات مهمة في نهاية فبرايـر من عام 2009، من أجـل التأكيد على عزمه والتزامه بأن يصبح رئيسًا تحويليًّا. كانت أول خطوة هي برنامجه التحفيزي الذي تم تمريره في 13 فبرايـر 2009، أمـا الخطـوة الثانيـة كانت خطابه أمـام الكونجـرس في 24 فبراير 2009، وتمثلـت الخطـوة الثالثة في إرسـال ميزانيتـه الأولى إلى الكونجرس بعد بضعـة أيام، وفي خلال أسبوعين، كان قد وضع الأسس اللازمة لوضع رؤية طموحة للمستقبل.

جـاء خطاب الرابع والعشرون من فبرايـر تقريبًا بالكامل عن الأزمة الاقتصادية؛ حيث لم يعطِ السياسـة الخارجية أو العولمة المسـاحة الكافية، لكن كشف النص عن رؤية أمريكية للغاية

لكيفية أمل الرئيس في التعامل مع المشاكل العالمية التي ظهرت نتيجة للأزمة الاقتصادية. وكما هو الحال دائمًا، كان حريصًا على ربط مقترحاته بقصته الأمريكية الشخصية.

«...لكن في حياتي، تعلمت أيضًا أنه يتم العثور على الأمل في أماكن غير متوقعة، وأن هذا الإلهام يأتي في كثير من الأحيان، ليس من أولئك الذين لديهم السلطة أو الشهرة، ولكن من أحلام وأماني الأمريكيين الذين هم أبعد ما يكونون عن الأشخاص العاديين... إن هذه الكلمات، وهذه القصص تخبرنا شيئًا عن روح الأشخاص الذين أرسلونا هنا، إنها تخبرنا بأنه حتى في أشد الأوقات العصيبة، ووسط أصعب الظروف، هناك كرم، ومرونة، وحشمة وعزم مستمر...».

لاحظ الجملة الحاسمة «روح الأشخاص الذين أرسلونا هنا»، المقصود بهذا بالطبع هم أجدادنا الذين قرروا مغادرة منازلهم من أجل مستقبل أمريكا غير المؤكد. إن أوباما يربط دعوته إلى اتخاذ إجراءات بالقصة الأمريكية بشكل مباشر.

إن التركيز على كتابة وإعادة كتابة الرواية الأمريكية هو جوهر السياسي باراك أوباما، وهو يصف أهدافه عن طريق ربطها بتاريخ الشعب الأمريكي وليس بالاعتماد على مفردات الجهاز السياسي بواشنطن، وبقيامه بذلك، فهو يؤكد على وجود مطالبة بالقيادة الفكرية لتحديد المستقبل، والذي يسمو فوق خلافات الجهاز السياسي.

تعززت هذه المطالبة من أجل قيادة فكرية في 26 فبراير بتقديم ميزانية أوباما الأولى إلى الكونجرس؛ حيث جاءت تلك الميزانية لتمثل جدول أعمال تحويليًا جريئًا، والذي وصفه أوباما بأنه «الفرار من ماضي مضطرب». كان من الواضح أن هدفه هو عكس الاتجاه المحافظ والحكومي الصغير، الذي بدأ في سنوات ريجان، وهو الأمر الذي سيجعل من الحكومة مركز للجهود الكبيرة المبذولة لتغيير اتجاه المجتمع الأمريكي بعيدًا عن القوى السابقة غير المنضبطة للسوق، وانطلاقًا نحو إجماع اجتماعي موجه.

اختار أوباما الثلاث مناطق التي سيتم تركيز الجهود عليها وهي: الرعاية الصحية والطاقة والتعليم، لقد عرضت الأهداف بنبرة ملهمة. ذكرت مقدمة الميزانية المقترحة ما يلي: «هذا هو الإرث الذي ورثناه ـ إنه إرث من سوء الإدارة وسوء تحديد الأولويات، وفرص ضائعة ومشاكل هيكلية عميقة، والتي تم تجاهلها لفترة طويلة جدًّا». لقد اختفت «نظرية الانسياب» الخاصة بسنوات ريجان، والتي جادلت بأن المكاسب الموجودة على القمة تساعد أيضًا المستويات الأكثر فقرًا من المجتمع. إن رسالة أوباما واضحة، وهي أن الحكومة يجب أن تقود.

بعد أن فاز أوباما بالموافقة على خطته لتحقيق الاستقرار بثلاثة أصوات فقط من أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، أعلن العديد من المعلقين أن جهوده في حمل الحزبين على التعاون قد باءت بالفشل، وكان رد فعل الرئيس هو التأكيد أكثر على رسالته للوحدة. علق مدير حملته ديفيد أكسلرود David Axelrod على عدم اهتمام أوباما بالنميمة السياسية في واشنطن، قائلًا: «لهذا السبب كان مقر الحملة الانتخابية في شيكاغو بدلًا من واشنطن»، وهذا هو السبب الذي دفع أوباما إلى السفر إلى دنفر Denver للتوقيع على مشروع إقرار القانون وتفعيله.

هذا هو الحال في مدن مثل شيكاجو ودنفر؛ حيث يتم مناقشة مستقبل المنهج الأمريكي للتعامل مع العولمة، ويتم اتخاذ القرار بخصوص هذا الأمر في نهاية المطاف. إن العمليات الاقتصادية الجديدة الخاصة بعالم العولمة تؤثر على الأفراد المواطنين بشكل مباشر؛ بحيث أصبح يجب أن يتم تعريفها ضمن فئة جديدة. إن العولمة ليست مصدر قلق وطني بحت، ولكنها أيضًا ليست مجرد مسألة سياسة خارجية فقط. بدلًا من ذلك، هي تمثل نظامًا جديدًا يربط بين السوق المحلية بالعالم. نجد أنه في عالم معولم تؤثر الأحداث المحلية غالبًا على جميع أنحاء العالم؛ حيث إن إغلاق مصانع السيارات في ميتشيجان Michigan يكون له اليوم تأثير مباشر على العمال في فولفسبورج Wolfsburg أو تورينو Torino، وهو الأمر الذي لم يكن ليحدث منذ 30 عامًا.

لم يتعلم السياسيون ولا كبار رجال الأعمال لدينا حتى الآن كيفية التحدث مع بعضهم البعض حول هذه المشاكل، ولا يمتلك أي من دبلوماسيينا أو قادتنا العسكريين الوسائل

اللازمـة لتركيـب القطع اللازمـة لهذا اللغـز، ومن غير المحتمـل أنهم سـيمتلكونها في يوم من الأيام، ولكن سيعرض الرئيس أوباما بالتأكيد أسسًا جديدة لهذا الحوار.

سـوف يكون إطار عمل الغد أشـبه باتفاقات هلسـنكي Helsinki، والتي تمثل التزامات غـير رسـمية واردة في ميثـاق متفق عليـه، ويخضع تنفيذهـا للنقاش والحـوار، ولكن لا توجد عقوبات قانونية للفشل في تحقيقها.

يوجـد مثـال ممتاز على هـذا المبدأ في العمل، هو اقتراح سـوق عبر أطلـسي جديد، والذي قدمته في عام 2008 المستشـارة الألمانية أنجيلا ميركل Angela Merkel. وأسست على أساس اقتراح المستشارة ميركل كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، المجلس الاقتصادي عبر الأطلسي، والذي يراعي وجود وسـائل لتنسـيق المعايير التجارية والمالية بين الولايات المتحدة وأوروبا، وبالتالي جعل عملية العولمة أكثر كفاءة.

يوجد مثال آخر في الميدان السـياسي، هو فرق تقصي الحقائق التي أنشـئت في دولة جنوب أفريقيـا بعـد نهايـة حقبـة التمييـز العنـصري Apartheid، وبدلًا مـن إجراء تحقيقات رسـمية ومحاكمة المتهمين بانتهاك الحقوق الأساسـية خلال تلك الحقبة، أنشـأت جنوب أفريقيا طريقة أخرى لاكتشاف الحقيقة من خلال المناقشة والتحقيقات غير الرسمية.

يتضـح من هـذا المنظـور، أن وصـول بـاراك أوباما والسياسـة الجديـدة لجيـل الألفية في الولايات المتحدة قد يكون حدثًا ذا أهمية خاصة، وكما وضحنا سابقًا في هذا الكتاب، إن أوباما ليس ملزمًا بأي من الأنماط الإستراتيجية السياسية التقليدية. يخلو ناخبو أوباما بشكل عام من الشـعور بالغضـب نحو الحروب الثقافية التي أثقلت كاهل كل مـن كلينتون وبوش. إن أوباما ليس حرًّا في التصرف كما يشاء، ولكن مناشدته المعنوية والعاطفية قوية.

إذا أردنـا أن نجـد نوعًا ما من النظام في عالم معولم، سـيتعين على الرئيس الأمريكي الأخذ بزمام المبادرة من أجل تحديد المعايير التي سـوف يسـتند إليها التكامل في المسـتقبل. إنها ليست

مهمة يمكن أن تكتمل في غضون شهر أو حتى عام، بل هي أقرب إلى عملية بناء الديمقراطية في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، مما هي عليه في حالة إصلاح تكنولوجي سريع لجهاز حاسب آلي حديث.

كان بناء الديمقراطية في أوروبا التي مزقتها الحرب يمثل تحديًا لجيل كامل، هكذا أيضًا يجب أن تكون مهمة العثور على معنى جديد للنظام في مجتمع عالمي متكامل، والتي يمكن تعريفها بأنها رؤية القيادات القادمة في بداية القرن الحادي والعشرين. منح عمل أوباما كمنظم مجتمعي شعورًا بالحركة أو النشاط، ووضح مدى صعوبة تغيير القواعد الشعبية، ولكن أصبحت قاعدته الشعبية الآن هي العالم، فدعونا نرى ما إذا كانت أساليب عمله ترقي لمستوى التطبيق على هذا المستوى أيضًا أم لا.

الفصل التاسع

تدني رجل دافوس

عُقد في شهر يناير من كل عام على مدى السنوات الثمانية والثلاثين الماضية، المنتدى الاقتصادي العالمي في مدينة دافوس، ولهذا أصبحت سويسرا مكان التجمع الأول للنخبة السياسية والاقتصادية في العالم، والتي يتزامن صعودها للشهرة مع النمو الهائل للأسواق المالية وولادة العولمة.

إن التوسع الاقتصادي المثير للإعجاب الذي أعقب الانتصار الأمريكي على التضخم في عام 1982 ونهاية الشيوعية في عام 1990، صنع طبقة عالمية من الصناعيين والممولين الذين يبدو أن قدرهم هو تحديد مستقبل العالم، لقد كانوا فخورين بإنجازاتهم، وبعد وقت ليس بقليل أصبحوا متغطرسين، فهم يمثلون علامة تجارية لما أصبح يعرف باسم «الرأسمالية التوربينية» والتي أُعلنت لقبًا للنظرة المستقبلية للعالم المعولم.

اشتهرت دافوس بالعروض الفخمة للثروات، فضلًا عن وجود تشكيلة متنوعة من المناقشات؛ حيث كانت تمثل مسرحًا مميزًا بالنسبة للقادة الأمريكيين في مجال المال والأعمال، وبينما زاد النشاط، أصبحت دافوس تمثل تقريبًا رمزًا لحقبة جديدة من «العولمة»، والتي تم تطبيقها على الهياكل الجديدة، والتكامل العالمي المتزايد وتوسيع أسواق رأس المال التي عملت بدورها على تغذية النمو التكنولوجي. بدأت الحكومات تتراجع إلى الخلف، وهو الأمر الذي يعتبره الكثيرون غير ذي صلة بهذه العملية.

لم يكن منتدى دافوس 2009 بارزًا فقط بسبب زواره من أصحاب المقام العالي ومناقشاته المتألقة، ولكن بسبب ما لم يقال ومن لم يحضر؛ حيث غاب عشرات من المشاركون الذين أثاروا الكثير من الإعجاب في العام السابق؛ لأنهم ببساطة قد فقدوا وظائفهم، فعلى سبيل المثال، جون ثين John Thain، الرئيس السابق لبورصة نيويورك، والذي كان قد عُين للتو كرئيس لبنك ميريل لينش Merrill Lynch، وسواء كان هذا الكلام مبررًا أم لا، أصبح ثين رمزًا لعدم الاكتراث والجشع والأنانية التي أصبحت تمثل بدورها الصورة النمطية للقطب المالي المنهار.

اعتقد البعض الآخر، خصوصًا من العاملين في القطاع المالي، أن القرار الأكثر حكمة هو قرار عدم الظهور؛ حيث لم تعد هناك نظريات عظيمة أو رائعة يمكن تقديمها فيما يخص النمو القائم على آليات السوق، ولا توجد أي مطالبات بالنسبة لمستقبل الشبكات المالية المتنامية، والأهم من ذلك، أن الإدارة الأمريكية الجديدة لم ترسل أي تمثيل رفيع المستوى؛ حيث لم يتم تعيين أحد حتى الآن أو أنهم مشغولون جدًا في التعامل مع الأزمة المالية العالمية.

حضر بدلًا عن ذلك عدد من السياسيين، ومما يدعو إلى السخرية أن من سيطر على جدول الأعمال هم سياسيون ينتمون إلى بلدان معروفة بعدم موالاتها لمبادئ السوق الحرة؛ حيث جذب رئيس الوزراء الصيني وين جياباو Wen Jiabao الانتباه إلى الأساس العلمي الذي استندت إليه السياسة الاقتصادية الصينية، وذكر أن الصين ظلت بإصرار على المسار الصحيح.

صرح رئيس الوزراء الروسي بوتين Putin بأن هذا ليس وقت الشماتة، ولكن لم يكن في الاستطاعة عدم تذكير المستمعين بمدى ضعف التوقعات الوردية التي نشرها الأمريكيون في اجتماع دافوس 2008 بالمقارنة مع ما حدث بالفعل، ودعا أيضًا إلى استبدال الدولار كعملة احتياطية بسلة من العملات الثابتة والمُدارة جيدًا، ثم كان هناك خلاف بين رئيس الوزراء التركي والرئيس الإسرائيلي شمعون بيريس Shimon Peres حول قطاع غزة، وبالتأكيد لم يرتقِ ذلك بتصورات الأعوام السابقة.

تلقت الولايات المتحدة، ولا سيما مصرفييها، انتقادات كثيرة؛ حيث انتقد المتحدثون الواحد تلو الآخر سوء التقدير والجشع وقصر النظر العالمي، وخاصة ذلك الموجود بالقطاع المالي الأمريكي. ركزت وصفات الحلول في معظمها على القضايا التي حارب الأمريكيون من أجلها لسنوات ـ هيكلة أكثر، تنظيم أكثر، محاسبة أكثر. بدت الرؤى المستقبلية مختلفة كثيرًا عن تلك التي قُدمت في العام السابق، وبدا واضحًا أن أزمة الائتمان كانت تعني في الواقع ممرًّا للسلطة من الممولين عودة إلى السياسيين والمنظمين.

كان باراك أوباما وفريقه مشغولين في وضع حلول للأزمة في هذه الأثناء في واشنطن، وتعامل مع الأزمة كفرصة رئيسية لوضع بصمته على الاتجاهات التي يتخذها المجتمع الأمريكي في القرن الحادي والعشرين، وجاء عرضه الثلاثي الأجزاء الذي يتكون من خطة التحفيز، وخطابه أمام الكونجرس وميزانيته الفيدرالية الأولى، ليشكل تحولًا دراماتيكيًا في السياسات الاقتصادية لسابقيه. قام أوباما بوضع خطة لدور حكومي رئيسي في مستقبل التنمية الاقتصادية في أمريكا من أجل تحكم حكومي أقل وتحكم أكبر للسوق.

على الرغم من اقتراب باراك أوباما من نهاية أيامه المائة الأولى، لا يمكن القول أن الأمور أصبحت تحت السيطرة بعد؛ حيث كان يجري تطبيق مجموعة متنوعة من المناهج، على أمل أن واحدة أو أكثر سوف تنجح على أرض الواقع، و مع ذلك لا تزال شعبية أوباما مع الشعب الأمريكي قائمة، وظلت شعبيته في استطلاعات الرأي تصل إلى أكثر من 60٪.

إن حقيقة تغيير خطط مواجهة الأزمات أكثر من مرة في معظم الدول الغربية الرائدة هو أمر غير مستغرب. يواجه العالم على الأرجح أسوأ انهيار مالي في التاريخ، ونتيجة لذلك، في عام 2009 وللمرة الأولى منذ سنوات لا يوجد هناك نمو اقتصادي عالمي. إن الخطر على النسيج الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للبلدان في جميع أنحاء العالم هو حقيقي جدًّا وحاد جدًّا، لذلك من المحتمل جدًّا أن الأزمة المالية سوف تشكل بداية لجغرافيا اقتصادية جديدة على هذا الكوكب. يصف مارتن وولف Martin Wolf، الكاتب المالي البارز في صحيفة فاينانشيال

تايمز Financial Times في لندن، الوضع بأنه «أسوأ عالم متوقع».

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟

إن هذا الكتاب يدور حول الولايات المتحدة، ومما لا شك فيه أنه من العدل أن نقول إن كثيرًا من الأزمات الاقتصادية الحادثة في العالم يمكن إرجاعها إلى أحداث نشأت في الولايات المتحدة، كذلك نجد أن الجشع والغطرسة من جانب القطاع المالي هما أيضًا جزء من الصورة، تمامًا كالأيديولوجية القهرية للأسواق الحرة غير المنظمة، والتي زادت بواسطة السياسيين وكبار رجال الأعمال الأمريكيين على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية. يجب علينا أن نوجه الانتقادات عند الحاجة إلى ذلك والتوقف عندها؛ لأنه بغض النظر عن مدى وقوعهم تحت طائلة المسؤولية، فهؤلاء الأفراد هم نتاج الأحداث أكثر منهم نتاج للأسباب.

وصف المنتدى الاقتصادي في اجتماع عام 2009، سقوط هذا النوع الخاص من رجال الأعمال المغامرين الذين عرفوا باسم رجل دافوس. إن المغزى من هذا الحدث يؤثر على أكثر من مجرد المديرين التنفيذيين الذين فقدوا ماء وجههم؛ حيث يعني هذا أيضًا انهيار حاد للثقة في الأشخاص الذين يديرون النظام المالي العالمي بل والنظام نفسه، وتجسدت إحدى نتائج الأزمة كزيادة دراماتيكية في مستوى الغضب والخوف في جميع أنحاء العالم، وتم توجيه هذا الخوف نحو المديرين الذين ينبغي عليهم مساعدتنا للخروج من هذه المعضلة، والتي أصبحت مصداقيتهم على وشك الفناء.

لا يمكن أن يتم إقراض المال واقتراضه دون حفاظ السوق على درجة من الثقة في آلياته وفي الأشخاص القائمين على إدارته، ولكن هذه الثقة قد تبخرت الآن؛ حيث من بين العديد من الشكوك، هناك شيء واحد مؤكد: وهو أن الحكومات لا يمكنها إدارة اقتصاد حديث، لقد أصبحنا بحاجة إلى مديرين ورؤساء بنوك مدربين للحفاظ على عجلة الاقتصاد دائرة. إن كبار رجال الأعمال يتحملون مسؤولية هامة؛ حيث إذا لم يتمكنوا من إعادة بناء الثقة في قدراتهم وأخلاقياتهم على حد سواء، فإن النظام لن يتعافى قريبًا.

أكـد بـاراك أوبامـا على هذه النقطـة صراحة في أول خطـاب له أمام الكونجـرس يوم 24 فبرايـر 2009: «أنـا أعلـم إلى أي حد من غير المحبذ رؤيتي أسـاعد البنـوك في الوقت الراهن، وخصوصًا عندما يعاني الجميع من جزء ما من قراراتهم السيئة. أعدكم ـ أنه يمكنني تفهم هذا الأمـر، لكنني أعرف أيضًا أنه في وقت الأزمة لا نستطيع التحكم في الغضب، أو الاستسلام للسياسة الحالية. إن مهمتي ـ مهمتنا ـ هو حل هذه المشكلة».

إن المفارقـة الأخـرى للأزمة الحاليـة هو المدى الكبـير لنتيجة النجاحـات التي تحققت في العقدين الماضيين. إن هذا الانهيار الحاد لا يثبت أن رأسـمالية السـوق الحر غير ناجحة، بل على العكس، هو دليل على مدى إمكانية نجاح آليات السوق، وأحيانًا نجاحها بشكل جيد جدًا.

إن الدروس المسـتفادة هنا ليسـت أنه ينبغي استبدال النظام؛ بل المهم أكثر هو إيجاد وسيلة لكبـح نزعات التدمير الذاتي التي تظهر في هيكل السـوق، والتي تدور خارج نطاق السـيطرة، كذلك إن طرق القياس المختلفة هي مفيدة لفهمنا، ويمكننا القول بأن الأسواق ضربتها عاصفة مثالية، حتى إنه يمكن تخيل ما قد يحدث عند تجمع كميات ساحقة من رأس المال والتكنولوجيا والفرص في كرة لم يسبق لها مثيل من الطاقة؛ فإن الأمر يصبح شبيه بالانفجار النووي.

حقـق مـؤشر داو جونز Dow Jones الصناعي عام 1982، أقل مـن 1000نقطة، ويمكننا القـول أنـه من حيـث القيمة الحقيقيـة لم يكن أعلى ممـا كان عليـه في عـام 1965، وبحلول عام 1999، حقق أكثر من 10.000 نقطة، وأصبح أعلى بكثير قبل أن ينهار في عام 2008. إن معظم الاقتصاديـين يتفقـون على أن الهبـوط الحاد في معـدل التضخم الأمريكي الـذي رافق الضغط الحـاد لرئيـس مجلس الاحتياطـي الفيدرالي بول فولكـر Paul Volcker للسـيولة في عام 1982 حفز امتداد هذه الفترة من النمو.

سـاعد ذلـك الازدهـار التقـدم السريـع في التكنولوجيـا، وخاصـة التكنولوجيـا العالية للمعلومات، وانخفاض أسـعار الطاقة، وبعد عام 1990 وانهيار الاتحاد السـوفيتي، انبعث من هـذا الحـدث الأخـير احتياطي هائل مـن البشر ورأس المال على حد سـواء، والتـي كان قد تم

التعامل معها بالمواجهة القمعية الأيديولوجية في جميع أنحاء العالم، و لم يكن يمكن التفكير في صعود دول مثل الصين والهند طالما أن الحرب الباردة مستمرة.

تمتعت الولايات المتحدة والعالم بـ 20 عامًا من الرخاء، وانخفاض معدلات التضخم، ومعدلات فائدة منخفضة وتقدم تكنولوجي مذهل. إن انخفاض معدل التضخم الأمريكي جعل الدولار أكثر استقرارًا وأكثر قيمة، كما غذى نمو رأس المال، والاعتماد بقوة على الجمهوريين، لكن وزير الخزانة روبرت روبين Robert Rubin في فترة حكم الرئيس كلينتون Clinton، قد كرر أيضًا أنه ينبغي أن يكون هناك القليل من السيطرة على تدفقات رأس المال قدر الإمكان.

عندما يقترن الأمر بتكنولوجيا المعلومات الحديثة، فهذا يعني أن الدولار الأمريكي يمكنه أن يتدفق بسهولة عبر العالم، ويقوم بتمويل التوسع في كثير من البلدان في آنٍ واحد. على سبيل المثال، استفاد الاقتصاد الألماني المبني على التصدير من هذا التطور بشكل كبير.

ولدت الأسواق المعولمة، وبمجرد أن بدأت دول مثل الصين في جمع الدولارات من فوائض المعاملات التجارية مع الولايات المتحدة، بدأت الخزينة الأمريكية في إعادة استثمار سندات الخزانة الأمريكية، ولتشجيع مثل هذه الاستثمارات، قامت الولايات المتحدة بتخفيف التدفق الحر لرأس المال أكثر من ذلك، وأصبحت الأسواق المالية عالمية أيضًا، وساهم ذلك في النمو والازدهار العالمي، ولكنه كما نرى الآن قد ساهم أيضًا في إصابة العالم بالتضخم والانهيار.

وفقًا للأستاذ روبرت جيه. صامويلسون Robert J. Samuelson: «إن تفكيك ضوابط رأس المال الأمريكي، وانتشار العولمة يكاد يكون من المؤكد أنه أمر كان يحدث بشكل محدود، وربما لم يكن يحدث على الإطلاق، لو لم تقم الولايات المتحدة بالسيطرة على التضخم». العجز التجاري للولايات المتحدة يدعم انتشار العولمة كأمر سياسي عملي، وذلك لأن معظم الحكومات تعتبر مهمة خلق الوظائف عملًا إضافيًّا، وبما أن عجزنا هو فوائضهم...

فـإن كل هذا أعطى قوة الدفع الحقيقية لعولمة السـلع ـ سلاسـل التوريـد العالمية، وكل هذه النوعية من الأشياء».

دخول الفقاعة

عندمـا يكـون الاقتصاد في حالة جيدة في الولايات المتحـدة، يكون الجميع في حالة جيدة، ولا أعنـي بهذا زيادة العائدات الضريبية فقط، ولكن أيضًا الاسـتثمار الخاص في مجال البحوث والتكنولوجيـا، و في المـدارس والجامعـات وفي المؤسسـات الثقافية وفي الاسـتهلاك الخاص. بحلـول الوقت الـذي تولى بيل كلينتون الرئاسـة فيه عـام 1993، كان هناك فائـض في الميزانية الوطنيـة حتى إن وزارة الخزانة نـشرت توقعات حول متى يمكن دفع الدين القومي، وأوقفت وزارة الخزانـة إصـدار السـندات بمـدة 30 سـنة، وتسـاءلت إذا مـا كانت أسـواق السـندات سـتتمكن من النجاة بشـكلها الحالي، هذه هي ميزة مجتمع يمتلك قطاعًا سـكانيًا صغيرًا نسـبيًا ومسـتوى أدنى من الرقابـة الحكومية، ولكنه أيضًا من الخطر لمجتمع مـا، ألا يولي اهتمامًا كافيًا لمراقبة العمليات الاقتصادية.

يبدو حتى الآن الوضع جيدًا جدًا، ولكن الضخامة الاقتصادية يمكنها أيضًا الخروج عـن نطاق السـيطرة. تعرف الثقافة الأمريكية بالتفاؤل والحيويـة والذي غالبًا ما يؤدي إلى فائـض، وكلما بقيـت معدلات التضخـم منخفضة وأصبـح رأس المال أكثـر وفرة، بحث رجال الأعمال الأمريكيون والمسـتهلكين عن سـبل لمضاعفة ذلك أكثر، وأول الأمور التي ترتبت على ذلك حدوث فقاعة التكنولوجيا المتقدمة في أواخر عام 1990 وأزمة دوت كوم dot.com من 2001–2002، وشـعر العالم بآثار هذا التوسـع أيضًا، حيث تم تطوير مراكز جديدة مليئة بالحيوية مثل لندن وهونج كونج وسـنغافورة أيضًا، وأصبح سـوق الإسكان في إسبانيا محمومًا بسرعة، وبدأت الاقتصاديات الناشئة في جميع أنحاء العالم تبدو كرهانات جيدة للمستقبل.

بدأ المستثمرون بعد سنوات عديدة من التوسع في الاعتقاد بأن الأرباح ثابتة وشبه مضمونة، واختفى حساب المخاطر تقريبًا عندما قامت الإستراتيجية الاستثمارية بتسهيل العثور على كل من المستثمرين والمقرضين بشكل متزايد، وقد ذكر روبرت جيه. ساموبلسون: «إن الأوقات الطيبة قد انتهت الآن بشكل سيئ؛ لأن الناس استنتجت استنتاجات خاطئة من رخاء كبير دام لفترة طويلة جدًّا».

من المهم أن نتذكر أن تكوّن مثل هذه الفقاعات وانفجارها لطالما كان أمرًا اعتياديًّا من وجهة نظر تاريخ الاقتصاد العالمي؛ حيث هناك أمثلة كلاسيكية من القرن السابع عشر في هولندا، والقرن الثامن عشر في بريطانيا العظمى. حاولت حكومة الولايات المتحدة استخدام أساليب مختلفة لتجنب حدوث أزمة في الأسواق المالية الجديدة وغير المستقرة خلال القرن التاسع عشر وبدايات مطلع القرن العشرين، وكان التنظيم الفيدرالي غائبًا في الفترة التي سبقت الحرب الأهلية الأمريكية، وسادت حالات من الذعر في أعوام 1819، 1837، 1857 وحالة من الهلع بدأت في عامي 1860 و1861، ثم تلا الحرب الأهلية في الوقت الذي كان الاقتصاد فيه محكومًا من قبل البنك الوطني الأمريكي، وقوع حالات من الذعر المصرفي في أعوام 1893، 1873، 1907، وحالة من الفزع بدأت في عامي 1884 و 1890.

يعتقد بعض الاقتصاديين أن الولايات المتحدة تواجه في الواقع ما يسمى «ركود طويل» الذي استمر من عام 1873 حتى عام 1896، وبعد إصدار قانون الاحتياطي الفيدرالي في عام 1913، كانت هناك أربع حالات ذعر شملت القطاع المصرفي بالكامل، حالة في عام 1930، وحالتان في عام 1931، و حالة في عام 1933 وحالة واحدة محلية من الذعر في شيكاجو في عام 1932.

إنه من الجيد أن نتذكر أن الفترة من عام 1865 حتى عام 1900 تسمى أحيانًا «العصر المذهب» في الولايات المتحدة، ويرجع ذلك في معظمه إلى النمو الاقتصادي الكبير، وارتفاع مستوى المعيشة وتراكم ثروات هائلة خلال تلك الفترة؛ حيث كانت تلك الفترة تمثل عصر

من التوسـع الهائل في مجالي الاسـتثمار والصناعة، وهو الأمر الذي لا يختلف عن العشرين عامًا الماضية، وعلى سبيل المثال تم مد أميال من السكك الحديدية والتي وصلت إلى أكثر من الضعف بين عامي 1880 و1900، وشهدت تلك الفترة أيضًا ثورة في مجال التكنولوجيا المتقدمة، والتي شهدت اختراع المصباح الكهربائي، والهاتف، والسيارة، والفونوغراف.

الأمريكيـون لديهم ثقة لا تنتهي في قدرتهم عـلى التنظيم الذاتي، والإصلاح الذاتي لطبيعة مجتمعهم، ونجد أن تاريخ القرن التاسع عشر هو جزء لا يتجزأ من الرواية الأمريكية التي تعمل بمثابة سجل لنجاحهم، ويعتقد الأمريكيون أنه إذا ازدهرت فكرة ما داخل الرواية الأمريكية، فلابد أن تكون ذات قيمة. أظهر الأمريكيون ما دعاه البروفيسور صامويل هنتنجتون Samuel Huntington في إحدى المرات «وعد التناقض»، ويعني هذا الاعتقاد بأنهم يستطيعون السيطرة على أكثر مما في وسـعهم السـيطرة عليه بالفعل، وبينما كان التوسع الكبير يجني قوة دفع كبيرة في أواخر القرن العشرين، كان من المسـتحيل على الأمريكيين تقريبًا أن يؤمنوا بأن الأسواق الحرة لن تكون قادرة على التنظيم الذاتي أو أنه سـيكون هناك الكثير من الضرر إذا سـمح لهم بتطوير العائدات.

إن أكثـر الأمثلـة دراماتيكية والدالة على كيفية مسـاهمة هذه العقليـة في عملية الانهيار هو القضية البسـيطة لملكية المنازل، ويمثل الأساس الذي تقوم عليه أزمة الرهن العقاري الثانوي. إن امتـلاك منـزل، أو امتـلاك العقارات السـكنية بشـكل عام، هـي عادة منتشرة بشـكل أكبر في الولايـات المتحـدة عن البلاد ذات مسـتوى التنمية المماثل، وعلى سـبيل المثـال يصل المعدل الأمريكي إلى حوالي 67٪، وهو أعلى من المعدل في ألمانيا بـ 20٪.

إن الأمريكيـين ينتقلون في أغلب الأحيان، ويشـترون ويبيعون المنازل في كثير من الأحيان وهم أكثر اسـتعدادًا للتعامل مع إقامتهم كاسـتثمار قابل للاستبدال أكثر من الشعوب في البلدان الأخرى. يستفيد الساسة من زيادة معدلات الفائدة على ملكية المنازل كدليل على نجاح سياساتهم في دعم العائلة الأمريكية، وينظر الأمريكيون لملكية المنازل كأنها حق مكتسب بالميلاد.

في واقـع الأمر، يجب علينا على الأرجح أن نضيف الرئيس كلينتون إلى القائمة الطويلة من الأشخاص الذين يستحقون نصيبًا من اللوم على فقاعة الإسكان والكساد، ففي منتصف التسـعينيات ـ قامت إدارته ببذل جهد كبير لزيادة معدل تملك المنازل على مسـتوى الدولة، وقامـت لهذا الغرض بترويج ورقـة دفع أوليـة paper-thin down payment، ودفعت من أجـل حمل المقرضين عـلى منح قروض الرهن العقاري إلى المشـترين للمـرة الأولى من ذوي التمويـل والدخـل الهش. دفع تـآكل معايير الإقراض الأسـعار إلى الأعلى بزيـادة الطلب، وأدت لاحقًا إلى موجات من التخلف عن السداد من قبل الأشخاص الذين لم ينبغي عليهم شراء منزل في المقام الأول. واصل الرئيس بوش هذه الممارسـات؛ لأنها تلازمت مع أهدافه الخاصـة بملكية المجتمـع، وطبعًا كان الكونجرس يؤيد بوش بقـوة، وبذلك أصبح الانهيار تقريبًا أمرًا محتومًا.

أزمة على نطاق عالمي

بغض النظر عن أهمية الأداء الأمريكي تجاه الأزمة الراهنة، فالمشـاكل والحلول هي عالمية في نطاقها على حد سـواء، وربما تكون أمريكا هي من أنشـأت الرهن العقاري الثانوي، ولكن البنوك الأجنبية التي تسـعى إلى عوائد أعلى في عصر انخفاض معدلات أسـعار الفائدة، كانت قد اشترتها بكمية كبيرة. يقدر صندوق النقد الدولي أن أكثر من 1.5 تريليون سند رهن عقاري مدعـوم تـم شراؤها من قبل بنـوك من جميع أنحاء العـالم. أصبحت المؤسسـات المالية الكبرى في فرنسـا، وألمانيـا، وسـويسرا، وبلجيكا والمملكـة المتحدة معرضة للتهديد بالإفلاس بسـبب استثماراتهم الضخمة في هذه المشتقات المالية للرهن العقاري.

ناريـمان بيهرافيـش Nariman Behravesh كبـير الاقتصاديـين في آي إتـش إس جلوبال إنسـايت HIS Global Insight يناقش بأن ما نقوم بمشاهدته هو فقاعة الائتمان العالمية الناجمة عـن مزيج من إمدادات وفيرة مـن رأس المال واختفاء المخاطرة كمفهـوم في المعاملات المالية،

ويعتقد أن أزمة الرهن العقاري الثانوي كانت إحدى أعراض العاصفة المقبلة، وليست سببًا لها، ويشير بيهرافيش أيضًا إلى الارتفاع الكبير في أسعار السلع الأساسية في جميع أنحاء العالم بعد عام 2005 كدليل على قاعدة أوسع للأزمة.

انشغلت الحكومات حول العالم في صياغة برامج لإنعاش بنوكها واقتصادياتها، متشاورين في ذلك مع جيرانهم وشركائهم، وكذلك التفكير في الآثار المترتبة على تلك الأزمة، ومع كمية الأموال الكبيرة المشاركة، كان من المنطقي أن يتم الاتفاق على معظم برامج الدعم على أساس وطني، ولا يمكن لمؤسسة أو مجموعة من المؤسسات تعويض تريليونات الدولارات التي تم إنفاقها حتى الآن، بل من المحتمل أن يتم إنفاق المزيد.

عالج الرئيس أوباما الأزمة بالطموح والطاقة التي وعد بجلبها إلى وظيفته؛ حيث في خلال الأسبوعين الأولين من توليه منصبه، قام بالتعاون مع فريقه بوضع سلسلة من التوصيات، ووضع برنامج شامل للتحفيز للحصول على موافقة الكونجرس، وبالرغم من وعده بالعمل على أساس الحزبين الجمهوري والديمقراطي فإنه لم يكن على استعداد لتغيير أفكاره بما فيه الكفاية لجذب عدد كبير من أصوات الجمهوريين المعارضة . أقر برنامجه بالسماح بمشاركة ثلاثة أعضاء فقط من مجلس الشيوخ الجمهوريين، وهكذا أصبح إنقاذ الاقتصاد الأمريكي مسألة مصادمات حزبية.

عقب التصويت، ارتفع استطلاع الرأي العام حول الرئيس أوباما إلى 63٪، وبعد هذه المعركة الأولى حول الأزمة الاقتصادية، ظل الحكم العام على برنامج الرئيس وقياداته عاليًا جدًّا، وألقى اللوم على الجمهوريين لعدم تعاونهم، ولكن الرئيس يعلم جيدًا أنه من المقرر إقامة انتخابات الكونجرس في عام 2010، وسوف يكون موقفه السياسي قد ألحق به خسائر كبيرة إذا لم يتحسن الاقتصاد بحلول ذلك الوقت.

يبدو أن الرئيس يعتقد أن اتخاذ إجراءات سريعة ودراماتيكية أمر ضروري للسيطرة على الوضع، ويذكرنا نهجه هذا بنهج (فرانكلين روزفلت) وأول مائة يوم له في عام 1933، حيث

كـرس أوباما تقريبًا معظم الخطاب الأول له أمـام الكونجرس في 24 فبراير 2009، عن الأزمة الاقتصاديـة، وتحـدث بصراحة ووصـف خططه بالتفصيـل. وفيًا لماضيه، دعـا الرئيس الروح الأمريكية باعتبارها الأساس للجهود التي يبذلها:

«إن التاريخ يذكرنا بأنه في كل لحظة من لحظات الاضطراب الاقتصادي والتحول، قامت هذه الأمـة بالـرد عن طريق اتخاذ إجراءات جريئة واعتناق أفكار كبيرة... نحن أمة رأت الوعد وسـط المخاطر، وانتهزت الفرصة وسط المحنة، لقد حان الوقت أن نكون تلك الأمة مرة أخرى».

إن مناقشات برامج التحفيز ليست سوى جزء من المشكلة؛ حيث تواجه الكثير من الأمم الصناعيـة مسـألة ما إذا كان دعمها للبنوك والـشركات الصناعية قد أضعفها إلى حد الإفلاس من جراء هذه الأزمة.

إن مأسـاة كيفية مسـاعدة ومتى مسـاعدة الشركات للبقـاء على قيد الحياة مـن المرجح أن تكون من أهم جوانب النقاش العام في كل من أوروبا والولايات المتحدة لفترة من الوقت.

كانـت العلاقة بين الحكومة والاقتصاد دائمًا من الموضوعات الصعبة التناول في الولايات المتحدة، وسـيؤدي منهج أوباما في ترتيب أولويات الميزانية والذي يترتب عليه دفع التوازن إلى حـد كبـير في اتجاه التدخل الحكومي إلى تسـخين الأمور أكثر من ذلـك. إن افتقار الجمهوريين إلى القدرة على طرح برنامجهم الخاص، جعلهم يركزون انتقاداتهم على مقترحات الرئيس بشأن قضية التدخل الحكومي؛ مما جعل من المرجح أن تكون هذه هي السـمة الرئيسـية لأول عامين من ولاية أوباما، وباستناده إلى منهجه حتى الآن فإنه خاطر بتلقي انتقادات شديدة إذا لم تثبت فعالية مقترحاته.

إن الحكومـات ستسـعى أيضًا على المدى الطويل للوصول لأفضل السـبل الممكنة لإعادة هيكلـة النظـام المـالي العالمي، وذلـك في محاولة للتأكـد من أن مثل هـذه الأزمة لـن تتكرر مرة أخرى. سـوف تصبح التسـاؤلات حول الهيـكل التنظيمي، وكيفية تعزيـز النظام ودور البنوك والمؤسسـات المالية الأخرى هي القضية المحورية للمجتمع الدولي لعدد من السنوات القادمة،

كذلك سوف تؤثر تلك الأزمة على الاقتصاديات الأضعف في العالم، سواء كان ذلك في أوروبا أو أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية.

يا للسخرية، حتى وقت قريب كانت كل من أوروبا والصين واليابان تشكو من التنظيم الأمريكي الأكثر من اللازم للأعمال التجارية والمالية. إن المطالبة بمتطلبات الإبلاغ الصارمة، والتصديق على البيانات المالية، والمسؤولية الشخصية لأعضاء مجلس الإدارة، تمت بعد فضيحتي إنرون Enron وورلدكوم WorldCom في أواخر التسعينيات، وذلك كجزء من تشريع قانون ساربينز أوكسلي Sarbanes-Oxley، وهو ما اعتبرته العديد من الشركات الأجنبية تشريعًا مرهقًا وغير عادل، والعدد الذي تخلى عن تسجيله ببورصة نيويورك ليس بالعدد الصغير والذي فضل ذلك على أن يخضع لتلك القواعد.

إن الأوروبيين هم الذين يطالبون برقابة تنظيمية أكثر صرامة للأسواق المالية الآن، وإذا ما كانت الأنماط السابقة تعطي أي دليل على المستقبل، فإن الضغط من أجل فرض ضوابط جديدة وتنظيم جديد مرة أخرى من المحتمل أن يذهب إلى أبعد مما يعتقد معظمنا أنه ينبغي. إن مثل رد الفعل القوي هذا يمثل جزءًا من طبيعة الحياة السياسية؛ حيث عندما تحدث كارثة، تريد القيادات السياسية أن تثبت أنها ستكون متأكدة بشكل مضاعف أنه لن تتكرر تلك الكارثة مرة أخرى.

أهمية الأسطول السادس بالنسبة للولايات المتحدة

إن العديد من هذه القضايا ستكون حاسمة سواء بالنسبة للولايات المتحدة، سواء لسياستها الاقتصادية في المستقبل أو دورها في جميع أنحاء العالم، ويمكن ملاحظة عمق المخاوف في الطريقة التي كان المسؤولون الأمريكيون بها على استعداد لتجاهل وجهات النظر القائمة منذ فترة طويلة وذلك من أجل المساعدة على تحفيز الاقتصاد، كذلك هم ينضمون إلى زملائهم الأوربيين في الضغط من أجل المزيد من التنظيم للأسواق المالية،

ويريـد الأمريكيـون أيضًا أن تتم إدارة السـوق بسلاسـة وصدق، وأن يكونـوا قادرين على مواصلـة جـذب رؤوس الأموال وأفضـل العقول في الأسـواق المالية إلى هيـكل رأس مال أمريكي منفتح وحيوي.

إن تأميـم البنـوك، وتقديم دعم كبير للشركات الصناعية مثل صناعة السـيارات، وتقديم إعانـات ضخمـة لأصحاب الرهـن العقاري، وحتـى الدعم المـالي لصناديق المجازفـة العالية لمسـاعدتهم عـلى شراء ديون الرهـن العقاري السـيئة، معظم هذه الأفـكار كان يمكن أن تعتبر بدعة فقط منذ عام سبق.

يعتبر من الأمور الأساسـية بالنسـبة للولايـات المتحدة وبقية العالم تأثـير تلك الأزمة على قدرة أمريكا على النهوض بمسؤولياتها اتجاه العالم. لن يعني فقط نهاية ما يسمى بعصر الليبرالية الجديدة، أنه سـيجب على الولايات المتحدة مشـاركة الدول في السلطة، ولكن سيعني أيضًا أنه لا يمكـن أن تكـون الملاذ الأخير للمسـتهلك والتي دعمـت الكثير من اقتصاديـات العالم كما فعلت لسنوات عديدة؟

أشـار المؤرخ البريطاني نيال فيرجسـون Niall Ferguson في مقال له نشر مؤخرًا إلى إن » النظـام المـالي في الولايات المتحدة كان جزءًا مـن القوة الأمريكية على مدى السـنوات الثلاثين الماضية، تمامًا كالأسـطول السـادس». هل يمكن اعتبار أن الانهيار الوشـيك لهذا النظام خلال النصف الأخير من عام 2008، يعادل غرق حاملة طائرات كبيرة؟

اعتقـد ذلـك بالتأكيد الكثير من الأشـخاص في 21 فبراير من عام 2009، عندما شـكرت بشـدة وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون الزعماء الصينيين لاستمرارهم في شراء سندات خزينة الولايـات المتحـدة، وفي نفس الوقـت تقريبًا قللت من شـأن الخلافات حول حقوق الإنسـان بـين الحكومتين، ولقـد صرحت للصحفيين قبـل أن تغادر، بأن حقوق الإنسـان «لا يمكن أن تتعـارض مع التعـاون بين الولايات المتحدة والصـين فيما يتعلق، بالأزمـة الاقتصادية العالمية، أزمـة تغير المناخ العالمـي، والأزمة الأمنيـة»، وتظاهرت العديد من جماعات حقوق الإنسـان،

مذكرة بأن وزيرة الخارجية هي من قامت بطرح مثل هذه القضايا خلال مؤتمر المرأة في بكين في عام 1995 بشكل صريح ومباشر.

علقت صحيفة وول ستريت Wall Street المحافظة: «إن بيان (الوزيرة) قد يشير إلى تغير مقلق في السياسة الأمريكية. لقد نظرت الإدارات السابقة الخاصة بالطرفين على حد سواء إلى حقوق الإنسان باعتبارها قضية مهمة... ولكن آخر المؤشرات في تصريحات السيدة كلينتون إلى بكين أنه يمكن لقادتها تجاهل الحقوق مع إفلات نسبي من العقاب».

إن هذه ليست هي آخر مرة ستستمع إدارة أوباما فيها لقضية حقوق الإنسان في الصين، وهم يواجهون معضلة حقيقية بالفعل هذه المرة؛ حيث نادرًا ما كان هناك شك في مستقبل الاقتصاد العالمي أو أن يخضع دور الولايات المتحدة للتساؤل في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ونادرًا ما كانت الولايات المتحدة تعتمد على دعم أمة واحدة كما هو الحال الآن مع الصين.

تدل الأحداث التي وقعت في الصين على أنه سيكون هناك وقت طويل قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من التعامل مع تبجح جورج بوش George Bush الذي ذهب إلى الحرب في العراق من دون الاستفادة من الدعم العالمي، ومن دون وضع إستراتيجية على المدى الطويل ومع فكرة بسيطة عما يمكن أن تكلفه هذه العملية. بالنسبة للمستقبل المنظور، ستعاني الحكومات الأمريكية من القصور النقدي، والذي سيصعب معه الوفاء بالالتزامات الخاصة بالتعاقدات الأجنبية المحدودة.

كتب البروفسور بول كنيدي Paul Kennedy في صحيفة وول ستريت جورنال في 14 يناير من عام 2009: «... إن الآلام السياسية والاقتصادية لعدة سنوات قادمة سوف تعوق بشدة كثيرًا من الرؤى المعروضة في الحملة الانتخابية لأوباما. سوف تضطر هذه الأمة لقبول بعض الخيارات الصعبة على المستوى المحلي. لا ينبغي علينا أن نتوقع، حتى على الرغم من تلك الموجة الهائلة من حسن النوايا تجاه أمريكا، أي زيادة في قدرتنا النسبية للتصرف على المستوى الخارجي بشكل حاسم أو بأي صورة ملموسة. سيشغل البيت الأبيض شخص رائع، ذو

شـخصية جذابة وذكية، ولكن للأسـف في أصعـب الظروف التي واجهتهـا الولايات المتحدة منذ عام 1933 أو عام 1945».

إن الأمريكيين لا يتسـاءلون عن مسـتقبل الرأسـمالية كما يفعل العديد من الأوروبيين، في الواقع، نحن لا نسـتخدم حتى تلك الكلمة، فبالنسـبة لنا تمثل الرأسمالية مصطلحًا يقتصر على بارونات القرن التاسع عشر اللصوص قساة القلوب.

لكنهم لا ينتابهم القلق بشأن ما إذا كانت الولايات المتحدة وشركاؤها قادرين على استعادة الاسـتقرار اللازم للحفاظ على نظام عالمي اقتصادي تقدمي، ونحن نتسـاءل عن الكيفية التي سـتتضرر مـن خلالهـا الجغرافيـا الاقتصادية للولايـات المتحدة مـن جراء خسـارة رأس المال والصناعة، والذي يدل عليه الانكماش الاقتصادي الكبير المقبلين عليه.

يواجهنـي تاريـخ بلدي بشـكل مباشر عندما أنظـر إلى الآثار المترتبة عـلى الوضع الجديد. عندما كنت طفلًا في ديترويت Detroit في عام 1950، أهم شـخص في المدينة كان رئيس شركة جنـرال موتـورز General Motors، عندما كان يتحدث كنا نسـتمع لـه بعناية أكثر من رئيس الولايات المتحدة، أما الآن يوجد الرئيس الحالي لجنرال موتورز في واشنطن، من أجل استجداء الحصـول عـلى إعانـات حكومية، ولا عجـب إذ كان باراك أوباما متشـككًا حـول اتفاقية نافتا Nafta للتجارة الحرة، خلال حملة انتخابات عام 2008.

لا عجب أنني لا أستطيع أن أصدق عيني وأذني عندما أسمع عن المليارات من الدولارات التـي تطلبها شركات السـيارات من الحكومـة، وأنا حزين حقًّا عندما أرى مسـتقبل الشركات التابعة لجنرال موتورز في أوروبا تصبح جزءًا من مناقشة الإفلاس.

كانت ديترويت إحدى المدن الأكثر حيوية وإنتاجية في الولايات المتحدة، أما الآن تم اعتبارها واحدة من أكثر المدن «فراغًا» في أمريكا من قبل تلفزيون إيه بي سي ABC TV. لن تختفي ديترويت، ولكنها سوف تصبح أصغر حجمًا والأكثر فقرًا على مدى العقدين المقبلين من الزمن.

يتكـرر هذا الاتجاه أينما وجـدت الصناعـة التحويلية، وكنتيجـة لذلك، مـن المحتمل أن تواجه أمريكا أنماطًا جديدة من النمو والتسوية والتي تعكس إعادة الهيكلة الاقتصادية العميقة الحادثة، وسـيتغير تركيب البلاد بشـكل كبير، وسيتغير معها سـلوك أمريكا في العالم. إن جولة المفاوضات التجارية الجديدة من المرجح أن تكون طويلة في المسـتقبل المقبل. في الغالب سـيتم التخلي عن دور «الملاذ الأخير للمستهلك».

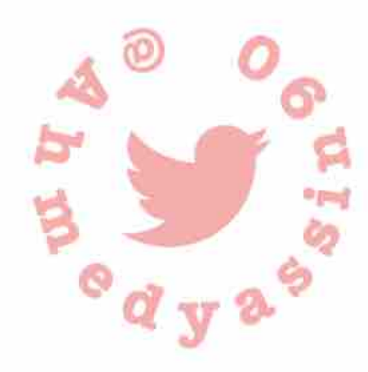
لن يختفي فجأة هذا الزخم من ثورة تكنولوجيا المعلومات، والأنواع الجديدة من العمليات الصناعية المتقدمة التي ظهرت في العقدين الماضيين، وعادات التفكير من جانب المديرين الذين اعتـادوا على الوصول للأسـواق والموردين، وتمامًا كما في القرن التاسـع عـشر، لا تزال فترات الأزمات هذه من المحتمل أن تشـهد تقدمًا تكنولوجيًّا وصناعيًّا، كذلك من المرجح أن يسـتمر التكامل العالمي.

لكـن مـن المرجح أن تكـون هناك إعـادة تعريف للسياسـة الاقتصادية في معظـم البلدان الصناعية، مع إعادة هيكلة مصاحبة من مجموعة واسـعة من العلاقات السياسية والاقتصادية. أعطـت قمـة مجموعة العشرين الكبـار التي انعقدت في الثاني من إبريل إشـارة واضحة للأمور المسـتقبلية. سـوف يعود التنظيم وسـيطرة الحكومة، كما سـيتم تشـديد الرقابة عـلى الشركات وإدارتها. سـتبدو الأنـماط الاقتصادية في الغرب وجميـع أنحاء العالم على المـدى الطويل مختلفة كثيرًا عما كان متوقعًا قبل عام فقط.

سوف يحيا رجل دافوس بالتأكيد بطريقة أو بأخرى، ولا يمكن أن يعمل النظام الاقتصادي المعقد المعولم من دون مديرين من ذوي الخبرة، والذين ليسـوا خائفين من خوض المجازفة من أجـل إدخال التكنولوجيا الجديدة وفتح أسـواق جديدة، إلا أنه سـحر المرحلـة الأولى للعولمة سـوف يتراجـع إلى حد كبير، وربما سـيدخل المزيد من التوازن وحتـى التواضع إلى النظام. إنها تمثل جزءًا صغيرًا للعزاء من كل الآلام التي شهدها الكثير من الأشخاص، لكننا ومن المحتمل أن نكون جميعًا أفضل حالًا بفضل هذه التجربة.

إن الحماس الناجم على وجه الخصوص من النمو الهائل في موارد رأس المال العالمي وسهولة انتقال الأموال من خلال الاتصالات المحوسبة، قاد إلى انفجار نقدي غير مدعوم بأصول حقيقية، ومن المرجح أن تستغرق المجتمعات المصرفية والحكومية سنوات لنهوض من حطام الإعسار المالي الذي أصاب الأصول للعثور على القيمة الحقيقية للأصول الرأسمالية والمالية المتبقية في العالم. في غضون ذلك، فإن الاقتصاد في جميع الدول يعاني من أزمة ثقة، وسوف تكون النتيجة الركود وربما الضعف.

إن ما يجري أمام أعيننا ليس بالضرورة يمثل سوء تصرف بضعة آلاف من المصرفيين، على الرغم من كون أن أداءهم موضع شك، إلا أن التغيير هو الأمر الأكثر جوهرية؛ حيث يمثل إعادة ترتيب لخريطة العالم النفسية والسياسية، وليس ذلك من الناحية الحدودية، ولكن من حيث أنماط الاتصال والفكر التي استندت ولسنوات على العالم الذي نتج عن الحرب العالمية الثانية.



الفصل العاشر

السيطرة على العالم

تجمعت في 6 فبراير 2009 النخب السياسية/ العسكرية العالمية في ألمانيا من أجل المؤتمر السنوي للأمن في ميونيخ Munich، وعلى النقيض من اجتماع القادة الاقتصاديين ورجال الأعمال قبل أسبوعين في دافوس Davos، لم يأتِ هذا التجمع كبيرًا. لم يرسل الرئيس أوباما ممثلًا رفيع المستوى إلى دافوس، هذا في حال ما لم يعتبر الرئيس السابق الرئيس بيل كلينتون Bill Clinton كذلك؛ حيث كان فريقه الاقتصادي مشغولًا جدًّا في التعامل مع الأزمة الاقتصادية الحقيقية، وذلك بدلًا من قضاء الوقت في دافوس، كذلك تم قضاء معظم الوقت بالمؤتمر في انتقاد السياسة الأمريكية والقيادة الاقتصادية.

من ناحية أخرى تم إرسال وفد رفيع المستوى إلى ميونيخ يتضمن نائب الرئيس ومستشار الأمن القومي، وممثلًا عن أفغانستان، وعددًا من أعضاء الكونجرس، كذلك كان من المقرر حضور عددا من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين مثل، جون ماكين John McCain، وجون كيري John Kerry، وعدد من كبار المسؤولين، وتعذر ذلك لوجوب حضورهم من أجل القيام بتصويت هام على برنامج الرئيس الاقتصادي التحفيزي، والذي كان محددًا له نهاية الأسبوع.

لماذا يوجد هذا الاختلاف في الحضور والجو العام؟ يرجع ذلك إلى أن الدور الذي تضطلع به الولايات المتحدة في السياسة الخارجية، والأمن يختلف كثيرًا عن ذلك الذي تلعبه في عالم التجارة والاقتصاد والمالية، ولا تزال الولايات المتحدة هي أكثر الدول أهمية في المجالات

الاقتصادية والمالية حتى الآن، لكنها لم تعد تستطيع الهيمنة كما كان الحال في الماضي. إن أمريكا قوية ومؤثرة، ولكنها تحتل المرتبة الأولى فقط بين أقران مقتربين منها في المستوى.

تحتفظ الولايات المتحدة بتفوقها في المنطقة التي تحدد العنصر الثاني الهام في الاضطراب العالمي الجديد. حيثما كانت السياسة الخارجية والأمنية «التقليدية» موضع اهتمام، لا يوجد بلد أو مجموعة من البلدان على وجه الأرض لديها الموارد والخبرة أو الحس الإستراتيجي المملوك للولايات المتحدة، ولا يوجد منافس لهذا الدور يلوح في الأفق حتى الآن.

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية بعد ستين عامًا من الهيمنة العالمية تمتلك بنية تحتية وتسليح وأدوات دبلوماسية ومهارات، تتفوق بها على أي من تلك المملوكة لأي بلد آخر أو مجموعة من البلدان. لا يمكن أن يكون هناك أمل في وجود نظام عالمي مستقر، من دون الالتزام الأمريكي والقيادة الأمريكية. لا تزال الولايات المتحدة قوة لا يمكن الاستغناء عنها، وبصرف النظر عما قد يقوله قادة العالم علنًا أو ماهية اتجاهاتهم، إلا أنهم يتصرفون طبقًا لذلك الأمر.

انخفضت قدرة أمريكا على الوفاء بمسؤولياتها الدولية خلال السنوات الثماني الماضية بشكل خطير، حتى الدول غير الصديقة للولايات المتحدة، أصبحت قلقة من انخفاض تأثير ومصداقية القوة الوحيدة في العالم، وبالتالي جاء حفل استقبال فريق أوباما في ميونيخ إيجابيًا، وانعقدت آمال المستمعين على قيام الإدارة الجديدة بإعادة دور القيادة العالمية إلى الولايات المتحدة.

إن مدى انخفاض النفوذ الأمريكي أمر مطروح للمناقشة، وقياسًا على معايير محددة للقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لا تزال الولايات المتحدة متقدمة بفارق كبير عن بقية دول العالم مجتمعة، ولكن لا يمكن قياس الدبلوماسية كميًا؛ حيث نجد أنه في العالم الحديث المكون من شبكات عالية التقنية، يتحدد تأثير أمة واحدة أو مجموعة من الأمم إلى حد كبير بقدرتها على حشد شركاء في السعي نحو تحقيق هدف محدد، تمامًا كما هو الحال في امتلاك وسائل لتدمير دول أخرى. ناقش كثيرًا جورج كينان George Kennan مسألة أنه تم تحديد قوة أمريكا على المستوى الخارجي إلى حد كبير بناء على الأمثلة التي وضعت على المستوى

القومـي، وبنـاء على هـذا المقياس، نجد أن نفـوذ الولايات المتحدة تراجع بشـكل كبير خلال السنوات الثماني الماضية.

كـما لو كانـت إرادة العناية الإلهية أن يتم التأكيد على هذه النقطة من خلال وجود الدكتور هنـري كيسـنجر Henry Kissinger أول المتحدثـين في المؤتمـر؛ حيث يمثل الدكتور كيسـنجر المعيار الدولي للامتياز في مجال تحليل السياسات وصياغتها في مجال الدبلوماسية والأمن القومي، وعلى الرغم من بلوغه عمر الخامسة والثمانين فإنه لا يزال يتفوق بكثير على أي شخص آخر في العالم عند مناقشـة تلك الموضوعات، وجعلت هذه الحقيقة الخطاب الذي ألقاه في ميونيخ أكثر تأثيرًا، لأنه جاء كنداء إلى العمل.

لم يضيع دكتور كيسـينجر وقته في الآمال الحالمة، وانتقل مباشرة إلى لب الموضوع، وأصدر نـداء عاجلًا مـن أجل إعادة إحيـاء التعاون الغـربي، وخصوصًا في مجال السـيطرة على امتلاك الأسـلحة النوويـة والتخلـص منهـا. جاء خطابـه عاطفيًّا وذا تأثـير قوي، وبينـما لم يتحدث في الموضـوع بشـكل مبـاشر، إلا أنه كان من الواضـح أنه يفهم إلى أي مـدى انخفض تأثير القوى الأمريكيـة على تحقيق التوازن النـووي، وعندما تحدثت إليه لاحقًـا، أبديت بعض الملاحظات حول النغمة العاطفية التي جاءت في خطابه، فرد قائلًا: «هل لدينا خيار آخر؟».

كان المشـاركون في الاجتـماع عـلى درايـة تامة بـأن الحل الوحيـد هو العمـل الجماعي مرة أخرى من أجل اسـتعادة شـكل ومضمون النظام العالمي، وأنهم في حاجة إلى الولايات المتحدة للقيـام بذلـك. أحاط جو من العجلة على المناقشـات الأخرى أيضًا. تم تدمير أفغانسـتان أمام أعيننا، تحتاج باكسـتان إلى الدعم بشـدة، أصبح الشرق الأوسـط على وشـك الانفجار، تحتاج العلاقـات بـين روسـيا وبقية العالم إلى التحسـن، وكذلـك بالطبع يجب على إيـران الحضور إلى طاولـة المفاوضات. أوضح رئيس البرلمان الإيراني مجموعة من الشـكاوى حول رفض العرب الحضور إلى طاولة المفاوضات، ولكنه تحدث أيضًا بابتهاج عند اهتمام إيران بمعرفة مدى رغبة الولايات المتحدة في التحدث فعلًا.

كان تركيز المؤتمر ينصب على خطاب نائب الرئيس جوزيف بايدن Joseph Biden. اعتاد بايدن الحضور بانتظام إلى هذا الاجتماع لسنوات، ويعرف العديد من الحاضرين شخصيًا. كان دائمًا مبتهجًا ومتفتحًا.

لكن لا يوجد أي خطأ في ذلك، عمت حالة من الحماس، وذلك أثناء تحية وصول بايدن إلى قاعة المحاضرات. لم يتم الترحيب ببايدن باحترام فقط ولكن أيضًا بمزيج من السعادة والارتياح. عند الجلوس في هذه القاعة بميونخ، يستطيع المرء حرفيًا الشعور بإحساس التوقع والانتظار وذلك عند وصول فريق باراك أوباما.

اكتسب مؤتمر ميونخ شهرة واسعة في السنوات الأخيرة، ذلك للمحاورات والمناقشات التي تحدث خلال هذا المؤتمر. أخبر وزير الخارجية الألماني فيشر Fischer عام 2003 وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد Rumsfeld: «أنا آسف، ولكني غير مقتنع» وذلك عند محاولة رامسفيلد إقناعه بقضية غزو العراق. وفى عام 2007، عندما أعاد فلاديمير بوتين Vladimir Putin بعصبية كتابة ملاحظاته في قاعة المحاضرات، وذلك لنقل هذه الملاحظات بصورة تحذير للولايات المتحدة والغرب حتى لا يندفعوا وراء الولايات المتحدة.

الآن وعلى الرغم من كل المشاكل العالمية، يوجد بعض التفاؤل الذي يلمح في الأفق. في الدقائق القليلة قبل أن يبدأ بايدن في التحدث، يستطيع المرء أن يستشعر مدى صعوبة الثماني سنوات التي قضاها جورج بوش في الرئاسة، وذلك للعديد من الدول التي تحضر اجتماع ميونيخ. عند التحدث عن التعددية القطبية ودمج القوى الجديدة، يستطيع كل فرد أن يفهم ذلك بدون الصوت القيادي الأمريكي؛ حيث إن العالم لا يعمل بسلام أو حتى بكفاءة.

يبدو ذلك لو أن تقديرهم للدور الأمريكي تم تقويته، وذلك بغيات الدور الأمريكي خلال الثماني سنوات الماضية، وذلك في الوقت الذي يحتاج العالم فيه هذا الدور بشدة.

يأتي الآن الرئيس الفرنسي ساركوزى Sarkozy وهو يخبر الأوروبيين أنهم يجب أن يتحملوا مسؤولية إقناع الأمريكيين بأنهم كانوا شركاء جيدين وداعمين للأمن، وكان سؤاله هو «هل نريد أن نبني الأمن أو هل نريد حقًا صنع الأمن؟». اعترف سكرتير وزير الدفاع البريطاني «إذا كنا صادقين حول ذلك: فنحن الأوربيين لا نقوم بدورنا في السنوات الأخيرة». تحدث وزير الدفاع الألماني عن المزيد من المساعدة في أفغانستان. أفصح الوزير الكندي عن فخره حول دور بلاده في أفغانستان، وقال إن كندا بدأت في مراجعة تفصيلية لبنائها الدفاعي. ومن المعروف أن كندا ظلت لسنوات طويلة ينقصها البناء الدفاعي.

لم يحبط بايدن مستمعيه. فقد بدأ فورًا بالكلمات: «لقد جئت إلى ميونيخ نيابة عن الإدارة الجديدة التي قررت اعتماد نغمة جديدة في واشنطن، وفي العلاقات الأمريكية حول العالم». فقد أوضح أن إدارة أوباما لا ترى أي صراع بين الأمن الأمريكي والقيم الأمريكية، وهذه هي نقطة الاهتمام والصراع في السنوات الأخيرة. ولكنه أضاف أيضًا «سوف تفعل أمريكا المزيد، ولكن سوف تطلب أمريكا المزيد من شركائها».

وصل بايدن إلى جميع نقط الاهتمام ذات الأهمية لشركاء أمريكا، وأصدقائها وأتباعها حول العالم، مثل الاتحاد من أجل السلام في الشرق الأوسط، التجمع القوي لمحاربة الاحتباس الحراري العالمي، تجديد التحالف الأطلنطي، إعادة تقييم العلاقة بين روسيا... وهكذا. لا يوجد أي شيء مفاجئ في خطابه، لا يوجد أي شيء غير عادى ما عدا الحقيقية التي أوضحها في خطابه. كان من غير الممكن تخيل ديك تشينى Dick Cheney وهو يلقى مثل هذا الخطاب أو أي شخص آخر في إدارة بوش حول هذا الأمر. أصبحت أخبار اليوم هي أن أمريكا قد عادت.

لكن أين عادت أمريكا ولماذا؟ لم يكن بايدن أو أحد من مستمعيه يتوقع أن كلماته سوف تضع الولايات المتحدة في المكان الذي كانت فيه خلال السنوات الأولى لإدارة بوش أو خلال سنوات كلينتون. يعتبر باراك أوباما رئيسًا لأمريكا الجديدة المختلفة عن أمريكا التي رأسها كلينتون.

تعيش أمريكا في عالم مختلف. حتى ضمن التحالف الغربي، يوجد القليل من الاتفاق حول الأهداف الموضوعة في مناطق الأزمة العالمية. يجب إعادة بناء الدبلوماسية والإستراتيجيات، يجب إعادة النظر في بعض الأمور مثل الأزمة الاقتصادية، والاحتباس الحراري العالمي، والتخصيب النووي. يجب تجديد بعض المعاهدات الدولية، وكما أخبرني نائب أمريكي ذات مرة: «أنه يبدو كأننا سنبدأ من البداية مرة أخرى».

نحن ندخل مرحلة جديدة من الآمال للسياسية الخارجية الأمريكية، ولكن العالم قد تغير بطريقة درامية. يبقى حفظ السلام العالمي في الحقيقة مثل «البدء من جديد». من الممكن أن تؤدي الثقة العظيمة التي أبداها بايدن في ميونيخ إلى أنه يتحتم على أمريكا وشركائها الوصول إلى فهم أفضل للاحتمالات القيادية، والأمر الأكثر أهمية هو ما تعنيه القيادة في العالم المتغير في القرن الحادي والعشرين.

الإعسار ونهاية البراءة الأمريكية

ورث الرئيس أوباما عند دخوله مكتبه عبئًا مضاعفًا، اقتصادنا مفلس ومنهار ويجب إعادة بنائه بحرص، كذلك انكسار وسقوط سياستنا الخارجية. يجب الاستماع إلى شخص آخر وهو ريتشارد هلبروك Richard Holbrooke وهو يصف الكارثة الإدارية والمالية للعملية الأمريكية في أفغانستان وذلك لفهم ما وصلت إليه الدبلوماسية الأمريكية. تم تنفيذ العديد من المشروعات العظيمة لتغيير العالم بدون أي فكرة عما ستقدمه هذه المشروعات العملاقة. أصبح ضمان النجاح مضيعة للوقت وفاقد لفاعليته. وبذلك لم تصبح الأموال فقط هي المفقودة.

كذلك ورث أوباما نقص الدبلوماسيين الأكفاء والرصيد العام للتحكم الدولي. تصف ذكريات إدارة بوش مدى أهمية كيفية إقامة السياسة وأهميتها للولايات المتحدة.

تم صنع القرارات بواسطة مجموعات صغيرة بدون الرجوع إلى أي من الأهداف أو المصادر. تم تجاهل الدبلوماسية، وكنتيجة لذلك أصبحت بلادنا في الموقع الأضعف على الأقل منذ 75 سنة.

هناك تطوران مهمان ساهما في إضعاف دور أمريكا في العالم خلال الثماني سنوات الماضية. التطور الأول هو إفلاس السياسة الخارجية وانهيار الحضور السياسي في العالم. التطور الثاني هو فقدان البراءة الأمريكية والتي نتج عنها انتشار الإرهاب.

ساهم السقوط العظيم للثقة القومية في النفس في فقدان البراءة الأمريكية، وذلك بسبب عدة أحداث خارجية خصوصًا مع الهجوم الذي حديث على مبنى التجارة العالمي في سبتمبر 2001. دائمًا ما يعانى الأمريكيون من صعوبة التعامل مع ما يسمى بالذاكرة التاريخية لأنفسهم. عندما لا تتفق الأحداث مع وجهة النظر المقبولة للمواطن الأمريكي، يرفض الأمريكيون ذلك ودائمًا ما يشعروا بالارتباك والخوف. يعتبر خوف الأمريكيين من زيادة قوة هتلر أكبر مثال على رد الفعل الأمريكي للارتباك التاريخي في الثلاثينات. وهذا هو نفس رد الفعل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

كما أخبرني الأستاذ بجامعة ترينتي Trinity، فيجاى براشاد Vijay Prashad: «إن ذكرياتنا الأمريكية عن الأشياء الماضية لا تستطيع أن تدفعنا لفهم جنون الحادي عشر من سبتمبر... أنا أعتقد أن قدرتنا البريئة على النسيان لن تسمح لنا برؤية مثل هذا الشيء يحدث، فحقًّا، نحن نود آن نخرج هؤلاء الأشخاص الذين قاموا بذلك من تفكيرنا. يعنى هذا التفكير أننا نستطيع أن نفعل القليل لتخطي مثل هذه الأحداث الإرهابية المروعة، منذ أن بدأنا في الرجوع إلى المصادر مثل قيامنا بالصلاة لتخطي هذه الأفعال الجنونية المروعة».

كان ذلك هو رد فعل الحكومة الرسمي حول أحداث 11/ 9؛ حيث تجنبت إدارة بوش المناقشات العامة حول سؤال «لماذا» تم اختيار 11/ 9 بدلًا من إعلان الحرب على الإرهاب في كل مكان. تم استخدام هجمات 11/ 9 كأداة لنشر الخوف في الأمة، وذلك لكسب الدعم للخطط الموضوعة لمهاجمة التصرفات الإرهابية الواضحة التي تهاجم الكيان الأمريكي.

كلما تحدث الرئيس أكثر عن الخطر والتهديد الذي تواجهه أمريكا، شعر الأمريكيون أكثر بضعف أمتهم على مواجهة الاضطراب الذي سببه الأعداء الخافون. مثلما غرقت العراق في بحر من الاضطراب والفوضى، تحول المزاج الأمريكي أيضًا إلى مثل هذا الاضطراب والخوف، وكلما اضطرب المزاج الأمريكي أكثر، قلت ثقة العالم في قدرة الولايات المتحدة على معرفة ما تم فعله.

كان الأكثر أهمية من رأي الرئيس المضطرب والغامض هو الإحساس المتنامي بأن البلاد في الاتجاه الخاطئ. كما ذكرنا في الفصول الأولى، تتطلب قدرة أمريكا لحصولها على الثقة بالنفس إعادة الصياغة المستمرة من خلال الكلمة والتعبير الصحيح عن حقائق أسبابها، وذلك لتحقيق المهمة الأمريكية في العالم. من الممكن أن يكون إحساس البراءة المصاحب لهذا المنهج أداة مساعدة في أوقات المحنة، ولكن من الممكن أيضًا أن يؤدى إلى إحساس بفقدان الأمل، وذلك إذا كان الحل غير واضح أو صحيح.

خلال الأيام المظلمة للكساد، دائمًا ما علق الرئيس فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt على مفاجأته بأنه لم يتظاهر الكثير من الأمريكيين في الشوارع مثل ما كان يحدث في أوروبا. كانت إجابته: هذا بسبب أن كل فرد أمريكي يؤمن بأنه أو أنها تستطيع حل الأزمة. جعل هذا الاعتقاد أمريكا تقوم بالأشياء بطريقة أفضل، وهو ما أدى إلى السقوط بشدة بعد أحداث 11/ 9.

تم تفسير الهجوم على مركز التجارة العالمي على أنه هجوم عالمي على أمريكا وما ترمز إليه. نشر هذا الحدث موجة من الخوف وعدم الثقة، وهذا ما لم يشعر به الأمريكيون منذ سنوات في حدث مماثل وهو الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر Pearl Harbor. على عكس الرئيس روزفلت في عام 1941، لم يستطيع جورج بوش تعريف ضد من نحارب أو لماذا؟ بل لقد غاص أعمق في الحيرة والرفض. وازدادت السياسة الخارجية الأمريكية اضطرابًا.

لا يستخدم مصطلح الاضطراب دائمًا مع السياسة الخارجية أو الدبلوماسية بل يستخدم غالبًا مع العمل أو البنوك التي تضطرب، لكن يمكن تطبيق مبادئ العمل بطريقة منطقية في أي منظمة بما يشمل السياسات والحكومة أو السياسة الخارجية.

هل يوجد مصادر كافية لدعم أهداف العملية التي من الممكن أن تكون عملًا أو سياسة خارجية؟ هل الأهداف المرجوة في العمل واقعية؟ هل يحقق المنتج احتياجات خطة العمل؟ وربما يكون الأكثر أهمية هم العملاء الذين سوف يشترون المنتج؟ وعندما تهتم السياسة الخارجية الأمريكية بهذه الأسئلة وتحاول الإجابة عليها، بالتأكيد الإجابة ستكون لا.

طبق المعلق الأمريكي العظيم والتر ليبمان Walter Lippmann هذا المقياس حول السياسة الخارجية الأمريكية منذ أكثر من 65 عامًا في كتاب صغير باسم «السياسة الخارجية الأمريكية، حماية الجمهورية». تم نشر هذا الكتاب في الأيام المظلمة أثناء الحرب العالمية الثانية في عام 1943. أصبح تحليله للسياسة الخارجية الأمريكية نصًا كلاسيكيًا مرجعيًا لهؤلاء الذين يريدون فهم أسس النظام المكون للسياسة الخارجية الأمريكية.

استخدم ليبمان تحليله لشرح سبب فشل الدبلوماسية الأمريكية في العشرينيات والثلاثينيات الشديد في وقف نزيف الحرب العالمية الثانية، وذلك على الرغم من القوة المجتمعة التي اجتمعت لإنهاء الحرب العالمية الأولى. كشاب صغير، حضر ليبمان مؤتمر فرساي Versailles للسلام وكان داعمًا قويًا للمشاركة الأمريكية في قمة الأمم. كان إحساسه بالإحباط حول هزيمة الحرب العالمية الثانية شخصية وكذلك تاريخية. كان ليبمان ضمن مجموعة من القادة الأمريكيين الذين شعروا بإحساس الذنب حول مجموعة الأحداث التي حدثت في أوروبا بعد عزل الأمريكيين من هيئة الأمم. كان ليبمان يحاول في كتابه اكتشاف ما الذي يحدث بطريقة خاطئة.

راجع ليبمان السياسة الخارجية الأمريكية منذ بداية الجمهورية. عرف ليبمان مذهب مونرو Monroe Doctrine رسميًا في عام 1823 على أنه الأساس للإخلاص المتزايد حول قدرة أمريكا

في الحصول على الدعم الخارجي. تم وضع مذهب مونرو كرد فعل للضغوط الممارسة من إسبانيا وأي مكان بالبلاد المستقلة الجديدة والتي حديثًا ما تخلصت من الحكم العسكري الاسباني في أمريكا اللاتينية. أعطت الولايات المتحدة لنفسها الحق في الحصول على الأمن في النصف الغربي، وتم التحدث عن المزاعم الكبيرة حول جمهورية صغيرة بدون أي قوة عسكرية.

وصف ليبمان المشاورات الحذرة بين الرئيس مونرو James Monroe والممثلين البريطانيين على أنه هو الفعل الذي أدى إلى وضع مذهب مونرو كرد فعل له، كان يأمل المندوبون البريطانيون يأملون في الاستمرار منذ أن تم الإعلان عن المزاعم الأمريكية حول الحق في عالم جديد، والاحتفاظ ببعض القوى الأخرى خصوصًا في فرنسا، وعلى الخليج. كان هدف هذه المبادرة هو الأمل البريطاني في توفير القوى البحرية الضرورية لمواجهة المزاعم الأمريكية.

لحد ما، وضعت الولايات المتحدة في اعتبارها الدخول في تحالف رسمي مع بريطانيا لحماية قدرتها على تطبيق مذهب مونرو، ولكن بعد ذلك قررت أمريكا التعامل عكس ذلك خصوصًا عندما علمت أمريكا أن البريطانيين أنفسهم ما زالوا يحتفظون ببعض المستعمرات في المنطقة.

اعتبر ليبمان فشل مناقشة الدور الأمريكي بطريقة منفتحة أنه غلطة مأساوية لمستقبل التفاهم الأمريكي للأسس السياسة الخارجية. استثمر مونرو وإدارته في الأمن وذلك للتأكد من بقاء الدولة بعيدًا عن الحرب، ولكنهم لم يشرحوا العنصر الأساسي لمذهب مونرو للشعب الأمريكي. جادل ليبمان بأنهم منذ إعلان مذهب مونرو، استطاع الأمريكيون الاعتقاد بأنهم يستطيعون تحقيق أهداف عظيمة في العالم بدون الاستثمار في الموارد الأساسية والدفع مقابلها.

كنتيجة لـ «أسطورة المكان» كما أسميها، والتي تم اختراعها بواسطة الأجيال الناجحة للقادة الأمريكيين لتجنب الاعتراف باستقلالهم في إنجلترا، وكما أشار ليبمان: «في الفترة الطويلة من 1823 إلى 1898، عاشت الأمة في دولة من العزلة: تم الاعتراف بمذهب مونرو والتي اعتمدت على الدعم البريطاني في المياه بدون إحداث أي تفاهم للدفاع الموجود في الجزء

الغربي، والذي يتطلب في الواقع وجود البحرية الأمريكية». طبقًا لكلمات ليبمان، فإن سياستنا الخارجية مفلسة.

كما أشار المؤرخ البريطاني نيل فيرجسون Neill Ferguson، تم تكرار هذا التصرف في الحقبة الحديثة. فقد جادل بأن القيادة الأمريكية للعالم تعاني من ثلاثة أعراض حادة: نقص الموارد الاقتصادية، ونقص القوى البشرية وعلاوة على ذلك نقص الانتباه السياسي. حاول الرؤساء إلقاء خطابات عظيمة أو الثقة في حدسهم في الأوقات الصعبة والشؤون السياسية الخارجية الدقيقة. تعتبر سياسة إدارة كلينتون في البوسنة مثالًا جيدًا حول نقص الانتباه، وبالتالي يطبق هذا المثال على حرب بوش على العراق.

وجد القادة الأمريكيون بسبب الحرب الباردة أنفسهم ينجرفون بسرعة للغة السياسية الخاصة بالقرن التاسع عشر، وقام القادة الأمريكيون بوضع النظريات العظيمة لترتيب العالم بدون أي استثمار للموارد اللازمة لتحقيق ذلك.

نمت الميزانيات الكبيرة العسكرية منذ 1990 بشكل كبير، ولكن معظم هذه الميزانيات كانت لدعم البوسنة، وكوسوفا، والعراق وأفغانستان؛ حيث كانت القوى العسكرية تعمل من أجل إعادة إصلاح لبعض المواقف والخطوات السياسية. كان هناك نقص واضح لدعم الموارد الداعمة لمكافحة التمرد الجديد أو الشراكة الإستراتيجية الجديدة.

كان يوجد بالطبع العديد من الاستثمارات في قدرتنا للتأثير على التحديات الجديدة والعديدة الناشئة بالعالم المعولم. عانت كلٌّ من الخدمة الخارجية والخدمات المخابراتية من القصور المادي وانعدام الثقة السياسية. ما زال اختيار السفراء يتم طبقًا لإسهامتهم في الانتخابات الرئاسية، وذلك بدلًا من الاختيار القائم على سبب منطقي. دعا سكرتير الدفاع جيتس Gates مؤخرًا للمساواة والتكافؤ بين تأثير القوة العسكرية المتزايدة على السياسة الخارجية والدور المتقلص للدبلوماسية المدنية.

الجدير بالذكر أن الرئيس أوباما جذب الانتباه إلى هذا التقليص، وذلك عند تقديم فريقه للأمن القومي للجمهور في ديسمبر 2008. دعا أوباما أيضًا إلى الانتباه لخدمات الدبلوماسيين الأمريكيين حول العالم، ووعد بإعادة بناء الوكالات والمنظمات المدنية. أخذت وزيرة الخارجية كلينتون بعض الخطوات بالفعل لتأسيس منصب نائب وزير، والذي ستنصب وظيفته على الحصول على المواد اللازمة لإعادة بناء الدبلوماسية الأمريكية.

اجتمعت صفتان قاتلتان معًا، الإعسار المالي والذي يعني أنه لا يوجد وقت أو قدرة لتحمل المزيد من التحديات. وفقدان البراءة والذي يعني، أن الحماسة التي طالما ميزت الجهود الأمريكية في العالم قد سقطت في مزاج دفاعي وكئيب تقريبًا.

غرقت الثقة في مستقبل المجتمع الأوروبي الأطلسي وقيم العالم الغربي، بينما انخفضت المصداقية الأمريكية. ظهرت قوى جديدة في آسيا، والتي تبدو أكثر حيوية، وفوق كل هذا أكثر كفاءة من الديمقراطيات الغربية المتهالكة. رفض فلاديمير بوتين أي رغبة روسية في الانضمام لهذا المجتمع الغربي، معللًا ذلك بأن روسيا قد وجدت طريقًا أكثر روحانية وعملية نحو التطور الاقتصادي. يقترح بعض الأوربيين أن مصادر روسيا الآمنة للطاقة تجعلها شريكًا أكثر جاذبية من الولايات المتحدة الأمريكية.

أجندة أعمال مكدسة

واجهت الولايات المتحدة تحديات، ثلاث مرات على الأقل في الستين عامًا الماضية، والتي نتج عنها تساؤلات حول استدامة ريادتها العالمية. التحدي الأول جاء في الخمسينات، عندما منحت الإنجازات العلمية للاتحاد السوفيتي بعض المصداقية لتباهي نيكيتا خروشوف Nikita Khrushchev بأن العالم الشيوعي سوف يدفن العالم الغربي خلال 10 سنوات. سرعان ما محت آثاره جبهة جون إف. كينيدي الجديدة تلك المخاوف، ولكن ليس قبل مواجهة خروتشوف الجريئة للغرب في برلين Berlin وكوبا Cuba والذي وضع العالم على حافة اندلاع حرب نووية.

بدأت بعد عشر سنوات، في ظل ضغوط حرب فيتنام، فضيحة ووترجيت Watergate، أزمة البترول التي أعقبت حرب أكتوبر 1973، فترة من الكساد التضخمي والذي أضعف الاقتصاد الأمريكي والقوة العسكرية بشدة. رحب باليابان وأوروبا كأنواع جديدة من القوى السياسية ـ الاقتصادية، والتي لديها حس تخطيطي وسيطرة مركزية حققت نتائج تفوقت على تلك التي ينتجها النظام الأمريكي الفوضوي وغير المنظم.

ولكن على الرغم مما يبدو عليه من عدم تنظيم، إلا أن هذا النظام الأمريكي جلب مفهومًا جديدًا للثقة في ظل عهد رونالد ريجان وازدهارًا وتطورًا استثماريًّا وتكنولوجيًّا مذهلًا، والذي ترك اليابان وأوروبا وراءه. إن حيوية الثمانينيات جنبًا إلى جنب مع عزم وإصرار ريجان لمواجهة تحدي عسكري سوفييتي آخر من خلال أزمة الصواريخ SS-20، والتي ساهمت في النهاية في سقوط الاتحاد السوفييتي. فاجأت أمريكا الخبراء مرة أخرى في كل مكان بقدرتها على إعادة العدة لعصر جديد.

بناء على تلك التجربة، من المغري أن نقول بأن الولايات المتحدة سوف تنهض مرة أخرى من رماد الإعسار المالي لمواصلة دورها الريادي، ولكن المهمة هذه المرة سوف تصبح أكثر صعوبة، وستجد الولايات المتحدة نفسها تضعف بشدة تمامًا مثلما توضع ريادتها موضع تحدٍّ من قبل على الأقل خمس ثورات متزامنة:

التوسع المذهل لكل من رأس المال والتكنولوجيا، والذي نتج عن تحرير موارد القوى العاملة والمواد الخام عقب انتهاء الحرب الباردة. نستطيع اليوم فقط فهم كيف أعاقت المواجهة الأيديولوجية بين الشرق والغرب، التنمية والإبداع في جميع أنحاء العالم. لم يكن من الممكن ظهور الهند والصين كعمالقة صناعيين جدد، إذا استمر قمع التفكير الحر في ظل الحرب الباردة. أنماط جديدة من الاتصالات العالمية تتطلب نظم سياسية منفتحة والتي تتطور من خلالها، وبينما ننجرف إلى أزمة اقتصادية عالمية جديدة، بدأنا نرى إحداثيات عالمنا التي نعرفها تتغير بشكل مثير أمام أعيننا. لم تعد المنظمات الدولية تخدم احتياجات أعضائها، وفي بعض الأحيان

تخدم الأعضاء الخاطئين. يجب على القوى المتواجدة حاليًّا، خاصة الولايات المتحدة، أن تعمل بجد من أجل مواكبة تغير الخريطة الجسدية والعقلية لعالمنا.

انتشار حالة من عدم الاستقرار، وتتمثل غالبًا في اضطرابات سياسية وعسكرية عنيفة، والتي أحدثتها حالة من عدم اليقين والتي غالبًا ما يتسبب فيها التغييرات الجذرية. أطلقت نهاية الحرب الباردة الصراعات الدينية، والقومية، والجغرافية، والتي كان يعتقد أن التاريخ قد دفنها. حفزت الاضطرابات الاقتصادية الضغوط الإرهابية والفوضوية بنفس الدرجة في العديد من الدول النامية، خاصة في الشرق الأوسط، وأضعف ظهور مراكز قوى جديدة من موقف المؤسسات الدولية الحالة، وذلك بينما أصبح الوعي العالمي أكثر أهمية عن ذي قبل، وإذا استمرت الأزمة الاقتصادية لفترة زمنية أطول، سوف تنشأ صراعات عسكرية وسياسية بسبب حالة القلق الاجتماعي والمنافسة على الموارد.

ظهر من الصراعات الإقليمية الخطر المتزايد حول احتمالية استخدام الأسلحة النووية في عمليات حربية أو إرهابية، وكما قال هنري كيسنجر في ميونيخ: «لقد أصبح انتشار الأسلحة النووية مشكلة إستراتيجية...»، وأطلق عليه «يحتوي على نيران الآلهة». دعا كيسنجر ومسؤولون حكوميون لجدول أعمال نووي للتعامل مع تلك القضايا، ويجب على العالم كله أن يشارك.

ظهور أزمة إنسانية واجتماعية عالمية بسبب تآكل طرق الحياة التقليدية، وذلك بسبب الصراعات العسكرية والسياسية، والتغيرات الكبيرة للأنماط الديموغرافية في العديد من أجزاء العالم. تصارع المجتمعات النامية قضايا الشيخوخة، وانخفاض عدد السكان، في الوقت الذي يجتاح فيه العالم موجة من الشباب غير الراضي. تتجه أنماط الحياة الحالية نحو النهاية، وتجد الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية أنه من المستحيل عليها المواكبة.

تزايد الضغط على القدرة البشرية من أجل الحفاظ على موارد كوكبنا الثمينة. التغير المناخي، وتآكل الغابات والأراضي الزراعية، والصيد الجائر في المحيطات، وازدياد ندرة موارد الطاقة

الجديدة، كل هذا فرض ظهور تساؤلات حول مستقبل الجنس البشري كما نعرفه، وذلك بينما تتحمل الولايات المتحدة، أكبر مستهلك للموارد في العالم، مسؤولية كبيرة في البحث عن طرق للحفاظ على حقوقنا بحكم الميلاد.

تغير قواعد اللعبة

تـم انتخاب أوباما جزئيًـا لأنه أنعش الآمال داخل عقول الناخبـين الأمريكيين والمجتمع الدولي، ولأنه استوعب تلك التحديات، ورأى أنه في استطاعته تغيير طريقة تعامل الولايات المتحـدة معها، وفي ظل وجود الأجندة المفصلة المذكورة أعلاه، وفي ظل الإعسـار الدبلوماسي الذي تمر به أمريكا، لا يمكن للسياسـة الخارجية أن تنجح إذا قام أوباما بتنفيذ الأشـياء ببساطة كما فعل أسلافه.

حتى لو لم يخلف رئيسًـا ذا شعبية، فإن أوباما ليس لديه خيار آخر سوى وضع وجه جديد للسياسة الخارجية الأمريكية، ولكن مجرد تغيير الخطاب الوطني لن يكون كافيًا. عقب سقوط حائـط برلين بعشرين عامًـا، أصبحت هياكل وأهداف السياسـة الخارجيـة منتهية الصلاحية. يجب أن تمتد خطة أوباما من أجل إعادة اختراع أمريكا للسياسـة الخارجية، وذلك حتى بدون وجـود الميراث السـيئ الـذي خلفته إدارة بوش، يجب عـلى أوباما أن يغير جذريًـا طريقة قيادة الولايات المتحدة للعالم.

ناقشـنا في الفصـل الثامـن الكيفية التي يريـد أوباما من خلالهـا أن يصبح رئيسًـا تحويليًا، أوضـح أهدافه في الخارج باسـتخدام نفـس المصطلحات التي اسـتخدمها في الداخل. سـتأتي تصريحات السياسـة الخارجية غالبًا في نفس سـياق الخطاب الأمريكي، تمامًا كما فعل في خطابه في يوليو 2008 في برلين. لن يعكس هذا المنهج أوباما الإنسـان فقط، بل سـيكون مهمًا أيضًا من أجل ترويج أفكاره للشعب الأمريكي. في أمريكا، تشكل السياسة الخارجية إلى حد كبير جزءًا من الحس الوطني للقدرة الأمريكية على الوصول ببيئتها للكمال.

راجعـت الحكومـات الأجنبية بانتظام وفي اسـتياء، الميل الواضح للولايـات المتحدة نحو نبذ الاسـتمرارية والاسـتقرار في سياسـتها الخارجية، وذلك في مقابل الجديـد والإبداع. يأمل العديد أن يسـتطيع أوباما اسـترجاع التواصل مـع الماضي، ولكنها بالضبط عدم الاسـتمرارية تلك المتجسـدة في فلسـفة أوباما، هي مفتاح فهم الكيفية إلى يجب على الرئيس أن يدير بها دور أمريكا في العالم.

إن النظام السـياسي والاقتصادي الأمريكي المنفتح والمثـير للجدل والتي لا يمكن التنبوء بـه في نهايـة المطـاف يغير من نفسـه بانتظـام من خـلال تفاعل الـرؤى، والابتـكار الاجتماعي والتكنولوجي والتي تبقي على الولايات المتحدة في طليعة التغيير. إن الرؤساء الذين يستطيعون تبنـي تلـك العملية الابتكارية الداخلية لدور أمريكا العالمي، يسـتطيعون النجاح كقادة عالميين أيضًا، وهؤلاء لا يفشلون في العادة.

إن الحلفـاء الذيـن يفهمون ذلك المحرك الأسـاسي للعمليـات الابتكارية، سيسـتطيعون التأثير والاستفادة من النتائج.

إن بعض الأمثلة من الماضي قد تكون مفيدة. أحد الأمثلة المؤسفة يعود للرئيس الأمريكي وودرو ويلسـون Woodrow Wilson، الـذي تخفي قراره بدخول الحـرب العالمية الأولى تحت عباءة المثالية الأمريكية.

جاء هدف نقاط ويلسون الأربعة عشرة تفكيك مجموعة القوى التي حكمت أوروبا منذ مؤتمـر فيينا في عام 1815. هاجم ويلسـون أيضًا نظام الحلفاء الذي أتقنه بسـمارك Bismarck بشـدة، وذلـك برفـض نوعيـة المعاهـدات السرية التـي يعتقد أنها قـادت بشـكل تلقائي نحو الحـرب في أوروبـا، وأضاف حسًّـا قويًّا بتقرير المصـير الوطني للقوميات التـي تمثل جزءًا من الإمبراطوريات العظمى ومهاجمة الاسـتيطان، والتي كانـت دومًا تمثل إحدى النقاط الكبرى للولايات المتحدة للنزاع.

استخدم ويلسون هذا النداء المثالي كوسيلة لجذب الجمهور الأمريكي المنعزل من أجل الدخول في الحرب العالمية الأولى. نجح في دخول الحرب، ولكن تبخر دعم الدخول في أي ارتباطات أخرى مع أوروبا تقريبًا بمجرد انتهاء الحرب.

استشعرت القوى الأوروبية المنتصرة مشاكل ويلسون في بلاده؛ مما جعلهم يفرون من رؤاه المثالية كلما كان ذلك ممكنًا. تم مصادرة الأراضي ووقعت ألمانيا تحت وطأة الديون التي خلفتها الحرب، كما خلفت الغضب والقومية وراءها أيضًا. رفض مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة معاهدة فرساي[1] وتم حجب العضوية الأمريكية في الأمم المتحدة. توفي ويلسون كرجل مهزوم، وانسحبت الولايات المتحدة تقريبًا بالكامل من التدخل في الشؤون الأوروبية، ثم تلا هذا اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أشار المؤرخ الثقافي الأمريكي سيمون شارما Simon Scharma إلى أن ويلسون كان مكروهًا من قبل الفرنسيين على وجه الخصوص بسبب إحساسه الزائد بالذات، وفشله في تحقيق النتائج. ترسخ اعتقاد لدي الأوربيين خلال العشرينيات والثلاثينات أن أمريكا دخلت الحرب من أجل تحقيق المكاسب فقط.

ينظر اليوم إلى ويلسون بصفته بطلًا ذا أخطاء، ولكنه ما زال رئيسًا حدد معالم عصره.

حقق هاري ترومان Harry Truman، نتائج أكثر إيجابية من تغير رد فعله المثير على الحصار السوفييتي لبرلين الغربية في عام 1948. غيَّر الجسر الجوي لبرلين من موازين القوى في أوروبا بشكل جذري ودائم، وعزز مكانة الولايات المتحدة كقوة فاعلة في العالم، وعلى الرغم من أنه كان لدى الاتحاد السوفييتي قوة عسكرية ضاربة تحاصر برلين، فإنه بدعم المدينة من خلال الجسر الجوي، قامت الولايات المتحدة بتحييد تلك الميزة وأنقذت الحرية في القطاعات الغربية.

---

(1) معاهدة فرساي: هي المعاهدة التي أسدلت الستار بصورة رسمية على وقائع الحرب العالمية الأولى. وتم التوقيع على المعاهدة بعد مفاوضات استمرت 6 أشهر بعد مؤتمر باريس للسلام عام 1919. (المترجمة).

لعب الجسر الجوي دورًا سياسيًّا مهمًّا أيضًا في الولايات المتحدة. كان ترومان يكافح العديد من الضغوط الانعزالية والتي هزمت ويلسون قبل خمسة وعشرين عامًا مضت، وكان محاصرًا أيضًا من المثاليين الذين حاصروا فرانكلين روزفلت من قبل، والذي آمن بأن الالتزامات الأمريكية الخارجية فيما بعد الحرب سوف تضعف حلمهم الخاص بحكومة عالمية من خلال الأمم المتحدة.

أسكت رد فعل ترومان الدرامي والناجح حول حصار برلين، كلتا المجموعتين. عرفت القوة السوفييتية كتهديد رئيسي على السلام العالمي، وتم قبول الالتزامات الأمريكية السياسية والعسكرية الساعية نحو صد هذا الأمر، كتدبير ضروري. ومن هذا الوقت فصاعدًا، التزمت أمريكا بدورها بصفتها راعي وضامن الحرية والاستقرار في أوروبا وكافة الأنحاء الأخرى.

ومن المفارقات أن انهارت شعبية ترومان بعد مضي خمس سنوات عندما اتبع منطق التدخل الذي اتبعه في برلين، للحصول على موافقة الأمم المتحدة لحشد القوات من أجل إرسالها لصد الغزو الصيني المدعوم لغزو كوريا الجنوبية. اكتسبت الحرب سمعة سيئة للغاية لدرجة أنها أفقدت ترومان شعبيته المحلية بالكامل.

كنت مشاركًا رئيسيًّا في إحدى اللحظات الدرامية في السياسة الدبلوماسية، والتي أظهرت كيف يمكن لرئيس أن يؤثر على كل من التصورات المحلية والخارجية في ظل حدث درامي لتغير الأدوار.

كان هذا هو الخطاب الشهير «حطموا هذا الحائط»، الذي تم إلقاؤه عند بوابة براندنبورج Brandenburg Gate في برلين في 21 يونيو من عام 1987. تم التخطيط لزيارة ريجان للمدينة كحدث احتفالي ليواكب احتفالات المدينة بمرور 750 عامًا على إنشائها، وكان من المقرر أن يكون أحد الرؤساء المقرر زيارتهم في هذا العام، بما في ذلك ملكة بريطانيا، ورؤساء وملوك العديد من الدول الأوروبية المهمة.

بدأ الخطاب يحمل معنى سياسيًّا عندما بدأ يستشعر المسؤولون الأمريكيون أن «قواعد اللعبة» بدأت تفقد مصداقيتها في ألمانيا، وجاءت القواعد في تلك الحالة لتقول بالتزام الجمهورية الفيدرالية وحلفائها الغربيين من حلف الناتو NATO بالحفاظ على حقوق القوى الأربعة والوحدة القانونية لجزأي برلين وألمانيا كأساس لإعادة توحيد أوروبا الديمقراطي في نهاية المطاف، بما في ذلك الأمم الأسيرة في وسط أوروبا.

كانت أسباب تقلص الدعم اللازم لمواجهة الحضور السوفييتي بوسط أوروبا عديدة، ولكن كان التأثير الأقوى هو المناظرة العاطفية لوجود الأسلحة النووية متوسطة المدى بأوروبا، والتي تبعها بفترة قصيرة ظهور المصلح ميخائيل جورباتشوف Mikhail Gorbachev، هما أهم سببين لذلك الأمر.

أرهق القلق العديد من الشرائح الاجتماعية الألمانية بسبب المواجهة العسكرية التي قد تم تجنبها، لقد أرادوا السلام أكثر من أي شيء آخر وبدؤوا بالثقة في المصلح جورباتشوف أكثر مما فعلوا مع رونالد ريجان. بعد تلقي الإشارات من المستشار الفيدرالي في بون Bonn بأن الجمهورية الفيدرالية ترغب في فحص الأفكار المطروحة حول التخلي عن القوى الأربعة ببرلين في مقابل الحصول على بعض التنازلات بالشرق، وتم تحويل خطبة ريجان إلى مستوى أعلى سياسيًّا.

بدلًا من توصيل تهاني وأمنيات عيد الميلاد، وقف ريجان في منتصف الصراع بين الشرق والغرب عند بوابة براندنبورج ببرلين، وقام بتوصيل رسالة التغيير التي غيرت الوضع العام للولايات المتحدة، وذلك من محاولة لتحسين وضعها إلى تغيير وضعها، وذلك من خلال تحدي الروس. يجب قراءة الجملة الدرامية » سيد جورباتشوف، حطم هذا الحائط« طبقًا لهذا السياق، وقد سبق هذه الجملة بفترة طويلة العديد من المحاولات التي تقدم بها الرئيس لفتح الحائط بالوسائل السلمية. جاء معنى هذه الجملة واضحًا؛ حيث لم يكن هدف الولايات المتحدة هو جعل انقسام برلين أكثر إنسانية، ولكن كان الهدف هو إزالة هذا الانقسام بالطرق السلمية.

جـذب هذا الخطاب القليل مـن التعليقات، وذلك بعد إلقائه. اهتمت صحافة واشـنطن الخارجية أكثر بالفضيحة الإيرانية، وفشـلت الصحافة الألمانية في فهم الرسـالة. ولكن الحدث حقق أكثر مما كان يهدف إليه.

تـم تصميم حضـور الرئيس بحرص واهتمام شـديد أكثر من الخطبة التـي ألقاها والجمل الشهيرة العالمية التي تضمنتها. كان حضور الرئيس عند بوابة براندبورج أكبر دليل على الإقناع المحكـم الذي أغضـب قوات غرب ألمانيا مثل ما أغضب قـوات شرق ألمانيا. تم وضع المسرح في زاوية جيدة تسـمح بالرؤية الجيدة لمصوري التليفزيون، وكان المكان محاطًا بالجماهير أكثر مما كان يعتقد ريجان. تبقى هذه الصورة واحدة من أكثر الصور التي يعاد إنتاجها في العالم، وذلك لأنها تنقل درامية اللحظة بدون الحاجة إلى كلمة أو نص يعبر عنها.

اعتقـد بعـض المحللين أن ريجان كان يعتمد على نبرة صوتيـة عنيفة، وذلك ليعظم جهوده المبذولة من أجل عملية نزع السلاح النووي مع الاتحاد السوفييتي. تـم تسجيل كلماته وعباراته بحـرص في العديـد من الدول الأوروبية الهامة وشرق ألمانيـا. لا يوجد مطالب أخرى من بون بخصـوص إعـادة تقييم موقـف برلين. ركزت المناقشـات التي تمت في أوروبـا بعد ثمانية عشر شهرًا على التغيير بشكل أكبر، ثم تلا ذلك بعامين ونصف العام، هدم الحائط.

الهروب من الإعسار

واجه باراك أوباما مهمة التعامل مع السياسـة الخارجية والأمنية، وهذه المهمة ليست مثل المهمة التي يواجهها أثناء تعامله مع الأزمة الاقتصادية؛ حيث حدثت حالة الإعسار في السياسة الخارجية بسبب سوء استخدام الموارد والتعريف الخاطئ للأهداف؛ مما ساعد في إحداث تغير سريع في الموقف العالمي.

كما حدث مع الأزمة الاقتصادية، لقد كان ذلك نتيجة للشخصية الأمريكية وخصوصًا ميل الأمريكيين للاندفاع وراء الحلول الدرامية؛ مما يتسـبب أيضًا في تعقيد المشـكلات، وكما

وضحنا قبل ذلك، يتسبب أيضًا في فقدانهم التعاطف عندما يتعذر تفسير الأمور طبقًا للسياق الأمريكي.

ربما تدعو الثقة العظيمة والحماس اللذان أظهرهما أوباما في تقليل نغمة التشاؤم التي ظهرت بعد أحداث 11/ 9 والحرب على العراق، قد ساهمت بالفعل في تحسين صورة أمريكا عبر البحار، ولكن على المستوى الاقتصادي، ما زال على أوباما أن يواجه ضرورة التعامل مع التحالف الجديد والغامض للدول والتحديات والإستراتيجيات التي سوف تزيد من قوة الولايات المتحدة المؤسسية والعقلية.

كما وصفنا في الفصل التاسع، تعنى عولمة المخاطرة والتهديد والاستثمار والفائدة أن الأنماط الموجودة من العلاقات تعتمد على القواعد التي وضعت في الأربعينيات، والتي سيكون من الصعب الإبقاء عليها.

يواجه قادة العالم اليوم سلسلة من الأحداث والمشكلات مما يسميه الإخصائيون الاجتماعيون الأمريكيون «المشاكل الشريرة»، مثل: وجود مشكلة يكون من الصعب أو المستحيل حلها بسبب عدم وضوح تلك المشكلة أو المتطلبات المتناقضة والتي لا تناسب الأنماط الموجودة للمنظمات الدولية والعلاقات، وسوف يعني تغير القاعدة في هذا السياق التوصل إلى تركيبات جديدة من القضايا واللاعبين، وسوف يظهر عدد من الدوائر الانتخابية المختلفة، وسيتم التعامل مع العديد من أطر العمل المختلفة.

نحن نحتاج فقط إلى التفكير في التحالفات المختلفة الضرورية فقط من أجل مناقشة موضوع التغير المناخي، أو التفكير في موضوع كوريا الشمالية، أو السيطرة على التسليح النووي، وذلك للتوصل إلى فهم أعمق للحقيقة المعقدة للمهمة.

سوف تكون محنة أوباما، كما وصفنا من قبل محنة درامية في مؤتمر ميونيخ، وسوف يجب على الولايات المتحدة أن تكون مبتكرة وحامية للدولة.

يعني هذا أنه عند تعريف دوره كرئيس تحويلي، يجب على أوباما أن يكون دائمًا حذرًا لدور أمريكا الأساسي كقوة تعرف وتوفر الإحساس بالاستقرار والنظام في العالم، ويتطلب القيام بهذا الدور الأخير اتباع كلٍّ من المنهج المحافظ والمتجدد للموضوعات، ويعني المنهج المحافظ أن الولايات المتحدة تقف بثبات في جانب الاستقرار الدولي، ويعني المنهج المتجدد استخدام الولايات المتحدة للأدوات غير العادية أو التحالفات وخلق تعريفات جديدة للأهداف.

أعتقد أنه عند قيام أوباما بالتخطيط لسياسته الخارجية، بالإضافة إلى دراسته لمواقف فرانكلين روزفلت، يجب عليه الدراسة بحذر وحرص لخبرة جيمي كارتر Jimmy Carter. تم انتخاب كارتر في عام 1976 تحت ظروف ليست مختلفة عن الظروف التي ساعدت باراك أوباما على الوصول إلى منصبه. كانت أمريكا تعيش في فضيحة كبرى محلية وحرب تراجيدية، وكان الاقتصاد في الحضيض. كان كارتر دخيلًا ذا خبرات سياسية قليلة وعدت بالتغيير. لقد تولى الرئاسة في ظل وجود موجة من النية الحسنة والآمال المرتفعة.

على الرغم من ذلك، تبين أن كارتر ذو عمق في الرؤية ولكنه ذو قصور في المهارات السياسية؛ حيث لم يستطع كارتر توصيل أفكاره كما يفعل أوباما، ويبدو أيضًا أن أوباما لا يملك أي نية للنظر إلى الوراء أو الأمام لمواقف واشنطن السياسية؛ حيث قامت كل السياسات على هذا الأساس. لقد كان كارتر مهندسًا وليس منظمًا اجتماعيًا مثل أوباما؛ حيث كان ينظر إلى المشاكل من الداخل إلى الخارج.

لم تمر فترة طويلة قبل تجمع معارضيه داخل حزبه ذاته، وشعر الشركاء الخارجيون أيضًا بالارتباك؛ حيث كانت خطابات كارتر عن السياسة الخارجية ثابتة وذات مبادئ، ولكن هذه الخطابات تعبر فقط عن القليل من الفهم والإدراك لما يجب أن يقوم بفعله. على سبيل المثال، نشرت العديد من الكتب التي تتحدث عن صراعات كارتر مع هيلموت شيميت Helmut Schmidt.

كان كارتـر رجـل سـلام؛ حيث بذل جهده وكل ما في وسـعه، ولكن كل هـذه الجهود تم سوء فهمها؛ مما أدى إلى بناء واحدة من أعظم القوى العسكرية في التاريخ الحديث. لقد حاول الوصول إلى العالم الثالث، وتم مكافأته من خلال أزمة الرهائن الإيرانية. لقد كانت آرائه حول حقوق الإنسـان ذات بصـيرة، ولكن أدى ذلـك إلى مزيد من القمع للاختـلاف الدائر بداخل العالم الشـيوعي والذي اسـتمر أكثر من عقد. تم انتخاب كارتر كرئيس بسـبب وعده بالحفاظ عـلى صورة أمريكا في العـالم، وعندما ترك كارتر منصبه، انخفضت الثقـة في الولايات المتحدة إلى أقل مستوى.

بعـد حوالي ثلاثـين عامًا من ترك كارتر لمنصبه، يتم الآن رؤيـة كارتر على أنه المجدد الذي ينقصـه فهـم كيفيـة الوصـول إلى تحقيق أهدافـه. في المقابل، نجـد أن ترتيب موقعـه بين معظم الرؤساء السابقين يبدأ في الانخفاض والتراجع. في محاولة للتغلب عليه في عام 1980، كان على رونالد ريجان بذل المزيد من الجهد وإعطاء الكثير من الوعود؛ لأنه ليس جيمي كارتر.

في بدايـة الحملـة الانتخابيـة لباراك أوباما، بـدا عليه أنه يواجه خطر إعـادة وتكرار بعض أخطاء كارتر، خاصة فيما يتعلق بالسياسـة الخارجية. كانـت رؤاه بعيدة تفتقد النتائج الواقعية. كانـت اقتراحات أوباما حـول التعامل مع الأزمات الدولية تبدو وكأنهـا بدائية خصوصًا عند المقارنـة مع معارضيـه الديمقراطيين. اسـتخدمت هيلاري كلينتون بكفـاءة نقص الخبرة لدى أوباما، وذلك لإظهار عدم قدرته على القيادة الدولية.

كلما اقترب باراك أوباما أكثر من انتخابات الرئاسـة، بدأ في تصحيح تلك الانطباعات. لقـد جـاء خطابـه في برلين على نفس درجـة ما قبل الرئاسـة. أوضح أداء أوبامـا للمناظرات التليفزيونية فهمًا واعيًا للموضوعات وقراءة جيدة لكيفية اسـتخدام القوة والخطاب الوطني للتعامـل مـع القضايـا. محـت قدرته على توصيل رسـالته معظم الشـكوك التـي دارت حول خبرتـه، وتبـدو توقعاته حـول الحاجة إلى الحوار مع إيـران أو موضوع العـراق أنه أمر عادي وسوف يمر بسلام.

استخدم أوباما مدة الشهرين والنصف للانتقال إلى مكتبه الرئاسي لتقوية تلك الصورة. كان اختياره كبار المسؤولين من ذوي الكفاءة العالية. جاء شرح الأهداف المطلوبة واضحًا ومفهومًا. لقد أبقى أوباما موضوع الأزمة الاقتصادية في الخطة وذلك بدون ضمها مباشرة في السياسة. نادرًا ما قام رئيس بالقسم الرئاسي وسط مثل هذا المستوى من الدعم القوى من الجمهور.

عندما أصبح أوباما رئيسًا، عانى من بعض الإحراج خصوصًا فيما يتعلق بمواعيده مع كبار المسؤولين، ولكنه أيضًا حقق بعض النجاحات الهامة. تم استهلاك الشهور الأولى من فترته الرئاسية في الأزمة الاقتصادية.

على الرغم من ذلك، اتخذ الرئيس بعض الخطوات الرمزية الهامة في السياسة الخارجية وذلك لتوضيح أن هناك رياحًا جديدة تهب في واشنطن. لقد وقع أوباما بعض القرارات التنفيذية حول معتقل جوانتانامو وإعادة تنظيم طرق معاملة المساجين الإرهابيين. بعد ذلك، أعلن المحامى العام إيريك هولدر (Eric Holder) أنه يجب إعلان وقف أسلوب الغمر بالمياه كإحدى وسائل التعذيب.

في الصباح، تحدث الرئيس هاتفيًا إلى الرئيس الروسي ميدفيدف (Medvedev) وتبادل معه الحوارات الطويلة والموضوعية. بدون إقامة خط مباشر، أوضح الرئيس أوباما أن التقدم الذي أنجز حول تقليل التهديد النووي القادم من إيران، ربما يجعل من السهل على الولايات المتحدة إعادة التفكير في الحاجة إلى صواريخ الدفاع المقامة في أوروبا.

قام الرئيس أيضًا بعمل مكالمة هاتفية مع الرئيس الفلسطيني عباس، ووافق على إقامة حوار تليفزيوني بمحطة تليفزيونية إسلامية. أعلن الرئيس التوقف في تركيا خلال رحلته الأولى إلى أوروبا في أبريل 2009. تم تعيين السناتور جورج ميتشل (George Mitchell) لإدارة الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وتعيين السفير ريتشارد هالبروك ممثلًا خاصًا في أفغانستان وباكستان. بعد أسبوعين، أعلن الرئيس أنه سوف يتم إرسال 17.000 جندي كقوة إضافية إلى أفغانستان.

كل هـذه الخطوات كانت خطوات مهمة، وعبرت هذه الخطوات عن الفعل ولكنها تبقى دائمًا الخطوات الأولى. كان الأكثر أهمية هو أسلوب القيادة الذي تم اتباعه. تلعب الطريقة التي يقـدم بهـا الرئيس سياسـاته دورًا مهمًا في بنـاء المصداقية لفكره الجديد. تسـاعد هذه الطريقة في كسب الثقة وبناء الأساس للتعاون الحقيقي.

تتميز قيادة أوباما ببعض المميزات الهامة والتي ظهرت واضحة خلال الشـهور الأولى من رئاسته، وتتمثل هذه المميزات في التالي:

أولًا: يعتبر أوباما غير كتوم فيما يتعلق باستخدامه للقوة الرئاسية، فمنذ الأيام الأولى التي قضاها أوباما في مكتبه، بدا في استخدام المبادرات في كلٍّ من القضايا الخارجية والمحلية. ينافس برنامـج أوبامـا الاقتصادي الشـامل الاتفاق الجديد الـذي قام به فرانكلـين روزفلت كحدث تحـولي. يتمنى أوبامـا محاكاة نجاح كل من فرانكلين روزفلت وأبراهام لنكولن، ولكن يجب أن تبقى إخفاقات جيمي كارتر في ذهنه.

ثانيًـا: لا يتردد الرئيس أوباما في إحاطة نفسـه بالمستشـارين الجيديـن؛ حيث يتكون فريق عمل أوباما والبيت الأبيض من الأشخاص ذوي السمعة الجيدة والشخصيات القوية. انتقال حس المسـؤولية من هؤلاء المسـؤولين سـوف يكون قويًا، والذي سوف يزيد ذلك من قدرات أوباما، وكما يقول جون كاو John Kao في كلماته «حاسة استشعار الفرص الممكنة».

ثالثًـا: نظـم أوباما حكومتـه بالطريقة التي تسـمح له بأقصى درجة من الحـوار والتجديد وأقـل درجة مـن التضحية. يعتبر كلٌّ من مجلس الأمن القومـي والمجلس الاقتصادي القومي جزء لا يتجزأ من وظيفة البيت الأبيض في تحفيز الحوار وتنسـيق السياسـة الرسمية بين العديد مـن الهيئات داخل الحكومة. تم توسـيع كلٍّ مـن مجلس الأمن القومـي والمجلس الاقتصادي القومـي. بالإضافـة إلى ذلـك، تـم تعيين ممثلـين خصوصيين لـكل شيء بداية من أفغانسـتان وصـولًا إلى البيئـة، والرعاية الصحية والطاقة البديلة. من الممكـن أن يجلب هذا النظام بعض الاختلافـات والمنافسـين المدمرين، لكن اسـتخدم هذا النظـام لينكولن وروزفلـت من قبل،

وقـد أظهر نتائج جيدة؛ حيث يعتمـد نجاح هذا النظام على مهارات الرئيس، ويبدو أن أوباما يستطيع القيام بذلك.

أخـيرًا، كما توضح الفصول الأخرى، يسـتمر أوباما في بناء اتصالـه المباشر بداخل أمريكا وعـبر البحار من خلال كلٍّ من أدوات الاتصـال التقليدية والحديثة. ينظم أوباما حوارات من خلال مقر إقامته الخاص للتحدث عن الموضوعات الهامة، يجوب أوباما البلاد بانتظام ليتحدث مباشرة مـع المواطنين، وتسـتمر وصلته عـبر الإنترنت في الاتسـاع. تلاحظ أيضًـا الحكومات الأجنبية أن رسالته قد وصلت ليس فقط عبر الصحافة ولكن أيضًا عبر منظماتهم التي تستخدم هذه الوسائل غير التقليدية.

بناء نظام عالمي جديد

إحدى مهام أوباما الرئيسـية هي التحدث عن موضوع المؤسسات العالمية والنظام العالمي الجديـد، وذلك باعتباره رئيسًـا للقـوة العالمية الوحيـدة. كما وأضحنا، تغـيرت ديناميكية الحياة الدوليـة بطريقة دراميـة خلال العشرين عامًا الماضية، حيث إن المؤسسـات بعد الحرب العالمية الثانية لم تعد تعمل كما يجب أن تعمل، ولن تكون محاولة إيجاد هيكل جديد مسألة سهلة أو حتى ذات مدى زمني قصير، وسيتطلب اكتمال البناء استهلاك لجيل بأكمله.

في الحقيقـة، يمكننـا أن نجادل بأن مهمـة إعادة البناء بعد الحرب البـاردة هي إعادة تنظيم العلاقات العالمية بعد الحرب العالمية الثانية.

يعتـبر نظامنـا العالمـي الآن هو نتاج العمل الذي قـام به القادة الذين مـا زالوا في حالة من الصدمـة بعد تداعيات الحرب العالمية الأولى والثانية والكسـاد العظيـم. لقد أراد هؤلاء القادة التأكد من عدم حدوث مثل هذه الأشياء المرعبة مرة أخرى. لقد اعتقدوا أن القواعد الصارمة والبناء الرسمي هما أحسن الطرق لتجنب هذه الأفعال المرعبة. ما دام أن كل قادة العالم يأتون من نفس الخلفية التاريخية والثقافية، فإنه ليس من الصعب إيجاد الحلول المناسبة لمعظم المشاكل.

أصبح باراك أوباما رئيسًا بسبب تقديمه رؤية للتغيير، وهي مختلفة عن رؤية التغيير بعد الحرب العالمية الثانية وهي فترة الحوار المفتوح والتحويل والذي يحمل في طياته الكثير من سمات العالم في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. تناسب آراؤه بشكل جيد عقلية الجيل المتعلم مما يواكب نغمة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات. تركز آراؤه على الانفتاح والشمولية؛ حيث يرى أوباما العالم على أنه شبكة مليئة بالأجزاء المترابطة بدلًا من الوحدات المنفصلة.

عند التطبيق في موضوعات السياسة الخارجية، يختلف هذا التطبيق عن البحث عن إجماع الآراء في الدبلوماسية متعددة الأطراف الكلاسيكية. في المنظمات متعددة الأطراف، يهدف لاعبو السيادة المختلفون إلى إبداء آرائهم خلال بناء تعامل صارم طبقًا للقواعد المقامة. في عالم أوباما، يتم وضع الموضوعات للمناقشة والتعليق من مصادر متعددة. يعتبر تعيين أوباما لاثنين أو حتى ثلاثة مستشارين للعمل على نفس المشكلة أكبر دليل على اتباعه هذه الطريقة. يظهر أوباما على أنه يرى نفسه أكثر من موحد للنظام بدلًا من أن يكون رئيسًا تنفيذيًّا بالمعنى التقليدي.

بدلًا من إصدار الأوامر عبر الهرم الإداري، يبدو أن أوباما يريد أن تتولد الأفكار من مختلف الاتجاهات بالنظام المتكامل، وذلك في ظل إجماع الآراء الناشئ من مصادر متعددة بدلًا من اتباع الطريقة الهرمية في الاستماع للآراء، ويبدو أن أوباما يقوم بإصلاح القواعد التي يمر بها، وذلك أثناء تعامله مع المصادر المختلفة.

وصف الدبلوماسي المراسل الشهير بالواشنطن بوست جيم هوجلاند Jim Hoagland مبدأ أوباما كما يلي: «أوضح أوباما في شهوره الأولى أسلوبه في السياسة الخارجية: فهو يلعب دور الشخص الذي يتمنى أن يكون بدلًا من الشخص الذي هو عليه أو الذي يتعامل معه ـ وبطريقة تفاؤلية، يعتقد أوباما أنه سوف يساعد في تشكيل النتائج ـ لجعلها ملائمة ومناسبة للأعضاء الأقل».

يشـير أوبامـا إلى أداة أخـرى بانتظام عند مناقشـة كيفية إدارة المشـكلات الكريهة للعولمة، وهـى الفـرص التي توفرها قوة الغرب نفسـه. ربما تبـدو هذه الأداة مفاجئـة، لكنها تؤكد على الفترة التعددية التي نعيش فيها الآن.

لكن الغرب القوي والأكثر تأثيرًا لا يقف في مقابل الاتحاد العالمي للعالم المتعدد الأقطاب. يعتقد أوباما بوضوح أن المجتمع الغربي القوي سوف يكون عنصرًا أساسيًا لنجاحه، وكما يردد دائمًا: «... إن العيش وفق قيمنا لا يضعفنا، بل تجعلنا أكثر أمنًا وقوة».

يوجد سبب منطقي استراتيجي للاعتماد الأمريكي على الغرب باعتباره داعمًا أساسيًا للتأثير الأمريكـي. تقـف الولايات المتحدة وحيـدة ومنفصلة في الجانب العقلي والثقـافي، ولكنها قوية في الجوانب الأخرى. يقودنا إحساسـنا بالتفرد إلى سـوء الحسـابات والإخفاقات مثل إخفاقات جورج بوش. تحتاج أمريكا إلى شركاء تشاركهم القواعد الفلسفية، وتناقش أفكارها داخليًا مثل العائلة الواحدة، وعلى الرغم من قوة البلدان الأخرى، يوجد هذا الدعم فقط في الغرب.

إذا رجعنا لحظة إلى والتر ليبمان، نجد أنه حتى في عام 1943، أوضح السبب المنطقي لربط الولايات المتحدة بالمجتمع الأطلنطي.

لقـد جـادل أوباما : «لا يمثـل المحيط الأطلنطي الحـدود بين أوروبـا والأمريكتين، لكنه يمثـل البحر الداخلي لمجتمع من الأمـم متحالف مع مجتمع آخر عن طريق الجغرافيا، والتاريخ والضرورة الحيوية.. يوجد مجتمع عظيم على هذه الأرض حيث لا يستطيع أن ينفصل شخص عنه أو يعتزله. يملك هذا المجتمع مركزه الجغرافي بداخل الحوض الواسع للأطلنطي».

المجتمـع الأطلنطي الـذي نتحدث عنه هنا هو ليس فقط عالم الناتـو أو الاتحاد الأوروبي، وذلك على الرغم من أهميتهما، بل بالأحرى هو عالم من القواعد والقيم التي بنيت عليها البلاد الأطلنطيـة عبر القـرون، ومجتمعين معًا، يكون كتيب العقائد والممارسـات أفضل أسـاس لبناء العدل والرخاء من خلال العالم المعلوم الجديد.

لتحقيق مزيد من الازدهار، يجب على المجتمع العالمي وضع تعريف للسلوكيات المتبعة، وأخلاقيات التعامل مع الآخرين والذي يتناسب مع معايير التصرفات المطلوبة للتعامل مع التكنولوجيا الحديثة والشبكات. ليس من التعصب إدراك أن معايير السلوكيات الغربية هي أفضل السلوكيات المناسبة لهذه المهمة.

أرفق باراك أوباما أهمية عظيمة لهذه النقطة خلال خطبته في برلين: «ما هذا الشيء الذي دائمًا ما يوحدنا، ما هذا الشيء الذي يقود شعبنا، ما الشيء الذي أنزل أبي على شواطئ أمريكا؟ هذا الشيء هو مجموعة المبادئ التي تتحدث عن الإلهامات المشتركة بين كل الناس: نستطيع أن نعيش بدون خوف وبدون الشعور بالحاجة، نحن نتحدث إلى عقولنا، ونتجمع مع من نحبهم ونتعبد كما نريد. هناك بعض الإلهامات التي تربط مصير الأمم في هذه المدينة. تعتبر هذه الإلهامات أكبر من أي شيء يقودنا بعيدًا. بسبب هذه الإلهامات، بدأ مشروع الناقل الجوي. بسبب هذه الإلهامات أصبح الأفراد الأحرار في كل مكان هم شعب برلين. كل هذا بسبب الاقتناع بأن هذه الإلهامات للجيل الجديد، جيلنا، يجب أن تضع بصمتنا على العالم».

كما يوضح أوباما في كلماته وأفكاره، فإنه من الواضح أنه ينوي ليس فقط الاعتماد على الغرب ـ الغرب الديمقراطي الممتد الآن من فنلندا بأوروبا إلى ألاسكا بالمحيط الهادي ـ وذلك عند توسيع الأرضية اللازمة للتغيير العالمي، ينوى أيضًا أوباما استخدام مهاراته في خطاب رسمي لتحريك الغرب نحو الوصول إلى معدلات أعلى مما كانت عليه في السنوات الأخيرة.

في كلمات أخرى، يجب على التحالفات الغربية الأمريكية أن تتقبل القوة الكاملة لآراء أوباما، وطريقته وخطاباته الرسمية، وذلك كجزء من التعاون معه. أوضح ضغط أوباما للوقوف عند بوابة براندبورج بعض الملامح في سياسة برلين الرسمية، ولكن كان ذلك نذيرًا ببعض الأشياء التي سوف تحدث.

لكن ما هو المكان الآخر في العالم الديمقراطي حيث يستطيع أوباما التعامل مع نفس القيم العالية التي خدمته بنجاح في وطنه؟ سوف يكون الغرب قاعدة للأفكار والاتصالات لكن

ليس بالضرورة أن يكون واحدة من المنظمات أو البرامج. ليس للجهود الخاصة التي يبذلها أوباما، ولكن كقاعدة يمكنه من خلالها استخدام نفس المبادئ والقيم مع نفس الطرق التي يستخدمها في الولايات المتحدة.

لا يعني التركيز الجديد على الغرب أن المبادرات القديمة أو طرق القيام بالعمل سوف تستمر بدون أي تغيير. سوف يهدف كلٌّ من العالم الخارجي والمجتمعات أنفسهم إلى اعتماد طرق أكثر اختلافًا عن الطرق التي تعودوا عليها في الماضي. وكما أوضحنا قبل ذلك، لا يخضع باراك أوباما نفسه إلى مجموعة واحدة فقط من مستشاريه أو نمط واحد من عمله، بل سوف يطبق ذلك على المجتمع الغربي كما تم تطبيقه بالولايات المتحدة.

يعني هذا أن الرئيس الجديد سوف ينظر إلى هؤلاء القادة الغربيين الذين يمكن أن يساعدوه في تطبيق أفكاره عمليًا وتوفير البرامج المهنية والحلول. سيكون فهمه محدودًا بالنسبة لمن لا يستطيعون أو لا يريدون التصرف. سوف يكون انفتاحه على الأفكار الجديدة عظيمًا، ولكن تطبيق هذه الأفكار بالقوة هو الأمر الهام للجميع.

الفصل الحادي عشر

البطل الشعبي الأمريكي

«الولايات المتحدة الأمريكية هي أمة فريدة بين سائر الأمم؛ لأنها ولدت في نفس المرحلة البطولية من تاريخها» كان هذا رأي الطبيب النفسي وباحث البطولية جيروم بيرنشتاين Jerome Bernstein فبخلاف الدول الأوروبية لم تمر الولايات المتحدة الأمريكية بنفس مراحل التطور التي مرت بها أوروبا مثل الأرستقراطية والعبودية وبناء المدن وإصلاح البلاد فهي وليدة الحرب.

من يزور عاصمة وليدة الحرب يتأكد من نظرية جيروم بيرنشتاين، فواشنطن والبيئة المحيطة بها عبارة عن مجموعة من الآثار والنصب التذكارية وتماثيل القادة ومقابر الأبطال، فذكريات المعارك داخل وخارج الأمة وبناء النصب التذكارية لا تتوقف.

إن أكثر ذاكرة تتحرك في أعماق الأمة هي بالتأكيد نقطة الصفر للجراح الكبيرة التي سببها الإرهاب في منهاتن Manhaten تليها النصب التذكارية لحرب الاستقلال ضد إنجلترا والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب والحربان العالميتان الأولى والثانية وكوريا وفيتنام والعراق وأفغانستان. وقد قال باراك أوباما في زيارة له لحلف شمال الأطلسي NATO: «إن أصعب مهمة لرئيس هي مواساة عائلة فقدت أحد أفرادها في معركة من أجل الحرية» فبالكاد يوجد صراع عسكري لم تشارك فيه أمريكا أو نصر أو هزيمة في العالم بالخارج لم يتم تخليدها بنصب تذكاري أو بعلم مغروس بدءًا من أيوشيما Iwoshima في المحيط الهادئ إلى قندهار في أفغانستان ـ ولا ننسى الأعلام فوق سطح القمر.

في نفس الوقت الأمريكان شعب محب للسلام وشعب محارب، وهنا يختلط التطور الديمقراطي المستمر بالمنشأ الأصلي، بدءًا من عصر الرواد إلى المفهوم الذاتي العاطفي لأنفسهم باعتبارهم قدوة ـ وأمة بطولية. إن الأمريكان قادمون من كل مكان، وكذلك من وطنهم، لهذا يحتاجون إلى مساحات من الجوانب المشتركة كي يجعلوا ما يبدو غير ملزمٍ ملزمًا، من هذا كان إيمانهم وفخرهم بالتقاليد والمؤسسات وحاجتهم إلى الأفعال البطولية.

نظرًا لأن الولايات المتحدة الأمريكية ولدت في وقت متأخر مقارنة بدول العالم القديم، فإن نماذجها وأبطالها الشعبيين ليسوا متأصلين في التاريخ أو في عالم الأساطير، فيجب أولًا أن يتم تعريفهم إن هذه الدولة ترفع من شأن قادتها كي تجعل منهم أبطالًا، لكن علماء الاجتماع والروائيين وطنوا أبطالهم حيث بدأت أمريكا الأمركة: في الغرب البري وكان المؤرخ فريدريك جاكسون تيرنر Frederic Jackson Turner يعرف في نهاية القرن التاسع عشر معنى الغرب البري:

«إن تاريخنا المبكر يكمن في دراسة البذور الأوروبية التي تطورت حتى أصبحت بيئة أمريكية، ولم توجد الأمركة بهذه السرعة وهذه الفعالية في أي مكان آخر مثلما وجدت في الحياة الحدودية للغرب، ويقصد الأمريكان بكلمة (حدود) معنى مختلفًا تمامًا عما يفهمه الأوروبيون، فهناك خط محدد. أما في أمريكا فالحدود frontiers هي البؤرة الاستيطانية للمدنية، وتدين العقلية الأمريكية بسماتها المميزة للرجال الذين سعوا دائمًا لدفع هذه الحدود إلى الأمام: مواطن القوى الهائلة المقترنة بالفضول الذكي، الحس الابتكاري الذي ينبع من الفن الحيوية المتأججة بالطاقة، والسلطة المطلقة التي تعتبر بدورها جزءًا من الإرداة السلمية».

لقد شبه الرئيس تيودور روزفلت أساطير الحدود بأساطير الأبطال في ألمانيا ورعاة البقر بباورنات الصليب والسرقة:

«لقد كرسوا أنفسهم بنفس تلك الكثافة الجامحة لخدمة الخير أو الشر، وكان لديهم أيضًا ذلك الميل للفظاظة الذي تجلى في القتال المرير ضد الطبيعة البرية، والذي كان دائمًا الأخ التوأم للبطولة».

لقـد تنـاول الكتاب التافهون مثل لويس لامـور Loise L'mour وزين جري Zan Grey عـصر البطولة في الغرب الـبري ـ وطبعًا هوليود من خلال صناعتها لقالـب رعاة البقر النبلاء وبارونـات الماشـية المحتالـين، ولم يبـق بين الخير والشر أيـة ظلال حتى أصبـح لأبطال الغرب شخصيات وسير ذاتية محطمة تم تصويرها من قبل جاري كوبر Gary Cooper وحتى كلينت إيستوود Clint Eastwood.

لكـن العـالم الغربي الحقيقي كان أكثر نمطية وأكثر أهمية مـن عالم الأفلام، ففي عصر رعاة البقـر الكبـار كان كل خامس راعي للأبقار من السـود وكل عاشر من الهنود، فلم تكن مسـألة تمييـز عنـصري وإنـما كان الأمر يتعلق بكيفيـة التعامل مع الوهق والمسـدس، فلم يكن للأصل أي قيمـة وإنـما لإنجـاز المهمة. وفي الغـرب البري كانت الولايـات المتحـدة الأمريكية بالفعل مجتمعًـا متعـدد الثقافات محوره ليس من أين جئنا وإنما أين سـنذهب، كما قالت كوندليزا رايس Condoleeza Rice أول وزيرة خارجية سوداء لأمريكا في السنة الأخيرة من مدتها الوظيفية.

أما في العالم الغربي المثالي كان الأبطال في البداية ودون استثناء من البيض، وفقدوا هويتهم بسـبب الممثلين الذين كانوا يجسـدونهم، مثلًا كانت بيسـبي Bisbee وتومبستون Tombstone أماكن تصوير معركة أوك كورال O.k. Corral تشبه الأضرحة.

في الحـرب العالميـة الثانية لعب الغـرب وظيفته باعتباره الوطن، فقـد امتطى أودي مورفي Audi Morphy وجـون وايـن John Wayne خيولهـم من أجل الولايـات المتحدة الأمريكية، وتحول جون واين إلى شـخصية مقدسـة، فقد خصصت له قاعة بأكلمها في متحف رعاة البقر Cowboymuseum في مدينـة أوكلاهومـا كأنـما السرج الـذي ركب عليه في حياته السـينمائية وعصابة الرأس في طاقيته تحف أصلية، وراجت الشائعات بأن حتى الحاكم السوفييتي ووزعماء أمريـكا الجنوبية يشـاهدون أفـلام جون واين كي يسـتخلصوا منها مفاتيح السياسـة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية.

أصبحت أربطة العنق الصفراء التي ارتداها واين ذات يوم وهو يلعب دور ضابط في سلاح الفرسان رمزًا قوميًّا عندما أخذ الدبلوماسيون الأمريكيون في طهران كرهائن في عام 1979، في الحقيقة هناك أصل آخر لرمزية الشريط الأصفر لكن شعبية الممثلين هي من أضفت على الربطة الصفراء أهمية قومية.

أخذت رايات التضامن تحلق في الأفنية الأمامية لناطحات السحاب حتى عودة الرهائن من إيران، وبالرغم من أن الوطنية في الغرب البري لم تكن موضعًا للسؤال فإنها كانت جزءًا من شخصية راعي البقر المستقيم.

لقد أعجب تيودور روزفلت الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية بأساطير الغرب الفظ، فهو نفسه كان يومًا ما ينتمي إلى الخيالة الأفظاظ «سلاح الفرسان» الذين قادوا الحرب في كوبا، وكان روزفلت يستخدم راعي البقر كرمز لتراث العرق الأمريكي نظرًا للهجرة إلى أمريكا من جميع أنحاء العالم: «إن المشكلة الكبرى للحضارة تكمن في ضمان نمو العناصر القيمة وليست العناصر الأقل قيمة أو العناصر المضرة في الشعب» ومن يقرأ المناقشات التي دارت في هذا الصدد في الكونجرس يصطدم بخطب عن «ضرورة المحافظة على نقاء الدم الأمريكي» أو «الوقاية من الانحطاط المهدد».

كان جليًّا في بداية القرن العشرين أن محسني الجينات الألمانيين سوف يطالعون مفردات هذه المناقشات، وعلى العكس تسبب تطبيق هذه الأفكار كوسيلة للتطهير العرقي من خلال الاشتراكية القومية في انتشار الذعر في أمريكا، وبعد ذلك في استعدادها للحرب، وكان تحرر المرأة ضروريًّا لتوحيد قوى الأمريكيين من مختلف الأعراق في الحرب العالمية .

لكن رفع عزل الوحدات السوداء عن القوات البيضاء جاء في عام 1947 من خلال ترومان Truman. وفي عام 1965 أدخلت فقرة القانون الخاصة بحماية «جودة المادة الوراثية» في علاقة مع قانون الهجرة الجديد في عهد الرئيس جونسون Johnson: «يمكنك الآن... إن أمة تكونت من المهاجرين: ماذا يمكنكم أن تصنعوا من أجل بلدكم؟ وليس في أي بلد

ولدتـم؟» وكـما أكد عالم الاتصـالات سـانفورد أونجـارن Sanford Ungarn في كتابه «الدم الطـازج frisches Blut feststellt» أن الإنجازات التي يحققها المهاجرون لبلادنا أكبر من أي ضرر يمكنهم أن يسببوه».

أمريكا ـ حلقة العربات Wagenburg

من ضمن الأسـاطير التي انتشرت حول الغرب البري أسـطورة حلقـة العربات، فعندما كان الـرواد يشـعرون أثنـاء رحلاتهـم باقـتراب العدو كانـوا يركبـون عرباتهم الكونيسـتوجا Conestoga في شـكل دائرة يسـتخدمونها كحلقة دفاع، وعندما ينتهي الخطر ويحرزون النصر كانوا يواصلون رحلتهم كأن شيئًا لم يحدث، وفي نهاية الفتح استطاع أحفاد الرواد تأمين وطنهم بنفس الطريقة.

فقـد كانـت لديهم خنادق طبيعيـة في الشرق والغـرب، وهي المحيـط الأطلنطي والمحيط الهـادئ، وكانـوا يحمـون الجناح الشـمالي ضـد كندا بالعقـود، وبنوا عـلى الحدود المكسـيكية في الجنـوب سـورًا بـه فتحات كان دائـمًا منيعًا، وعلى طول البلاد نشروا شـبكة مـن الجبهات فأي مـكان في الولايـات المتحدة لا يبعد أكثر من 80 ميلًا عن أحد المنشـآت العسـكرية، وإذا جرؤ عدو ما على الهجوم فإن أمريكا تأخذ في البداية وضع القنفذ ثم ترد الضربة.

كان الأمـر كذلـك بعد الهجـوم الياباني على بيرل هاربـور Pearl Harbor الـذي جاء بعد هدنة من التسليح القوي ثم حرب صارمة، وهذا ما حدث أيضًا بعد الهجوم على مركز التجارة العالمـي، ففي البداية انشـغلت أمريكا في إجـراءات الأمن الداخلية والقوانين الاسـتثنائية كي تتحـرك بعد ذلك من أجل المعركـة. وعندما يهددها تنافس اقتصادي أو غزو اسـتيرادي تظهر عقلية حلقة العربات: وبعدها يكون على أمريكا أن تحارب الانعزالية في عقر دارها.

(دايتر كرونزوكر).

لقد أصبح البر الغربي بؤرة للمهاجرين وليس مأوى للجين الأمريكي النقي، غير أن هناك تقاليد خاصة بسكان الحدود، وتطورت هذه التقاليد في ذلك الوسط البري المعادي للإنسان، ويمكن تعريفها بأنها تقاليد أمريكية أصلية، ولهذا فإن البطولة في المجتمع تقاس اليوم بالقيم التي كانت لدى الرواد في أعماق البلاد لكن تلك التقاليد الحدودية أخذت تتراجع إلى أقصى الشمال إلى ألاسكا.

وهناك لم تكن الشهرة من نصيب بطل المسدسات وإنما لسيدة البنادق.

الوطنية الحقيقية

كانت مدونة باسم فورتسل باخ Wurzelbach هي من اكتشفت سارة بيلين Sarah Palin من أجل أمريكا، فأثناء البحث عن شريك لجون ماكين في معركته حول الرئاسة قام باسم فورتسل بتحديد الصفات التي يفتقدها مرشح الحزب الجمهوري الذي كان يعتبر في الحقيقة بطلًا نظرًا لشجاعته كطيار مقاتل وثباته في حرب فيتنام ـ لكن كفاءته كبطل تراجعت بسبب تقدمه في السن، ولو كان ممثلًا لما استطاع أن يلعب سوى دور والد البطل، ولم يكن ماكين يمتلك ذلك الخليط من التقوى وحب الأسلحة وتقاليد الرواد ومعاداة النظرية الداروينية، وكل تلك الأشياء المحفورة في قلوب الجمهوريين، بالإضافة إلى أن أخلاقه لم تكن ريفية بالقدر الكافي.

طبعًا قادتهم دراسة الشخصيات التي قامت بها مدونة فورتسلباخ إلى سارة بيلين، كانت سارة بيلين من البيئة الحدودية التي تميز ألاسكا: الفردية الهائلة المقترنة بالقيم المحافظة، وكان موطنها واسيلا Wasilla يومًا ما موردًا للسلع لعمال مناجم الذهب، كما أنه يقع وسط الطبيعة البرية، إنها شابة وسيدة تطلق الرصاص مثل الرجال، وبمقدورها أن تقطع حيوان الموظ أو

الوعل، وتذهب لصيد السلمون الجليدي في الأنهار الجامحة. أما زوجها فهو عامل نفط وصائد بري كبير يجري في عروقه دم الإسكيمو، وأنجبت سارة طفلًا كانت تعلم مسبقًا أنه سيعاني من متلازمة داون. أما طفلها الأكبر فقد تطوع للحرب في العراق.

سارة عضوة في كنيسة واسيلا بيبل Wasilla Bibel وهي إحدى الأبرشيات الإنجيلية التي تؤمن بقرب عودة السيد كما كانت أيضًا ملكة جمال وصحفية رياضية وأم تقود أطفالها إلى مباريات الهوكي، وعمدة لواسيلا إلى أن دفعتها الزمرة السياسية لتصبح محافظة لولاية ألاسكا.

بمناسبة التقرير حول ذوبان الجليد في ألاسكا ذهبت أنا أيضًا إلى جليد ماثانوسكا Mathanuska بالقرب من واسيلا ولم أستطع أن أتخيل أن أحد سكان هذه الأرض الجرداء المتصحرة قد يكون خبيرًا في السياسة، ويزال يشعر بالرضا، كما رأيت أيضًا بقايا دعايتها الانتخابيةمثلًا لافتة: «امضي يا سارة» الذي استخدمت في سباق الكلاب و«نظفوا الفوضى» أي: نظفوا السياسة الفاسدة، ومن الواضح أنها أنجزت ذلك في وقت قصير.

«لقد أظهرت الأم المحبة أنها تستطيع اللعب بقسوة» هكذا كتبت ديلي نيوز Daily News إن صورة السيدة الشريفة كانت هي الحجر المفقود من وجهة نظر مدونة فورتسلباخ، وتحققت نبوءته في 27 أغسطس 2008: حيث دعيت سارة بيلين دون أن تلفت الأنظار إلى مزرعة جون ماكين في ولاية أريزونا، وبعد ذلك بعدة أيام أصبحت أول سيدة جمهورية مرشحة لمنصب نائب الرئيس واحتفلوا بها كبطلة.

لكن كان هناك خطأ دعائي صغير: لقد كانت ابنة بيلين التي تبلغ من العمر 17 عامًا تحمل ابنًا غير شرعي بالرغم من أن المرشحة كانت تنادي بالعذرية قبل الزواج، أيضًا قصة صعود سارة بيلين هي إحدى القصص التي لا يمكن أن تحدث إلا في أمريكا. وتتوازى مع الصعود العجيب لباراك أوباما.

لبعض الوقت سرقت امرأة الحدود العرض من المرشح الديمقراطي بحضورها الإعلامي وسخريتها: «ماذا يفعل فلان عندما يسير على الماء دون أن تبتل قدماه وينقذ العالم؟» اتفقت نغمة بيلين مع نغمة المحافظين، وكسبت احترام الشعب غير أن كفاءتها الريادية وبطولتها كانتا غير كافيتين للقضية الأهم في النهاية: هل يمكنها أن تحكم أمريكا إذا سقط بيلين؟

وكانت إجابة النقاد السياسيين لا ـ خصوصًا بعد اللقاءات التي أجريت معها، والتي أظهرت فيها السذاجة أكثر من الخبرة، وبالتالي تكون قد أضعفت السلاح الذي يوجهه ماكين ضد أوباما: عدم خبرته لكن سارة بيلين لم تستسلم بعد الهزيمة الانتخابية، فهي تريد المحاولة مرة أخرى في عام 2012 وحدها وضد كل المقاومات، إنها امرأة رائدة.

تحرر المرأة

عندما يتحدث علماء الاجتماع عن الأقليات فإنهم لا يقصدون بذلك السود واللاتينيين والآسويين والهنود، وإنما أيضًا النساء، وهذا أمر مثير للسخرية؛ لأن النساء يمثلن الأغلبية المطلقة في أمريكا، لكن لفترة طويلة لم ينعكس ذلك في مكانة المرأة في المجتمع وفي الاقتصاد والسياسة، بل على العكس كانت هناك فجوة، وبلغة علم الاجتماع (فجوة بين الجنسين gender gap) يكمن خلف هذا المصطلح أيضًا احتقار تقرير السيدات للمصير وإعاقة الصعود النسائي في عالم الرجال، لقد كان قبول النساء في الأندية والكازينوهات وفي بورصة وول ستريت صعبًا تمامًا مثل قبول السود، والآن أصبح رئيس الولايات المتحدة أسود و«رئيسته» سيدة كما يقول باراك أوباما.

الكثير من زوجات رؤساء أمريكا كن مهيمنات ـ وأحيانًا بطلات مثل دوللي ماديسون Dolley Madison التي أظهرت بعد تحطيم مقر الحكومة من قبل القوات البريطانية في عام 1812 قوة أكبر من زوجها، وأمرت بتبيض الجدران التي اسودت من الدخان، ومنذ ذلك اليوم وبيت الرئيس في بنسلفانيا أفينو Pennsylvania Avenue باللون الأبيض. أما إلينور روزفلت

Eleanor Roosevelt فقد كانت المستشارة المقربة لزوجها حتى بعد انفصالهما، ومامي أيزنهاور Mamie Eisenhower قذفت أيك بالبورسلين ذات يوم أثناء نوبة غضب في حين أدخلت جاكلين كينيدي البريق والثقافة إلى العاصمة الغارقة في السبات، وكانت نانسي ريجان تستخدم علم التنجيم كي تُري رونالد الطريق. أما هيلاري كلينتون فلم تكتفِ بدور «زوجة إلى جانب بيل» وكان ذلك رسميًّا أيضًا.

كانت هيلاري بخلاف أي سيدة أولى أخرى تبحث لها عن دور داخل البيت الأبيض، فقد أقدمت على إصلاح قطاع الصحة، وكانت متأثرة في ذلك بالمثال الألماني لكن خطتها المدونة في مجلد مكون من 1300 صفحة فشلت أمام مقاومة الجمهوريين وشركات التأمين، وكذلك أيضًا بسبب طموحاتها الخاصة.

لكن هذا لم يضعف من تأثيرها على بيل كلينتون ـ وهو تأثير كان الكثير من النقاد يجدونه خطيرًا جدًّا، فوفقًا لذلك كانت الصحف الصفراء تتساءل: «هل هي قديسة أم ساحرة؟» قديسة لأنها قبلت خيانة زوجها، وساحرة لأنها كانت ترى في ذلك الوصفة السحرية لطموحاتها الخاصة ـ في البداية كسيناتور ثم كمرشحة للرئاسة.

وردًّا على سؤال حول تصرفها البطولي قالت في زيارة لمستشفى روزفلت في منهاتن: «إن فكرة البطل الوحيد تصلح للأفلام وللكتب، لكن عدد الناس الذين يمضون في الحياة دون أن يحتاجوا لأحد، ودون أن يقدموا قربانًا لأحد قليل جدًّا» لقد كان واضحًا جدًّا كما كتبت مجلة نيويوركر New yorker أنها ترى مقعد مجلس الشيوخ مجرد نقطة انطلاق لحياة وظيفية أكبر، أي من أجل العودة إلى البيت الأبيض، لكن هذه المرة مع بيل كلينتون باعتباره زوجًا مرافقًا.

لقد تقدمت هيلاري بوثبات كبيرة في استطلاعات الرأي في الانتخابات التمهيدية، وربما كانت ستفوز بأكبر جائزة تقدمها البلاد ـ لو لم يكن ممثل الأقلية الآخر باراك أوباما موجودًا لكن قبل 25 عامًا لم يكن الأمران محتملين: وجود أسود أو وجود امرأة في البيت الأبيض.

على كل حال أعلن الحزب الديمقراطي في سان فرانسيسكو عام 1984 ترشيح امرأة لمنصب نائبة الرئيس وهي جيرلادين فيرارو Geraldine Ferraro وفي خطاب الشكر الذي ألقته أثنت النائبة القادمة من كوينز Queens بولاية نيويورك على استخدامها

«كجزء من الحلم الأمريكي وكما استهل كينيدي عصر غزو الفضاء ذات يوم، والتاريخ الذي حلقت فيه سالي رايد Sally Ride في الفضاء كأول رائدة فضاء، وكذلك اليوم الذي تقدم فيه جيسي جاكسون للرئاسة باعتباره الأسود الأول».

كان قد عقد في سان فرانسيسكو قبل ذلك مؤتمر للحزب الديمقراطي في عام 1920، وكانت هناك حينذاك 58 امرأة موفدة، وبالمناسبة لقد كان هذا هو نفس العام الذي انتزعت فيه المرأة حق الانتخاب (من جديد) وأثارت صورة مناضلي حقوق المرأة ومسيراتهم الاحتجاجية اهتمام العالم بأسره، فقد دخلت المرأة في الحياة الوظيفية في عباءة الواعظ وفي معطف الطبيب أو روب المحامي، لكن كما كتب هوجو مونستربيرج Hugo Münsterberg في كتابه عن الأمريكيين في عام 1912 فإن السيدات أيضًا كن يقتحمن الوظائف البسيطة، فقد أثبتت إحصائيته وجود 45 سائقة قاطرة و91 شماسة و31 فتاة مصعد و167 عاملة بناء و5 طيارات و169 خياطة و625 عاملة في مناجم الفحم و1320 صائدة حيوانات محترفة.

دخلت السيدات في مجال التربية قبل السياسة بكثير، فعندما كان يتم إدراج بلدية جديدة كانت تقام مكتبة صغيرة ومدرسة مكونة من حجرة واحدة، وفي الغرب البري كانت المدارس والصالونات تقام بجوار بعضها البعض، وكانت المعلمات وسيدات المجتمع جيرانًا.

أدى تحرر المرأة إلى ظهور الجامعات النسائية، وكان مستوى بعضها مرتفعًا للغاية حتى أُطلق عليها «الأخوات السبع لرابطة إيفي Ivy League» فقط في الثمانينات تخلت آخر كلية عن لقب جامعة حواء، وأتاحت قبول الطلاب الذكور، وعلى العكس قبلت كلية مجدالين Magdalen كآخر جامعة ذكورية دراسة الطالبات وفي جامعة النخبة ستانفورد بكالفورنيا

عينت كوندليزا رايس في عام 1993 عميدة، وسعدت ستانفورد بالعودة النهائية لوزيرة الخارجية السابقة كي تتنفس هناك «نسائم الحرية»، وهذا كان شعار الجامعة الانتخابي.

كان النضال من أجل حقوق المرأة في الولايات المتحدة الأمريكية يسمى أيضًا حروب الثقافة Culture wars، لكنها لم تنتهِ على الإطلاق، فأنصار المرأة يطالبون «بحق المرأة في جسدها» فجماعة الضغط الكبيرة لمنظمات الحياة life organisation تطالب بحق المرأة في الإجهاض، وعلى المحاكم أن تقرر ما إذا كانت الحياة تبدأ بالحمل أو عندما يتكون الجنين بصورة واضحة. وفي عام 1992 أكدت المحكمة العليا ومن بينها القاضية ساندرا أوكونور Sandra O'Connor حق المرأة في إسقاط الجنين، كما ساد أيضًا جدل كبير بخصوص استخدام خلايا الأجنة في العلم والأبحاث، وكانت إحدى مسؤوليات باراك أوباما الأولى هي تنسيق أعمال سابقيه فيما يتعلق بأبحاث الخلايا الجذعية.

يدخل أيضًا ضمن هذه الحروب الثقافية الجدل حول أصل الإنسان، فهل يدين الإنسان بالفضل إلى رب قد نفخ فيه الروح، أم كما أكدت نظرية داروين أن الإنسان تطور ليصبح كائنًا عاقلًا. إن أغلب السيدات في المناصب القيادية يؤيدن الجانب العلمي، ومن بينهم كونداليزا رايس وسوزان رايس Suzan Rice مبعوثة أوباما للأمم المتحدة، وكذلك نانسي بيلوسي Nancy Pelosi رئيسة مجلس النواب ودوريس مايسنر Doris Meissner رئيسة مصلحة الهجرة وأوبرا وينفري Oprah Winferey ملكة البرامج الحوارية في أمريكا وكارولين كينيدي Caroline Kennedy ابنة الرئيس جون إف كينيدي المقتول وهيلاري رودهام كلينتون، وأخيرًا ميشيل أوباما أما الأولى فقد كانت زوجة رئيس، وأما الثانية فهي الآن زوجة الرئيس القائم بالأعمال.

في الأسبوع الثاني من شهر مارس في عام 2009 قامت ميشيل أوباما وهيلاري كلينتون معًا بتوزيع الجوائز على أشجع سيدات في العالم، وجاءت البطلات من ثمانية دول مختلفة غير أن الإعلام ركز على تقابل السيدتين القويتين اللتين سادت بينهما خصومة قوية في الانتخابات.

إن سلطة السيدات في واشنطن هي بالتأكيد المثال الأكثر وضوحًا على تحرر المرأة، لقد تطورت هذه السلطة بالتزامن مع صعود السكان السود في سلم الرتب السياسية، وبالتالي لم يصبح التكافؤ هو مطلب هذه الحقبة الجديدة، وإنما المساواة لقد ودعت أمريكا اليوم المطالب الخاصة للأقليات؛ لأنها أيضًا تعتبر من وجهة نظر الأغلبية غير عادلة.

ويدخل ضمن ذلك التمييز الإيجابي وهي المطالب الخاصة للسود، لقد كانت نقطة بداية جيدة لكن من أضاع هذه البداية فعليه اليوم أن يخضع لقواعد الأسواق الحرة، وهكذا أبطل الأمريكيون المكسيكيون الأصل في كاليفورنيا القانون الذي يسمح بازدواجية اللغة في المدارس؛ لأن صراع البقاء لا يمكن أن يتم إلا باللغة الإنجليزية لغة المنافسة ولغة الإنترنت.

في الغرب الأوسط وفي أقصى الشمال وعلى حدود جبال روكي Rocky وعلى نهر كولورادو Colorado قامت من جديدة حضارة كانت قد دمرت أو شوهت من قبل الدخلاء الأوروبيين: الهنود الحمر أو كما يطلقون على أنفسهم «الأمريكيون الأصليون» لقد وصف لنا كارل ماركس Karl Marx وكارل ماي Karl May مدى الظلم الذي أوقعه الرجل الأبيض على الرجل الأحمر، لكن من يرى اليوم مدى الاحترام واللباقة التي يتعامل بها السياح والصحفيون اليوم مع القبائل والتقاليد الأصلية سوف يتأكد من تغير العصر.

أصبح اليوم من الموضة أن يتناول المرء العشاء أو يتنزه في مجتمع أسود أو أحمر، وفي بعض الأحيان تتوحد ألوان قوس قزح الأمريكية لتنتج دمًا مختلطًا، فقد قال نجم الجولف تايجر وودز Tiger Woods ردًّا على سؤاله حول أصله أنه قوقازي أسود أمريكي آسيوي من الهنود الحمر، علاوة على ذلك يجب علينا أن نعرف أن البيض كان يطلق عليهم في سجل الولايات المتحدة الأمريكية «قوقاز»، وقد صاغ أحد علماء الأتنيات الألمانيين ذات يوم هذا التعبير لأنه اعتقد أنه وجد النموذج الأوَّلي للرجل الأوروبي في القوقازية. أما كلمة cablinasian فهي مركبة من ca التي تشير إلى قوقازي وbl التي تشير إلى أسود وin التي تشير إلى هندي وasian أي آسيوي.

لقد جاء أوباما من ذلك الخليط، وكان يمزح بأن أصل عائلته يشبه اجتماع للأمم المتحدة، ووفقًا لمجلة أتلانتيك Athlantic يريد أوباما إعادة التنوع الشعبي والمساواة حتى في فرق حكومته.

صورة أمريكا

كان بيل كلينتون هو من أراد تشكيل حكومة «تبدو مثل أمريكا» وكان باراك أوباما هو من نجح في ذلك على ما يبدو، فقد كان مجلس وزرائه المكون من سبعة عشر عضوًا وخمسة مستشارين متساويي الرتبة في البيت الأبيض لا يزال يضم الأغلبية الأنجلوساكسونية، لكن كان هناك ثلاثة وزراء من أصل آسيوي وثلاثة أفروأمريكيين واثنان من اليهود الأمريكيين وواحد من أبناء المهاجرين اللبنانيين، كما تم تخطيط البلدية الهسبانية بثلاثة ممثلين لكن بيل ريتشاردسون Bill Richardson وزير المالية المتفق عليه لم يشارك في البداية في تمويل الحملة الانتخابية بسبب الغموض.

في البداية كان تمثيل السيدات أقل 22، لكن من خلال هيلدا سوليس Hilda Solis استطاعت النقابات أن تمكن واحدة منهم كما تولت كاتلين سيبليوس Kathleen Sebelius المحافظة الطموحة لولاية كنساس وزارة الصحة بدلًا من المخضرم السياسي داشلي Daschle الذي استبعد بسبب مشاكله مع الضرائب.

أما وزارة الطاقة المهمة في نظر أوباما فقد ذهبت لستيف تشو Steve Chu الحائز على جائزة نوبل، وأصبحت مهمة صديق آل جور خبير البيئة أن يقود المعركة ضد تغير المناخ، وأن يوقظ العلم من سبات حقبة بوش، وتم اختيار الطبيب الهندي الأصل سانجاي جوبتا Sanjay Gupta كرئيس للخدمات الصحية، لكن طبيب التلفزيون الذي كان يتقاضى أجرًا كبيرًا فزع من راتب الوزير الضئيل الذي يقل عن 200000 دولار في السنة.

كان مـن بـين أعضاء مجلس الـوزراء الأعضاء القدامـى من عهد بيل كلينتـون مثل رئيس الأركان رام إيمانويل Rahm Emanuel الذي يعرف جيدًا باعتباره نائبًا سابقًا كيفية التعامل مع الكونجـرس أو الخبير القانوني جريجوري كريج Gregory Creg الذي كان مستشـارًا للأديب الـروسي ألكسـندر سولشـينيزين Solschenizyn والأمـين العـام للأمم المتحدة كـوفي عنان، والكثير من السياسـيين الديمقراطيين أو الأفروأمريكي إريك هولدر Eric Holder الذي كان وكيلًا لوزارة العدل في عهد كلينتون، وأصبح الآن رئيسًـا لهذه الهيئة التي حرمت السـود ذات يوم من نفس الحقوق.

لكن أوباما اسـتقدم أيضًا بعض الطاقات الجديدة على سـبيل المثال الهسـباني كين سالازار Ken Salazar القادم من كولورادو Colorado، والذي سـافر معه إلى واشـنطن في عام 2004 كسيناتور، وكان كوزيـر داخلية مسـؤولًا عن الحدائق العامة الممتـدة، وكذلك عن حمايتها من طمع المنقبين عن النفط ومضاربي الأراضي. أما محترف كرة السـلة أرن دنكان Arne Duncan فقد تولى إصلاح سياسـة التعليم، أما الدفاع عن الوطن فكانت مسـؤولية الأمريكية الإيطالية جانيـت نابوليتانـو Janet Napolitano التـي كانت محافظة سـابقة لولاية أريزونـا وهي وزارة تحولت تحت حكم بوش إلى أداة لتوسيع السلطة التنفيذية.

أما أهم إدارة فقد عهد بها أوباما إلى الإسـتراتيجي الخبير والسـياسي الجديد: لاري سمرز Larry Summers الـذي خدم تحت رئاسـة كلينتـون وتيم جايثنـر Tim Geithner الذي كان حتـى ذلك الوقت رئيسًـا للبنك المركزي فيـد Fed في نيويورك، وكان على الاثنين ومعهما فريق من الخبراء أن يخرجا أمريكا من الأزمة.

كان مـن ضمن تقاليد تكوين الحكومة بعد الانتخابات التـي من طبيعتها التفرقة أن يكون على الأقل أحد أعضاء المعارضة في هذا الحفل ومن بين الجمهوريين أراد أوباما أن يحضر اثنان.

لقد سـار الرئيـس الرابع والأربعون على نهـج أبراهام لينكولن، وأحـضر ألد خصومه في الانتخابـات إلى فريقـه، فمـن ناحيته عين أبراهـام لينكولن خصمه في الحزب سـيوارد Sewar

وزيرًا للخارجية، والذي لم يخدم الأمة جيدًا فقط وإنما اشترى ألاسكا من الروس والتي سميت لفترة طويلة «سيوارد أيسبوكس Seward Icebox» واليوم تمثل مستودعًا كبيرًا للثروات الطبيعية والمعادن.

لكن الدهشة كانت كبيرة عندما اختار باراك أوباما للسياسة الخارجية سيدة وصفته أثناء الانتخابات التمهيدية بأنه غير خبير وحزبي، هل كان سعيه كبيرًا لحل الخصام بين معسكرين ديمقراطيين؟ هل أراد أن يتجنب مناورة العاصفة التي قد تأتي من مخيم كلينتون؟ هل كان يشعر بالتزام تجاه النماذج التاريخية؟ هل أراد أن يثبت سيادته؟ أو أنه حقًّا كان يعتبر هيلاري الاختيار الأمثل؟ وربما كان اختياره نتيجة لجميع هذه الأسباب وللاطمئنان وضع أوباما وزيرة الخارجية الجديدة في فريق من الخبراء له سلطات خاصة.

بخلاف كل سابقيه كان أوباما قبل العشرين من يناير، وهو يوم تنصيبه قد فكر واختار مجلس وزرائه، لكن ربما تخلف هذا أو ذاك لكن سعيًا وراء صورة المسيح التي كثيرًا ما طُبِقت عليه: كان من بين رسل المسيح عيسى توماس الكافر وهو منكر، ويهوذا الذي أخذ قطعة الفضة لا شيء كامل كما أظهرت المائة يوم الأولى من رئاسته.

التحدي المكسيكي

استقبلت هيلاري كلينتون بزهو كبير ضوء الشمس عند وصولها إلى المكسيك، وفي الليلة السابقة لوصولها كانت الغيوم التي غطت العاصمة المكسيكية قد هبطت، وكان الطقس المختلط يتفق تمامًا مع المناخ السائد بين البلدين المتجاورين «اللذين جاءا من نفس العائلة واللذين يسكنان نفس شبه القارة، واللذين سيصعدان معًا أو يسقطان معًا».

كانت رسالة وزيرة الخارجية الأمريكية هي وضع البلسم على الروح المكسيكية المجروحة؛ لأن في الأسابيع الأولى التسع من مدة حكم أوباما كانت الغلبة للدبلوماسية، وقد استمر تحصين الحدود وهو ما أطلق عليه بعض المكسيكيين «سور برلين الجديد» وتمت عرقلة نقل البضائع

على الشاحنات المكسيكية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، بالرغم من أن هذا كان يعتبر خرقًا لاتفاقية التجارة الحرة بين البلدين، وكان الكثير من النواب الأمريكيين ومسؤولي الأمن رفيعي المستوى يتحدثون عن جارتهم كأنها دولة فاشلة.

كان هذا الوصف حتى ذلك الوقت لا ينطبق إلا على الصومال، وكان يشير إلى الحكم وتلذذ عصابات المخدرات بالقتل والعنف الذي تخطى الحدود، وهذا يقرب بدوره نظرية الدفاع عن النفس التي تقول بوجود جبهة ثالثة على أمريكا أن تحارب فيها - إلى جانب العراق وأفغانستان، ومن الواضح أن أوباما أيضًا لحقه الضرر من تلك الهيسترية عندما نظر في إرسال الجنود؛ مما تسبب في إثارة الاستياء في المكسيك، فكل طفل يتعلم في المدرسة أن الولايات المتحدة الأمريكية احتلت نصف المكسيك بالقوة قبل 150 عامًا وأدمجتها.

يعتقد المكسيكيون كما قال جاري الصحفي بعد مؤتمر صحفي مع هيلاري كلينتون: «إننا نعتقد أنه من الظلم أن تمنعنا الولايات المتحدة الأمريكية من الدخول إلى كاليفورنيا وتكساس ونيومكسيكو وأريزونا، فقد كنا دائمًا نشعر هناك أننا في منزلنا».

ويدافع ألفريد هارب هيلو Alfred Harp Helu أحد الأغنياء في المكسيك: «إن 90٪ من المخدرات تستهلك في الولايات المتحدة الأمريكية و90٪ من أسلحة مافيا المخدرات ترد من الولايات المتحدة الأمريكية وتقتل مواطنينا. إن الولايات المتحدة أيضًا تتحمل الذنب في سيادة العنف، ولهذا نوصف بأننا دولة عديمة القانون» أما الرئيس المكسيكي كولديرون Colderon فقد ذهب لأبعد من ذلك بخطوة عندما قال إن في نيوأورليانز وهي مدينة يبلغ عدد سكانها نصف مليون يقتل كل شهر عددًا من الناس أكبر مما يقتل في مدينة مكسيكو التي يبلغ عدد سكانها 25 مليون نسمة.

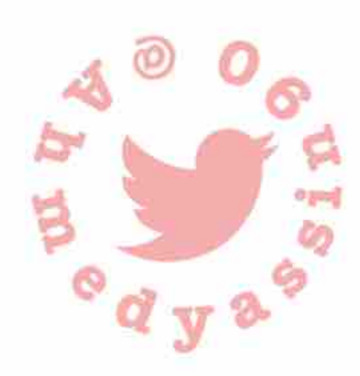
في البداية تجاهلت حكومة بوش هذه المشكلة لكن فيما بعد عرفت «أنه لا توجد في العالم علاقة جيرة أهم من تلك العلاقة بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية» وهذا ما أعلنته السيدة هيلاري كلينتون في مؤتمر صحفي بعد محادثتها مع القيادة المكسيكية و«نحن نحترم

الشجاعة التي تتعامل بها الحكومة مع مافيا المخدرات، فالجريمة المنظمة هي التي ستفشل في النهاية وليست المكسيك».

لقد استطاعت السلطات المكسيكية توجيه ضربة قوية ضد مافيا المخدرات بالتزامن مع الزيارة الأمريكية، وكأن يدًا طائلة كان لها دخل في ذلك، ووعدت قيادة أمريكا الجديدة بالتعاون بدلًا من المواجهة، ويذكر هذا الدبلوماسيون المخضرمون «بحلف من أجل التقدم» الذي وعد به الرئيس كينيدي ذات يوم أمريكا اللاتينية، وتم تأسيس الحلف ضد تقدم كوبا.

أما مشكلة كلينتون القادمة فهي كوبا التي لا يمكن حلها إلا من خلال وسيط جيد ألا وهو المكسيك، بالمناسبة بعد الزيارة هطلت الأمطار مرة أخرى فوق العاصمة المكسيكية.

(دايتر كرونزوكر)



الفصل الثاني عشر

أول مائة يوم

نَفَذ أول توقيع لليد اليسرى للرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية في يوم أول يوم من مدته الوظيفية، فقد أعلن أوباما العشرين من يناير 2009 يومًا للتجديد والمصالحة وبنـاء الجسـور بين المنتصريـن والخاسرين، وتخطي التضـادات وفقًا لدور مديـر حلقة النقاش الـذي يتقلـده أوباما، غير أن عملية الشـفاء السـياسي هي أيضًـا من التقاليـد الديمقراطية بعد المعركة الانتخابية التي خلفت الجروح العميقة.

أما الباعث الآخر وهو التجديد فيتضمن برنامج الرئيس الذي دونه في كتابه «جرأة الأمل» والذي خدمه كثيرًا في المعركة الانتخابية، لكن ناخبيه ينتظرون تنفيذه لوعوده الانتخابية، أما النقاد فينتبهون لكل تفصيل من تفاصيل البرنامج، ويستمتع الرئيس الجديد بمائة يوم فترة سماح.

يعـود تقليد تثبيـت أول مائة يوم إلى الرئيس فرانكلين دينالو روزفلت Franklin Denalo Roosevelt الذي اسـتطاع بين الرابع من مارس والسادس عشر من يونية 1933 الحصول على تصديق الكونجرس على القوانين الخمسة عشر الأكثر أهمية، ففي ذلك الحين كان أمام الرئيس وقتًـا تحضيريًّا أطول بـين الانتخابات وتلاوة اليمين. ولم يكن عـلى روزفلت فقط الاختيار بين الفساد والرحمة، ولكن أيضًا بين الديمقراطية والديكتاتورية، ففي عام 1933 تولت هتلر Hitler السـلطة في برلـين وكان موسـيليني Mussolini يهيمن منـذ وقت طويل على إيطاليا وسـتالين Stalin على الاتحاد السوفييتي، وأيضًا في الولايات المتحدة الأمريكية كانت هناك تيارات تعتقد

أن الديكتاتورية اليسارية أو اليمينية ستكون فرصتها في التجديد أكبر من الديمقراطية التي تبدو قديمة ومستهلكة.

قياسًا على أزمة الثلاثينيات تبدو المشكلات التي يواجهها أوباما أقل كارثية، لكنها عائق لأن أزمة اليوم تبدو للمغايرين السياسيين غير حتمية حتى تحتشد خلف رئيسها الجديد دون توابع، إن صراع أوباما لتحقيق أهدافه قريبة أو بعيدة المدى يبدو أكثر مشقة وصعوبة ربما مما كان هو نفسه يتوقع، ودائمًا ما يؤكد أوباما على أن الحل لن يكون سهلًا، وأنه لا يتوقع كثيرًا في المهملة المقدرة بمائة يوم، ولكنه يحتاج إلى ألف يوم على الأرجح. في الحقيقة لم يرغب أوباما في الاندفاع بأفعاله قبل الآوان بحجة أن «هناك رئيس واحد فقط» ...

لكن كما أجبرته الضرورة على اختيار حزمة العاملين معه في الفترة بين الفوز في الانتخابات وحلف اليمين التي بلغت 77 يومًا، فإن الأزمة تتطلب أيضًا قرارات سريعة فيما يتعلق بالكارثة المالية والبنوك وشركات التأمين ومنتجي السيارات وزيادة البطالة، لكن مفكر الفريق أوباما يشهد نقصًا في التضامن، فمن ناحية كانت وزارة المالية برئاسة تيموثي جايثنر Timothy Geithner تجاهد بصعوبة مع موقف العاملين بها، فالمكاتب في إدارة الخزانة خالية ومن ناحية أخرى تطالب البنوك المفلسة وشركات التأمين بسداد المكافآت لرؤساء مجلس إدارتها، وقد أخذت أكبر شركة تأمين في العالم 180 مليار دولار إعانة، ووزعت فقط بضعة ملايين على العاملين، ولم تقبل نفسية أوباما المتزنة ذلك التصرف فوصف هذا المنهج بأنه «عار».

يتحمل تيموثي جايثنر جزءًا من المسؤولية، فقبل تعيينه وزيرًا كان موكلًا بتقويم عملاق التأمين AIG لكنه أغفل سداد المكافآت فانصب غضب الشعب وممثليه عليه لكن مهمة جايثنر الألماني الأصل الآن هي أن يحل المشكلة المالية مع طاقم سفينته، وهو لا يملك أي غطاء سياسي حتى أوباما نفسه يعتبر منصبه مثل كرسي القذف، لكنه لن يتركه يسقط على أية حال، لقد تعرف جايثنر على والدة أوباما التي كانت تعمل كعالمة أثنيات في دونهام Dunham أثناء تعاون بينهما في آسيا، ومن المؤكد أن هذه ميزة لصالح جايثنر، علاوة على ذلك يتوقع

النائب الجمهوري كوني ماك Connie Mack وقوع كارثة، كما وردت من الصين إشاعات حول عملة عالمية جديدة.

لكن الأمواج هدأت قليلًا من خلال خطة جايثنر الذي أراد أن يخضع المضاربين المستقلين والمتوحشين في البورصة للرقابة الصارمة، فمن المفترض مستقبليًا أن يتم تفتيش بطاقات شركات التأمين مثل AIG والشركات القابضة الخاصة مثل بيرميرا Permira أو KKR وكذلك صناديق رأس المال الاستثماري، وكذلك المصالحة بين بورصتي ماين ستريت Main Street وول ستريت Wall Street كما يريد جايثنر هو والشركاء الأوروبيون الحيلولة دون ضعف السيطرة المالية للغرب في العالم، ويقول جايثرن ابن المهاجر القادم من فوجتلاند Vogtland «لا يمكننا التصرف وحدنا».

تدين بورصة وول ستريت بالفضل في ارتفاع أسهمها إلى المليارات التي قدمت لها إعانة؛ لأن المصرفيين طالبوا الحكومة بأن تولي تركيزها الكلي من أجل حل الأزمة المالية، بالمناسبة لقد نسب الخبراء الماليون تداعي البورصة إلى ارتفاع الضرائب المفروضة على الأثرياء والذي خططه أوباما بدءًا من عام 2011 بعدما انتهى خفض الضرائب في عهد بوش.

أيضًا أصدقاء أوباما من أثرياء الدولة مثل وارين بافيت Warren Buffet وجورج سوروس George Soros ألحوا على عمل قائمة أولويات تخدم الاقتصاد والعالم المالي، لكن أوباما كان يضع في اعتباره أن وجود أزمة كبيرة لن يمنعه من قبول حلول الآخرين فلم يسمح بأي تنافس بين الأولويات، وإنما كان يمضي فوق جبهة عريضة ضد كل المشكلات في نفس الوقت ـ وهو مجهود فوق طاقة البشر تقريبًا، فرؤساء مثل ريجان وبوش كانوا يسيرون بمبدأ «قضية تلو الأخرى one by one» لكن أوباما لم يسمح ولن يسمح أيضًا بمثل ذلك.

ففي نفس الوقت تقريبًا كان يزيل الإضافات التي أظلمت القانون وسمحت بالتعذيب وانتهكت حقوق الإنسان، كما أنه أدخل حزمة من الإضافات من أجل تأمين الطاقة، ومن أجل معركته ضد تغير المناخ، كما يشجع أوباما المحافظين التقدميين مثل أرنولد شوارزينجر

Arnold Schwarzenegger على التصرف المستقل ضد تلوث البيئة، وهذا ما منعته حكومة بوش تحت تأثير لوبي السيارات.

وصف محافظ كاليفورنيا النمساوي الأصل أرنولد شفارتسينإيجر الولايات المتحدة الأمريكية بأنها بلد الاحتمالات غير المحدودة، مثل حياته الوظيفية الخاصة بدءًا من بطل كمال أجسام ثم بطل سينمائي حتى أصبح نجمًا سياسيًا، غير أن هناك قيدًا واحدًا فقط فهو لا يستطيع أن يصبح رئيسًا للبلاد بدون شهادة الميلاد الأمريكية على أية حال لن يحترم أصدقاءه من الحزب الجمهوري تطلعه إلى أعلى منصب في الدولة بعد أن بالغ شفارتسينإيجر في مدح الرئيس أوباما بأنه الرجل المناسب في الوقت المناسب، الذي يملك الحل المناسب وتضمنت هذه الوصفة ملايين الدولارات إعانة مالية لولاية كاليفورنيا الأكثر معاناة من الأزمة المالية، كما خصصت الأموال الحكومية من أجل البحث والعلم كباعث جديد لجامعات سيليكون فالي Selicon Valley وجامعة ستانفورد Stanford.

«في أوقات الأزمة يستطيع المرء أن يتصرف بطرق مختلفة، فيمكن للمرء أن يتكئ ويولول ويستسلم للقضاء والقدر، أو يمكنه أن ينهض ويقبل التحديات ويعمل على إصلاح نفسه، وألا يسمح بالفشل، إن المرء بإمكانه أن يخلق فرصة للخروج من الأزمة ربما بالمرور على المنافسين الذين يجعلون الأمر سهلًا، وهذا ما يفعله الفائزون».

كان المحافظ يراقب بقلق كبير هجرة المواهب والمخترعين من كاليفورنيا التي كانت ستحتل المرتبة الثامنة في الاقتصاد العالمي لو ظلت دولة مستقلة حتى الآن. والآن لم تعد بمقدور كاليفورنيا أن تصنع شيئًا بمخزن المسنين، فحيث يفد المهندسون والطلاب الشباب بصورة متزايدة من النطاق الآسيوي، فقد كان الصينيون واليابانيون يخضعون في الماضي لقيود إما لأسباب التنافس في سوق العمل أو باعتبارهم خصوم حرب سابقين، لكنهم اليوم طوروا مع الهنود والإندونيسيين نشاطًا لا يقبل المنافسة؛ لأنهم مجتهدون وطموحون ويتحلون بفضيلة التواضع.

«تنتـج آلاف القضايـا الجديدة من التنوع وكذلـك آلاف الإجابات أيضًـا» هذا ما قاله شوارزينجر السياسي، أما كممثل فهو يفكر من جديد في العودة إلى الأفلام كما قال لي في لقاء في هانوفر في معرض سيبيت CeBIT، فقد أعجبته السيرة الذاتية «لقيصر كاليفورنيا» وكان هذا القيصر ألمانيًا سـويسريًا أسـس ذات يـوم بالقرب من سـكرامنتو Sacramernto هلفتيا الصغـيرة kleinhelvetin وعثـر عـلى الذهب على أرضهـا، إنها مملكة الـدورادو Eldorado الشـهيرة ويريد المحافظ شـوارزينجر إلى جانب وزير النقل لحود ووزير الطاقة تشو تشجيع التكنولوجيا الخضراء.

يجـب أيضًا المسـاواة بين الرجال والنسـاء في سـوق العمـل عن طريق إصدار قـرار الدفع العادل، كما يجب إعادة فتح أبواب العلم التي أوصدت تحت حكم بوش حتى تحصل البحوث في أمريكا مرة أخرى على الاعتراف في جميع أنحاء العالم، وتتضمن حزمة التحفيز التي خطط لها أوباما 140 مليار دولار من أجل تحسين نظام التربية؛ لأن «معدلات الانقطاع عن الدراسة في مـدارس الولايات المتحدة هي الأكبر من بين جميع الدول الصناعية» لكن أوباما لم يتناول فقط قضيـة التربية، وإنـما أيضًا قضية القائمين بالتربية فهو يريد إدخال نظام يجعل أداء المعلمين مبدأً لتعيينهم، وهو يعتمد في هذا الأمر على نقابات المعلمين التي تسانده مساندة ليس لها مثيل.

ويقـول مخطط الحملة الانتخابية جيمس كارفيـل James Varville: إن المعركة الانتخابية عدو فعمل الحكومة يجعل من الصديق عدوًّا» فقد اتهم النقاد أوباما أنه متطرف أو «أن برأسـه بعض الشـعر الأشـيب» أو «إنه يحاول أن يجعل من أمريكا دولة اشـتراكية مثل أوروبا» هذا ما ذكرته جريدة بوليتيكو Politico وهي مجلة متخصصة يصدرها المحافظون.

يقول نورمان بيرنباوم Norman Birnbaum وهو اشـتراكي من المدرسـة القديمة «إنه في الحقيقـة لا يلبـي فقط وعده الانتخابي ورؤيته، لكن عندما تفشـل إحدى الوسـائل فإنه يبحث عن وسيلة أخرى، وهو في هذا المعنى متطرف وبراغماتي في نفس الوقت، وليس لهذا أي علاقة بالاشتراكية».

كان نورمان بيرنباوم يقوم بتدريس المركسية في جامعة جورجتاون Georgetown وينتمي إلى الثمانية والستين الذين قادوا المعركة الثقافية ضد المؤسسة التي شارك فيها توم هايدن Tom Hayden وخافير سولانا Jafier Solana الذي هرب من نظام فرانكو الحاكم في أسبانيا، وهو الآن مفوض رفيع المستوى للسياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي. أما نورمان بيرنباوم فهو عضو أندية كوزموس Cosmos-clubs المحافظة في واشنطن الذي تزدهر فيها المناقشات الحرة ولا تخضع الملابس إلى حتمية ارتداء رابطة العنق فاتفاق الأضداد ظاهرة أمريكية.

بالرغم من أن أوباما يجعل من حياته وأهدافه كتابًا مفتوحًا فإن المراقبين يصنفونه بطرق مختلفة، فهو بالنسبة للبعض يساري يحيد عن الطريق الأمريكي، وبالنسبة للآخرين واحد من المحافظين الجدد ويحمل فوق رأسه قبعة سحرية.

تأتي بعد ذلك الشائعات التي انتشرت حول جماعة بيلدبيرج Bildberg وتأثيرها، فتعيين كاتلين سيبيليوس Kathleen Sebelius بمهمة كبيرة جدًّا مثل إصلاح الصحة المتأخر منذ وقت طويل قد أثارت التساؤل: هل تنتمي تلك السيدة إلى مجموعة من المتآمرين الذين يريدون أن يخضعوا أمريكا لحكومة عالمية؟ سيبيليوس عضوة في جماعة بيلدبيرج التي يزعم أنها تربط بين أقدار العالم خلف الكواليس وتريد ضم باراك أوباما وقام هذا الجدل بجولته في لحظة؛ حيث كانت سيبيلوس مستعدة لقبول التحديات الكبيرة.

عندما كانت محافظة في ولاية كنساس كانت قد قطعت شوطًا من أجل توفير التأمين الصحي للجميع، فهل تستطيع أن تنجح فيما فشلت فيه هيلاري كلينتون عندما كانت مفوضة للصحة تحت حكم زوجها؟ هل يمكنها معاندة لوبي شركات التأمين الذين يريدون التخلي عن كل المسؤوليات عند تقدم المؤمن عليه في السن؟ وقبل كل شيء: هل تعزز السيدة سيبيلوس هذه الجماعة من المسيحيين الكاثوليك التي ينتمي إليها أيضًا نائب الرئيس جو بايدن Joe Biden والتي تؤيد حق المرأة في الإجهاض؟ إن شائعة حكم العالم نبعت من الحرب الثاقفية التي كانت لا تزال مندلعة في الوقت الذي بدأت فيه الحياة.

سـواء كان أيديولوجيًـا أو براجماتيًا ـ فـإن أغلب المراقبين متفقون عـلى أن أوباما صاحب قناعة أخلاقية أساسية، وهذا يخلق له الأعداء، فقد كانت إحدى أولى إضافاته بخصوص فريقه الخـاص أن مـن يعمل لديه في البيت الأبيـض، عليه ألا ينضم لأي لوبي لمـدة عامين بعد انتهاء مدته الوظيفية، لكن الكيان اللوبي هو في نفس الوقت أحد ملامح الديمقراطية البرلمانية.

فكل نائب في مجلس الشيـوخ أو في مجلس النواب من البديهي أن يكون له الحق في المطالبة بـشيء مـا من أجل ولايته، ومن أجل رعاته، ففي النهاية تتوقـف إعادة انتخابه مرة أخرى على نجاحه تلبية تلك المطالب، ويؤدي ذلك إلى برامج خاصة مكلفة للغاية يتم تضمينها في ميزانية الولايـة، وتحمـل توقيعهم بالحـروف الأولى وتسـمى «التخصيص» وهي تتنـاول مشروعات منطقية مثل مشروعات «الاستغلال الصريح».

أراد السـيناتور جـون كورنـين John Cornyn عبَّـارة جديـدة مـن أجـل ميناء أرنسـاس Aransas وأراد النائب ديفيد درايرDavid Dreier تقاطع طرق جديدًا في رانتشو كوكامونجا Rancho Cucamonga في كاليفورنيا، وكان هناك أيضًا مشروع سـيئ السـمعة لإنشاء كوبري في ألاسـكا تكلفته 250 مليون دولار يصل إلى جزيرة عدد سـكانها 50 سـاكنًا فقط ولهذا كأنهم يمدون جسرًا إلى اللاشيء.

تضمنـت ميزانية عـام 2009 حوالي تسـعة آلاف من برامج التخصيص تلـك، وهذه المرة أيضًا اسـتطاعت الوصول إلى هدفها من خلال أتوبيس الميزانية الحكومية، ودون أي تعارض، ويتذكر السـيناتور جون ماكين أن أوباما قد وعد في حملته الانتخابية أنه باعتباره رئيسًـا سـوف يراجـع هـذه التخصيصات كلمـة كلمة كي يتأكد مـن أن أموال الدولة لا تذهـب عبثًا، ودافع أوبامـا أيضًـا عن أن رغبات البرلمان الخاصـة كانت دائمًا تجاب قبل أوانها، وأن مهمة المسـتقبل القريـب هي الإصلاح، لكن الغالبية العظمى لرجال البرلمان لا يريدون أن يسـمعوا شـيئًا عن فقدانهم لتلك الامتيازات، وليس غريبًا أن أوباما قد أقر حزمة التحفيز التي من شـأنها تنشـيط الاقتصاد قبل التصويت على الميزانية.

إن محـاولات الإحاطـة بالرئيس الجديد التي خطط لها الكونجرس في عهد بوش هي جزء من اللعبة السياسية، وتوضح مدى صعوبة أن يسعى المرء ليس فقط للتجديد وإنما للمصالحة، فقد ترك تعبير «اليد الممدودة ما لم تقابلها لكمة» أثرًا في الخارج أكبر منه في الداخل.

لقـد تراجعـت الـدول التـي أطلقت عليهـا حكومة بـوش (الـدول المارقة) حتـى كوريا الشـمالية، لكـن المعارضة في الولايات المتحـدة الأمريكية كانت ترفض بشـدة عرض المصالحة بدافع الحفاظ على الذات، فتدهورت الجبهة بصورة تنذر بالسـوء قبل الانتخابات، وهنا أعلن وزير الخارجية السابق في حكومة بوش إلى جانب كولين باويل Colin Powell تأييدهم لباراك أوباما، بوويل نفسـه كان في يوم من الأيام مرشـح الحزب الجمهوري للرئاسة، وكانت فرصته جيـدة للفوز أمـام بيل كلينتون في عـام 1996، لكنه تراجع خوفًا على حياتـه، ولولا ذلك لربما أصبح الأفروأمريكي الأول في البيت الأبيض، وبعد ذلك عينه بوش وزيرًا للخارجية واستغله للدفاع عن غزو العراق أمام الأمم المتحدة وحلفاء الناتو.

في النهايـة كان هنـاك اثنـان من الحـزب الجمهوري في مجلـس وزراء أوبامـا: وزير الدفاع جيتس Gates ووزير النقل لحود LaHood، وكان هناك وزير ثالث وهو السيناتور جود جريج Judd Gregg ابتعد في آخر لحظة تحت ضغط الحزب التابع له.

كان الجمهوريون يرون عملاءهم يختفون، ولهذا حاولوا لفت الأنظار إليهم، فعينوا مايكل ستيل Michael Steele الأفروأمريكي رئيسًا لهم، وهذا ما ندموا عليه؛ لأن ستيل كان يتصرف بعـدم مهارة تكتيكية وبحزبية إسـتراتيجية، وكانت تصرفاته لصالـح الديمقراطيين، فقد مزح بعقيدة الحزب بالملاحظة التالية: «إن المثلي لا يسـتطيع التجرد من رغباته تمامًا مثلما لا يسـتطيع الأسود التجرد من لونه» كما عبث مايكل ستيل مع أحد رموز الحزب عندما اتهم رش ليمباوغ Rush Limbaugh في برنامجه الإذاعي أنه «يلعب بالنار»، واضطر سـتيل أن يسحب ملاحظته مما أكد ضعف موقف الأفروأمريكي الجمهوري».

أما السياسي عديم الضمير رش ليمباوغ فقد كان باعتباره مرشحًا غير منتخب على رأس الحركة المحافظة بالكلمات العنيفة والصراخ، وكان منطقه: «أتمنى أن يفشل أوباما» ويكسب رش ليمباوغ عيشه باعتباره مقدم برامج في الإذاعة، وهذا قليل فموكلوه ربطوه بهم لمدة عشر سنوات قادمة بمبلغ 500 مليون دولار، ويصل ليمباوغ من خلال تعليقاته وشعاراته إلى 20 مليون مستمع، وعندما يظهر علنيًا يصبح حديث الأمة لقد سمعته في واشنطن ورأيته عندما كان يشرح علاقته بالرب:

«لقد أشار لي بطرس أن رش ليمباوغ ليس له أي دور ليلعبه في السماء، ثم قادني إلى قاعة كبيرة بها عرش ذهبي، وكان رش ليمباوغ يقف فوقه، وهكذا انتصر الضيف الأرضي، قال بيتر لا هذا عرش الرب لكنه فقط يعتبر نفسه رش ليمباوغ».

ساد الهرج والمرج قاعة المشاهدين في واشنطن من فرط السعادة، فقط الحزب لم يجرؤ على الضحك حتى الإنجيليون فسخوا زواج المنفعة بينهم وبين المحافظين الجدد، وانتقم أحدهم وهو ديفيد فروم David Frum من رش ليمباوغ بقوله: «إنه يستخدم لغة العبادة وليست لغة الحزب، فهو يريد الاستفزاز وليس الإقناع لأنه علق في حقبة ريجان ويتحدث عن بلاد لم تعد كما كانت...».

في الحقيقة كان الكثير من المحافظين ينظرون بعد انتهاء حقبة ريجان إلى حقبة جورج بوش الأب بخوف كبير؛ لأنه أكثر توجهه كان نحو السياسة الخارجية ولم يفعل الكثير على الصعيد القومي، واعتمدوا على رش ليمباوغ باعتباره حامل شعلة تراث المحافظين الكبار، لكنهم شعروا بالثقة عندما خسر بوش الأب المنتصر في حرب العراق معركته حول السياسة الداخلية في عام 1992 ضد الديمقراطي كلينتون والذي كان متأكدًا: «هكذا المجتمع يا للغباء!».

لقد تحول المحافظون الجدد بعد هذه الهزيمة؛ من المناقشات الداخلية إلى المجلات الفكرية مثل مجلة كومنتاري Commentary أو إلى مؤسسة إنتربيرز Enterprise للفوز بالرأي العام ومنذ عام 1995 يمول روبرت موردوخ Rubert Murdoch صحيفتهم النضالية ويكلي

ستاندرد Weekly Standard إمبراطور الإعلام، وتتواجد نخبة المحافظين الجدد في هيئة التحرير أولئك الذين يعتبرون الدين وسيلة للسياسة، ويشهرون بالديمقراطيين، ويرون تحقيق المطلب الأمريكي في السيطرة على العالم وليس في اشتراكها في التقرير، وهم طبعًا من قادوا بوش إلى طريق الحرب.

لقد تحول البعض منهم أثناء الفترة الثانية لرئاسة بوش من تابعين إلى منتقدين، فقد اعتقدوا أن الحزب يخوض المعارك الخاطئة في تلك الأثناء، على سبيل المثال معاركه ضد الإصلاح الصحي؛ مما أضر بالكثير من الجمهوريين الفقراء أو ضد تدريس الجنس في المدارس في الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة الأمومة بين المراهقين ـ وابنة سارة بيلين خير مثال على ذلك، فقد حملت وهي في السابعة عشرة من عمرها، واضطر والد الفتاة أن يقبل زوج ابنته في فترة الانتخابات، والآن انفصل الزوجان الشابان.

أوضحت ويكلي ستاندرد في طبعة مارس 2009 حال المحافظين العصريين، وكان العنوان يتحدث عن قطيع الغنم الذي يسير دون تفكير وراء أوباما، وكذلك مقولة لأليكسز دي توكيفيل Alexis de Tocqueville الذي وصف أمريكا قبل 200 عام بأنها نموذج المستقبل، لكنه أيضًا حذر من الاستبدادية الناعمة التي قد تعيد غرس البذرة الديمقراطية النابتة بالمعنى الذي يقصدونه هم طبعًا، كان المقصود من ذلك هو أوباما، وهذا النوع من التأثير على النفس الأمريكية.

علاوة على ذلك كانت دعوة المحافظين الجدد ضد مفهوم التعليم للجميع الذي يضعف الصفوة ـ ضد إنقاذ الشركات المتعثرة، ومع سياسة حماية الوظائف ـ ومن أجل التوسع في الطاقة النووية وبناء مخزن نفايات نووية في صحراء يوكا Yucca – من أجل خفض النفقات الاجتماعية وميزانية دفاع أعلى ـ ومن أجل الحصار الذي تفرضه الحكومة الكبيرة big government وعودة السياسة إلى الاقتصاد الخاص ـ وأخيرًا من أجل طبقة قيادية جمهورية جديدة تعزل كلًّا من ماكين وسارة بيلين.

لكـن ذلك غـير ممكن في هذا الوقت، فحامل الأمل الجمهـوري هو بوبي جيندال Bobby Jindal الذي تحول من الهندوسية إلى المسيحية، وهو يجعل التفكير متعدد الثقافات أكثر سهولة بالنسبة للمحافظـين الجدد، لكنه لا يجيد البلاغـة، فقد ظلت حججه التي سـاقها ضد ميزانية أوباما غير مقنعة كثيرًا، وقال لي صديقي الجمهوري: «نحن في فوضى».

عـلى الجانب المقابل نجد أن الحزب الديمقراطي ينقل صورة للوحدة الوطنية، فهو يهيمن على أغلبية المقاعد في بيتي الكونجرس، حتى وإن أكد هاري رايد Harry Reid في مجلس الشيوخ ونانـسي بولـسي Nancy Polsi في مجلس النواب أنهما لا يعملان تحت أوباما وإنما يعملان معه. وفي السياسـة الداخليـة يضمن أوبامـا النظام مرتين، فكل وظيفة في مجلـس الوزراء لها مثيل في البيـت الأبيض، والآن أصبح هناك مكتب لشـؤون الحضر «وقريبًا سـوف تنفذ الحجرات من البيـت الأبيـض» هذا ما ذكره لي أحد الزملاء «لكـن من أجل ذلك لا يجب على الرئيس الجديد أن يهتم بالإدارة التفصيلية».

في السياسـة الخارجية كانت كل الأطراف الفاعلة تعـرف بعضها جيدًا، فلم يحدث قط في تاريـخ الولايـات المتحـدة الأمريكية أن كانت كل هـذه القوى القياديـة قادمة من مجلس الشيوخ، فكل من هيلاري كلينتون وجو بايدن وباراك أوباما يعرفون بعضهم البعض جيدًا من لجنة السياسـة الخارجية، ورئيسـها الجديد هو جون كيري مرشـح الحـزب الديمقراطي السابق للرئاسة.

أمـا هـوارد ديـن Howard Dean الذي سـبق أوباما في اسـتخدام الإنترنت، فقد شـارك في تنشـيط قاعدة الديمقراطية الشـعبية التي سـاعدت أوباما للوصول إلى السـلطة، والآن يتم حشـدها مـن جديد للضغط على المترددين والخصوم ومرة أخـرى، كان العبقري ديفيد بلوف David Plouff هو من دعا المخلصين عبر الإنترنت إلى «إكمال العمل»، وبلوف ينتمي إلى حلقة المقربـين من الرئيس مثل الملحق الصحفـي روبرت جيبس Robert Gibs ورئيس الأركان رام إيمانويل Rahm Emanuel وكبير المستشـارين ديفيد أكسـلرود David Axelrod ومستشـارة

الحملـة فالـري جاريـت Valerie Jarett ووزيـر التعليم دنـكان Duncan ـ وجميعهم من زمرة شيكاغو، إنه يشبه مطبخ الوزراء وكبيرة الطهاة فيه هي بلا شك ميشيل أوباما.

جميل أن تكوني سوداء

تعيش عائلة إيكشتاين في جنوب شيكاغو، وتنتمي لبلدية هايد بارك اليهودية، ويقع معبدها الـذي بني منذ مائتي عـام قبالة منزل أوباما الجملوني مبـاشرة في جرينوود أفينو Greenwood Avenue أما طفلتا العائلة فتعرفان ماليا وساشـا جيدًا وتتعجبان من البسـاطة التي تتحرك بها الفتاتـان داخل الكـوردون الأمني، وقد وقع بيكشـتاين على الالتماس الذي سـاعد أوباما كي يصبح مرشـحًا لمجلس النواب. روت لي كارولين إيكشتاين Caroline Eckstein تعاملهم مع أوباما كجيران، وكانت متحمسة جدًّا لميشيل: «لديها حس لا يخطئ تجاه المداهنات وحب كبير للعدالة الاجتماعية».

في حين أن أوباما هو الأسـود «الذي التصق به هذا اللقب لكن دون أن يترك أي جروح أو ندبات» باعتباره مناضلًا قديمًا للحقوق المدنية فإن ميشيل قد كبرت وهي تعاني من التفرقة العنصريـة، وهـذا ما جعلها في نهاية دراسـتها في جامعـة برينسـتون Princeton في عام 1985 تقـول في بحـث تخرجها: «أحيانًا أشـعر كأنني زائرة للحـرم الجامعي، وكأننـي لا أنتمي إليه، وبغـض النظر عـن الطريقة التي أتعامل بها مع البيض يبدو لي أنني أبدو لهم في البداية سـوداء وبعد ذلك طالبة».

بعد ذلك بأربعة وعشرين عامًا أصبح «جميلًا أن تكوني سـوداء» فالبيض يتنافسـون لينالوا الحظوة لدى السـيدة الواثقة بنفسـها التي أصبحت السـيدة الأولى للأمة، إنها لا تدين بالفضل في صعودهـا لزوجهـا فقط، وإنما للدور الـذي لعبته في لقاءات المجـلات والظهور في البرامج التلفزيونيـة والعمـل مـن وراء الكواليـس، فهي من كانت توجـه الحملة الانتخابيـة مع ديفيد أكسلرود وفالري جاريت.

ذات يـوم تعاملـت فالري جاريت مع ميشـيل في مكتب عمدة شـيكاغو وهي عرابتها السياسـية، وكانـت جاريت التـي ولدت في طهـران كابنة لطبيب هي مـن خففت من تحيز ميشـيل ضـد البيـض، لكـن بمناسـبة إعلان زوجهـا مرشـحًا لم تسـتطع ميشـيل أن تكتم ملاحظتهـا بأنهـا لأول مـرة تفخر بأمريكا، وقد تـم تأويل هذه الملاحظة عـلى أنها تحيز ضد الأغلبية البيضاء وأنها أيديولوجية.

تعتـبر ميشـيل أكثر طاقة وأحيانًا أكثر سـخرية من أوباما، ومهامها أكثـر في الحياة اليومية، ولهـذا فهو يسـميها الصخـرة The rock، بعد إنجاب طفلتهما الأولى وفشـل أوباما أول مرة في ترشـيحه لواشـنطن مر زواجهما بأزمة، لكن ذلك زاد من استقلالية ميشـيل كما تقول كارولينا إيكشتاين: «إنها لا تتنازل عن حقوقها».

لقد خرجت ميشـيل عن ظل زوجها بعد دخولهما البيت الأبيض، والآن تسـلط الأضواء عليهـا: إنها رياضية لا تسـعى للنحافـة أنيقة غير متعالية، تحب الألـوان الجريئة مثل الأرجواني والفـيروزي، لا تلبـس تتبـع أي موضة ـ إنها تسـتخدم الموضـة كي تعبر عن نفسـها وعلى حد قول أوباما إنها تتولى المهام المصاحبة، وتبدو كأنها الشـخص الرئيسي، ففي أول رحلة كبيرة إلى الخـارج إلى لندن لحضور قمة العشرين وإلى شتراسـنبورج Straßenburg وبادن بادن Baden-Baden سرقـت منه اهتمام صحف الإثارة، فقد أكدت ميشـيل عـلى أنها ترى أن مهمتها الأولى هي رعاية الأطفال مع والدتها.

تسـير حيـاة عائلة السـيدة الأولى بـين البيت الأبيـض ومنزل عطلة نهاية الأسـبوع في كامب ديفيد Camp David والمنزل في شيكاغو، قالت في ألم إحدى المصورات التي كانت تريـد أن تاخـذ صورة واقعيـة للعائلة لكنها لم ترَ إلا ذلك العالم المثـالي «إنها حياة جميلة كي أكون صادقة».

«سـوف يحتاج الرئيس إلى التماسـك الأسري بشـدة» هكذا يرى توم هيوز Tom Hughes الذي كان يومًا ما وكيلًا تحت رئاسة دين رسك: «لقد أراد أوباما قبول الصراع ضد تغير المناخ

وفقـر التعليـم من أجل عدالة اجتماعيـة أكبر وتأمين الصحي عام، وهو الآن يشـن حرب ضد البطالة والإرهاب وشبح الإفلاس الاقتصادي».

عـلى أيـة حال لقد تغلبت أمريكا عـلى أزمات أكبر وما زالت تنجـح في تغيير هذه الأزمة، فقـد أخـرج جيفرسـون الأمة مـن هوة اقتصاديـة وبعد ذلك قام بتوسـيع الأمة حيث اشـترى مـن الفرنسـيين مسـتعمرة لويزانا وأخـرج إبراهام لينكولـن الأمة من ويلات الحـرب الأهلية والعبودية، واشترى ألاسكا من الروس وتغلب فرانكلين روزفلت على الكساد وفاز في الحرب العالمية، لكنه أثقل الأمة بديون فاقت كل التصورات، وترك الاقتصاد رخوًا لخطة مارشال التي أنقذت أوروبا كلها من الدمار.

لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية اليوم واثقة جدًّا بخصوص السـبيل لإنقاذ العالم، لكن التوقعات مرتفعة بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تساعد العالم على الخروج من الأزمة، ويرتبط هذا التوقع باسم محدد: باراك أوباما ربما هذا ليس مجرد اسم وإنما فكرة حان وقتها.

عرض سريع للسياسة العالمية (أو رئيسنا جميعًا)

لا تـزال هنـاك مخـاوف بخصـوص قـدرة أوبامـا عـلى تلبيـة متطلبـات السياسـة الدولية وتشـعباتها، وكذلك قدرته على السـير فوق المـسرح الدبلوماسي، لكن هـذه المخاوف تبعثرت مثلما يتبعثر الضباب أمام ريح بلاغته وحركات جسده، ففي رحلته التي قام بها في أبريل 2009 عـبر اثنان من المـدن الأوروبية الكبـيرة مدينة ألمانية وأخرى فرنسـية وفي القضايـا التي تتناول الاقتصـاد العالمي وحلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي اسـتمع أولًا ثم تكلم، لقد هدأ الأمواج عبر الأطلسية الثائرة مع كبار الصناعة العشرين وخصوصًا مع أنجيلا ميركل.

اتفقـت العـشرون في لندن وفي أكـبر أزمة مالية منـذ 80 عامًا على الحلـول العالمية: فرض الرقابـة عـلى البنوك والعـلاوات، وضـع قواعـد للمضاربين المسـتقلين في البورصـة، تجفيف الملاجئ الضريبية، وتقديم المليارات لدول العائلة الدولية التي لا يمكنها المسايرة.

بعيدًا عن الاحتجاجات وأعمال الشغب في شتراسنبورج وبادن بادن، قدم أوباما لحلف الناتو اتجاهًا جديدًا حتى إنه عين أمينًا عامًّا جديدًا ضد مقاومة الأتراك، وكان راسموسن الدنماركي عديمًا للحس معهم في التعامل مع النبي محمد.

في براغ تملق أوباما الاتحاد الأوروبي باعتباره شريكًا مساويًا، وأعلن في خطابه أمام قلعة هرادكاني لأول مرة عقيدته، وهي العمل من أجل عالم خالٍ من الأسلحة الذرية، لقد ألقى ذات يوم محاضرة بخصوص هذه الأمنية في منتدى للطلاب أمام 3000 شاب من فرنسا وألمانيا، وحصد التصفيق الملتهب، فنادي معجبيه يتكون أولًا واخيرًا من الشباب.

تناولت عائلة أوباما أول إفطار لها على الأراضي الأوروبية مع عائلة براون Brown والابنين الصغيرين لرئيس الوزراء البريطاني: ويقول باراك أوبام: كنت أتحدث مع جون وجيمس عن الديناصورات» هل أمير الأساطير في شارع داونينج Downing؟ لا إنه أب يفكر في الكبير والصغير، يضغط على يد ميدفيديف Medwedew وهو يصافحه، ويلقي السلام على الممثل السعودي، ويضع يده برفق فوق يد المستشارة، ويأخذ صورة مع برلسكوني.

لكن في الثاني من أبريل عام 2009 وقع في قصر بيكنجهام بلندن حدث غير مسبوق، لقد وضع أوباما يده فوق أكتاف الملكة الإنجليزية، لكن الأغرب هو أن الملكة إليزابيث الثانية كانت تمسك ميشيل أوباما من خصرها، فهل هذا كسر التابوهات بين النبيلة الأوروبية وسليل العبيد الأفروأمريكيين؟ لا إنه انتصار البساطة على الإتيكيت.

وفي ميدان ماركتبلاتس Marktplatz في شتراسنبورج تدخلت صحف الإثارة في السياسة، فقد فاق بريق ميشيل أوباما الملموس مظهر كارلا برونيس Carla Brunis المادي، وكان ذلك ثقلًا مضادًّا لجدية الموضوعات وللموقف، لكن الزوجين استقبلا أوروبا بفيض من المشاعر مثلما فعل جون وجاكلين كينيدي ذات يوم، لكن منتقدي أوباما في أمريكا سخروا منه قائلين: لقد كان رئيس الوزراء الأوروبي هو من أوصله لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وحذر مناضل الحقوق المدنية فوكلاف هافل Voclav Hafel من أن خطر السقوط يهدد أوباما إذا لم يفِ بالتوقعات العالية المفروضة عليه.

شـارك جـون سي كورنبلـوم John C. Kornblum بصفته دبلوماسـيًّا سياسـيًّا وتاجرًا في تطـور العلاقـات الأطلسـية على مـدى 40 عامًا، لقد اكتسـب شـهرته لدى العامـة من خلال مناقشـاته لرؤسـاء أمريكيـين وكبار شـخصيات الاقتصاد، وكذلك بسـبب شرحـه للمجتمع والسياسـة الأمريكيـة. ولد كورنبلـوم في ديتروات Detroit وكان أجداده من بروسـيا الشرقية ومقاطعـة كورنوال Cornwall البريطانيـة، إنه يقترب من العالم القديم والعالم الجديد بتعاطف نقدي، كما أنه مبهور بظاهرة باراك أوباما.

قضى ديتر كرونتسكوكر Dieter kronzuckr عدة سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية وشهد باعتباره مراسل الكثير من الأحداث الهامة في التاريخ الأمريكي بدءًا من انتخاب جون إف كينيدي وحتى انتخاب باراك أوباما، وقادته تحقيقاته الصحفية في طول وعرض الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وصف وتتبع في العديد من الكتب التغييرات التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية. إن كرونتسـكوكر مقتنع بأن أوباما والجيل الذي اختاره سوف يتغلبون على الأزمـة التي انطلقت من الولايات المتحدة الأمريكية، كما يعتقد أيضًا أن عالم الأطلسي سـوف يطور ديناميكية جديدة مع باراك أوباما.

اثنـان من الأصوات الأطلسـية يجريان حـوارًا مزدوجًا مع أمريـكا؛ حيث يرى جون سي كورنبلـوم وديتر كورنتسـوكر الرئيس الرابـع والأربعين للولايات المتحـدة الأمريكية باعتباره تكملة للأسطورة الكبيرة لبلد الاحتمالات اللامحدودة، يصف الكاتبان ويحللان مشروع أوباما من أجل أمريكا أخرى أفضل، فهل يستطيع أول رئيس أفروأمريكي أن يبني الجسور في المجتمع متعدد الثقافات وفي عالم الغد، أم سيتوه في إدارة أزمة السياسة القديمة والاقتصاد المريض؟.

«يحضر لنا اثنان من الخبراء الحقيقيين الأمة الأمريكية بقوتها القادرة على التغيير وانفتاحها للمستقبل، وهو أمر مهم لنا جميعًا».

ريتشارد فون فايتسزيكر Richard von Weizsäcker

«إنـه جـرد دقيق لتلك الدولـة في فترة تاريخية محـددة: إن هذا الكتـاب (الولايات المتحدة الأمريكيـة في الألفيـة الثالثة ـ قـوة عظمى في مفترق الطرق) يترك للقـارئ مهمة أن يكون رأيًا خاصًا به، إنها الصحافة السياسية كما يجب أن تكون».

«لا تديـن ألمانيـا بالفضل لأي دولة أخـرى كما تدين للولايات المتحـدة الأمريكية، ولكن لـماذا نأخـذ مثل ذلك الموقـف النقدي من الأمريكيـين بالذات؟ إن جـون سي كورنبلوم وديتر كورنتسـوكر لا يجيبان فقط على هذا السـؤال، وإنما يسلطان الضوء على التعامل مع الأمريكيين في عصر أوباما بطريقة جديدة؛ بتأمل وحسب التطورات الراهنة وبالنظر إلى المستقبل».

هانـز أولاف هينـكل Hans Olaf Henkel أسـتاذ شرفي بجامعـة مانهايـم Mannheim ورئيس سابق للرابطة الاتحادية للصناعة الألمانية BDI.

«إن قـدرة الولايـات المتحدة الأمريكية الفريدة من نوعها على التغيير والتجديد في أوقات التقلبـات الكبرى؛ هي ما سـيبقي أمريكا قوة تقرر مصير العـالم، يقرب لنا جون سي كورنبلوم وديتر كورنتسوكر هذه الحيوية المدهشة للولايات المتحدة الأمريكية بطريقة مجسمة ومؤثرة».

إيكارت فون كلادن عضو البرلمان الاتحادي ومتحدث سياسي خارجي للجناح الاتحادي للحزب الديمقراطي المسيحي / الاتحاد المسيحي الاجتماعي.

«إلى أين تتجه القوة العالمية تحت حكم رئيسـها الجديد؟ كيف تتحرك أمريكا؟ رؤى مثيرة لاثنين من الخبراء الضالعين بأمريكا».

ماريتا سلومكا Marietta Slomka

«اجتمـع اثنـان مـن أفضـل وأقـدر المراقبين للسياسـة الأطلسـية كـي يعرضوا لنـا المهمة الأمريكية، وكون سي كورنبلوم هو أحد أكثر العقول أصالة واطلاع في الدبلوماسية الأمريكية، وديتر كورنتسـكوكر مشهور بتحقيقاته الأسطورية التي قدمها من العالم الجديد، ويقدم كتابهما

الرائع الكثير من المنظورات والإشارات التي تبعث على التأمل، وهو كتاب مهم جدًّا لكل من يريد التحدث عن العلاقات الألمانية الأمريكية».

جاري سميث Jarry Smith المدير العام للأكاديمية الأمريكية ببرلين.

الفصل الثالث عشر

أمريكا جديدة؟

«عند ازدياد الحاجات والأخطار، فإننا نجد أن المبالغة في الحذر والخوف تضمن الفناء الأكيد»

فريدريك فون لوجو Fredric Von logau

إعادة تشكيل أمريكا

وصـف المؤلف ديتر كرونتسـكوكر في الفصل الثالث عشر موجة النشـاط التي اتسـمت بها المائة يوم الأولى من الفترة الرئاسية لباراك أوباما، ومن النادر أن يتم انتقاد رئيس لأنه يبذل مجهودًا أكثـر مـن اللازم، ولكن النقد غالبًا مـا كان يوجه إلى باراك أوباما؛ حيث نجـد أن باراك أوباما في حالة حركة مستمرة؛ حيث أراد التحرك من أجل تنفيذ ثلاثة برامج منفصلة في وقت واحد:

تحفيز اقتصاد البلاد، واستعادة مكانة أمريكا في العالم.

وضع رؤية لأمريكا جديدة ومختلفة، والتي يأمل أن يستطيع بناءها خلال فترته الرئاسية.

محـو مـا تبقى من آثار حقبة نيكسـون Nixon / وريجـان Regan / وبـوش Bush والتي يعتقد بأنها السبب وراء العديد من الصعوبات التي تواجهها الولايات المتحدة في وقتنا هذا.

وعـلى الرغم من تصريحـات أوباما الاسـترضائية في حفلة تنصيبه، فإنـه سرعان ما بدأ في وصف مشاكل البلاد على أنها الإرث الذي خلفه الجمهوريون وراءهم.

قام الرئيس أوباما بمحو أي شك حول مدى حزمه وإصراره، وذلك عندما كتب معلقًا على أولى ميزانياته التي قدمها في السادس والعشرين من فبراير لعام 2009 والتي جاء عنوانها «عهد جديد من المسؤولية»؛ حيث علق قائلًا «هذه هي التركة التي ورثناها ـ تركة من سوء الإدارة وسوء تحديد الأولويات، تركة من الفرص الضائعة والمشاكل الهيكلية العميقة التي تم تجاهلها لوقت طويل».

ومن حيث أعلن رونالد ريجان ذات مرة أن الحكومة هي المشكلة وليست الحل، خالفه أوباما في الرأي؛ حيث قال بأن الحكومة وجدت لتقود، فهو يرفض نظرية التنقيط فيما يتعلق بتوزيع الدخل، ويطالب بفرض المزيد من الضرائب على الأغنياء، وذلك من أجل استعادة التوازن في توزيع الدخل والذي يعاني من خلل واضح على مدار العشرين عامًا الماضية.

يدعو الرئيس من أجل تقليل انبعاث غازات الصوب الزجاجية (الدفيئة) وتطوير أنواع بديلة من الوقود ـ وتوفير ميزانية الدعم المالي اللازم لوزارة الخارجية للعمل على ضمان أن العملية الدبلوماسية عادت تحت سيطرة المدنيين مرة أخرى بدلًا من العسكريين، وهو ما كان عليه الحال غالبًا أثناء حكم بوش. تطول لائحة التغييرات المطلوبة ـ توفير المزيد من الدعم المالي لأبحاث التغير المناخي وكذلك المساعدات الأجنبية، كما أنه بدأت المناقشات حول برنامج تأمين صحي مكثف، ورفع الحظر المفروض على التمويل الحكومي لأبحاث الخلايا الجذعية .

إن تلك رؤية لمجتمع يدعمها تقريبًا بكل إخلاص أي زعيم أوروبي، ويتمثل ذلك في المعتقد الأوروبي القائل بأن مسؤولية الحكومة هي تحديد أهداف المجتمع والدفع نحو تحقيقها بدلا من إبقاء الأمور في حالة اتزان فقط دون توجيه، كما كان يرى جمهوريو ريجان. في الحقيقة، لو كان هناك انتقاد محدد ثابت لأوباما في المائة يوم الأولى من ولايته، هو أنه «أوروبي أكثر من اللازم» وظهر ذلك في التعليق الساخر لروجر كوهين Roger Cohen «أعتقد أن فرنسا واحدة تكفى»، وروجر كوهين كاتب ليبرالي يحرر عمودًا بجريدة نيويورك تايمز New York Times والذي

ساند أوباما منذ البداية، وفي هذا السياق نجد أن جريدة الواشنطن بوست Washington Post رأت أنه من الضروري أن تنشر مقالة توضح فيها أن أوباما ليس اشتراكيًا.

ولكن هناك اختلافًا كبيرًا، حتى لو تشابهت كثير من الأمور مع الأفكار الأوروبية، فإن آلية التنفيذ مختلفة تمامًا. بالنسبة لغير الأمريكيين الذين يعنيهم الأمر، فإن فهم الطريق نحو أمريكا جديدة هو تقريبًا على نفس المستوى من أهمية فهم واستيعاب أدق تفاصيل ذلك الطريق.

إن أوباما والولايات المتحدة يتشاركان رؤية فريدريك فون لوجو للموقف؛ حيث أثناء أزمة من هذا القبيل يمكن أن تشكل ردود الفعل المترددة خطرًا. إن أوباما والولايات المتحدة يتصرفون بطريقة أمريكية للغاية؛ حيث لديهما جدول أعمالهما الخاص والذي يريدان أن يبدءا في تنفيذه، وإن هدفهما ليس «حزمة الاستقرار» كما هو الحال في أوروبا، بل هم يبنون أمريكا جديدة، وليس لديهم الكثير من الوقت لإضاعته. وكلما برزت أمامهم التحديات سواء في حالة السلم أو الحرب، تأتي إجابة أمريكا دائمًا ثابتة «تسخير كميات هائلة من الطاقة والموارد»، أما بالنسبة للقلق من أمر ما كالوارد على النحو المفصل في ميثاق الاستقرار الأوروبي، فهو أمر لن يمر على عقولهم.

تمر بالطبع تلك القضايا على عقول شركائهم من الأوروبيين، وبدأ شركاؤهم من الصينيين في القلق حول استقرار استثماراتهم في الولايات المتحدة، والتي يتكدس بها هذا الكم الهائل من العجز. أما العالم النامي فيساوره القلق حول إذا ما كان سيقوم الأمريكيون بتوجيه رؤوس الأموال الموجودة بالعالم نحو أغراض عملية إعادة البناء. تبدو فجأة «أمريكا أوباما» على نفس النحو غير المنضبط والمضطرب تمامًا مثلما كانت في عهد جورج بوش.

يتبع شركاء أمريكا جدول أعمالهم الخاص، ولا ينفقون الكثير من الوقت في محاولة الكشف عن كيفية بناء طرق جديدة للتعاون مع أمريكا الجديدة، وقد يشوب هذا الأمر قصر النظر، ولكن تلك هي الطريقة التي يتصرف بها السياسيون خاصة في حالة مواجهتهم للانتخابات.

إن تلك المشكلة تمتلك نفس القدر من الأهمية في أوروبا وعبر الأطلسي. إن مثل سوء التفاهم هذا يكمن في الخلاف حول الحرب في العراق، وذلك على الرغم من أن معظمهم يعتقد أن ما فجرها في المقام الأول هو الطبيعة غير المتعاونة لإدارة جورج بوش.

خرج أوباما عن طريقته المعتادة في إظهار احترامه لآراء شركائه؛ حيث أرسل نائب الرئيس ووزير الخارجية في رحلة حول العالم للتأكيد على رغبته في التشاور والشراكة، وكما ناقشنا في الفصل الحادي عشر فهو يعتقد أنه يجب استعادة العالم الأطلسي الغربي والذي يمثل إطار عمل لزعامة أمريكا للعالم، فهو يريد «إعادة ضبط» العلاقات مع روسيا، على الرغم من أن سياساته جاءت مشابهة لتلك الخاصة بالأوروبيين، وأن دوافعه جاءت إيجابية أيضًا، إلا أنه قد ظهرت بعض التعقيدات؛ حيث من الواضح أنه ما زال هناك الكثير من التفاصيل يمكن اللعب عليه هنا أكثر من تلك التفاصيل الخاصة بالسياسة الاقتصادية. إن إدارة أوباما تقع تحت وطأة ضغط شديد للبدء في عملية التغيير والتي ستتسم بنفاد الصبر في بعض الأحيان في ظل القواعد الثابتة للعبة الدولية.

مشاهد من أمريكا الجديدة

لقد أعطتني زيارة قمت بها حديثًا إلى السوق التجاري في مقاطعة مونتجمري Montgomery بولاية ميريلاند Maryland مصطحبًا زوجتي معي، نظرة داخلية شيقة حول الحاجة الملحة التي تدفع قطار أوباما إلى الأمام. على الرغم من الانكماش الاقتصادي فإن السوق التجاري كان يعج بالمتسوقين، ولكن في مشهد متباين قد نكون صادفناه منذ عقد مضى؛ حيث نجد أن هؤلاء المتسوقين يمثلون جميع دول العالم، وتستطيع هنا بالفعل رؤية ثورة أوباما موضع التنفيذ، ونستطيع بذلك أن نفهم بشكل أفضل شعوره بالحاجة الملحة للإسراع في برنامجه.

إن أمريـكا تنمـو ثقافيًا ليس فقط على مسـتوى الأرقـام، ولكن أيضًا مـن حيث التنوع؛ حيث نرى المتسـوقين في سـوق مونتجمري التجاري، من الشرق الأوسـط والهند وباكستان والفلبين واليابان، كذلك كان هناك إفريقيون من العديد من الثقافات المختلفة، وبالطبع عدد كبـير من الأمريكيـين اللاتينيين. إن أمريكا ليسـت مثل الصين ولكنها بصـدد مواجهة نفس المهمة، سـكان معولمون يجب عليهم أن يتعاملوا مع النظام الاقتصادي والاجتماعي الحديث. إن الريجيانية Regains لم تعد مبدأ يقبل العمل به؛ حيث بدأت الصناعات القديمة في التراجع والانحـدار، وأصبح الرئيس يواجـه مهمة حث الاقتصاد على التحـرك، ليس فقط من أجل اسـتعادة الوظائـف، ولكن أيضًا من أجل إنتـاج الموارد اللازمة لعملية إعـادة هيكلة أمريكا المتغيرة بسرعة كبيرة.

نأتي لموقع ثانٍ ـ الحدود بين ولاية أريزونا Arizona والمكسـيك Mexico، إن تلك المنطقة منطقة خصبة مخصصة لرعاية الماشـية، والزراعة، والتعدين، وكذلك هي مليئة بنقاط التفتيش الحدوديـة. لمـاذا؟ لا يرجع ذلك إلى تحـركات المهاجرين ولكن لأن تلـك المنطقة الحدودية هي مركـز حركة هائلة لنقل المخدرات من المكسـيك، وبينما كنا في زيـارة في أوائل فصل الربيع من عام 2009 خلال موسـم الإجازات الجامعية، تم توجيه تحذير للطلاب الأمريكيين بعدم زيارة الشواطئ المكسيكية كما اعتادوا في الكثير من الأحيان في هذا الوقت من العام.

تتضمـن حروب المخـدرات مئات المقاتلين المدججين بالسـلاح، والتي تأخـذ مكانًا على المناطق الحدودية من المكسـيك؛ حيث تسـعى المنظمة (الكارتـل The Cartel) إلى الحفاظ على استقلالها في ظل المطاردات الحكومية، وبينما كنا نقود بمحاذاة طريق سكة حديد ريفي معزول، قابلنا نقطة تفتيش تنتمي لتلك النوعية التي تتوقع مقابلتها في إحدى دول الشرق الأوسـط أو أفغانسـتان، بادرنا ضابط يدعى لوبيز بأدب واسـتفسر عن إذا ما كنا جميعًا مواطنين أمريكيين، وكان مـن الواضـح بالطبـع أننـا كذلك؛ ممـا دفعه للسـماح لنا بالعبـور، ولا تبعد تلـك النقطة الحدودية أكثر من 50 كيلو مترًا من الحدود.

ننتقل مرة أخرى، تلك المرة سنذهب إلى فينكس Phoenix بولاية أريزونا، والتي تعتبر حتى وقتنا هذا أسرع المدن نموًّا في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث منذ خمسة وعشرين عامًا كان يقطنها أقل من مليون نسمة. أما الآن فقد وصل تعداد سكانها إلى خمسة ملايين نسمة، كذلك تعتبر خامس أكبر مدينة على مستوى الدولة، لقد كانت واحدة من أهم مراكز التدفق العقاري، حتى انخفضت أسعار المنازل لأكثر من 30٪ خلال السنوات الماضية، كذلك وصلت حالات الرهن العقاري لأكثر من 20 ألف حالة، وبينما نحن نقود متجولين ما بين الصفوف اللامتناهية من الأسواق التجارية، والتي تم بناؤها بعد استقرار السكان الجدد، صادفنا شيء جديد يدعى «مراكز التسوق المهجورة Ghost Malls»، وهي عبارة عن مراكز تسوق جديدة تم الانتهاء من بنائها ولكن لا يمكن تأجيرها؛ حيث نرى فيها المحلات التجارية التي لم يتم استخدامها من قبل مصطفة بجوار بعضها البعض فارغة، وتقع تلك المراكز في وسط أحياء سكنية تم التخطيط لها ولكن لم يتم بناؤها؛ حتى في الأحياء السكنية الأقدم، تظهر من وقت لآخر بشكل منتظم المنازل الفارغة، مما أدى إلى وضع المزيد من الضغوط على عاتق الرئيس من أجل وضع سوق العقارات تحت السيطرة.

ننتقل بعد ذلك إلى الإعلام الأمريكي؛ حيث الأخبار الاقتصادية سيئة والغضب الشعبي يتصاعد؛ حيث يتم انتقاد الرئيس التنفيذي لبنك أوف أمريكا Bank of America بلا رحمة في الصحافة، وذلك عندما استقل طائرة خاصة ليطير بها إلى نيويورك New York خصيصًا ليخبر الجهات التنظيمية هناك أنه لا يستطيع إصدار قائمة بأسماء مصرفيي ميريل لينش Merrill Lynch والذين تلقوا مكافآت عن العام المنصرم، ولكن الحكومة والتي أصبحت مالكة لحصة في بنك أوف أمريكا تريد أن ترى تلك القائمة على أية حال.

يزداد النقاش سخونة أكثر وأكثر عندما قامت شركة التأمين AIG بنشر أرقام مكافآت مصرفييها، وذلك حتى بعد تسجيلها خسارة تقدر بـ 4.5 مليار دولار، وذلك في نفس الوقت الذي تلقت فيه دعم من الحكومة يقدر بـ 1.7 مليار دولار.

يـلي ذلك بيوم، تصريح للمستشـار الاقتصـادي للبيت الأبيض لاري سـمرز Larry Summers والذي أدلى به في لقاء تليفزيوني يفيد بأن وزارة الخزانة درسـت جميع الخيارات القانونيـة المتاحـة، وخلصت إلى أنه لا يوجد لدى الإدارة السـلطة اللازمة لإيقاف صرف تلك المكافآت .

يلي ذلك بأقل من 24 سـاعة، اجتاحت الإدارة موجة من الغضب الشـعبي العارم بسـبب مكافـآت شركـة AIG، وفى محاولة لوقف تلـك الانتقادات، بادر الرئيـس أوباما بوصف تلك الشركة بأنها «شركة تعاني من مشاكل مالية بسبب جشعها وعدم مبالاتها ....».

اسـتحوذ الفنـان الكوميـدي جـون سـتيوارت John Stewart على مشـاعر الجمهور من خلال برنامجه اليومي، وذلك عندما قام بتقليد جيم كارمر Jim Carmer بلا رحمة، وهو مذيع يعمـل في المحطة الاقتصادية في شـبكة CNBC، والذي نصح النـاس قبل يوم واحد من موجة الإخفاقات التي واجهتها البنوك بشراء أسهم بنكية.

قال جويل برينسـون Joel Brenson، وهو منظم اسـتفتاءات حول أوباما، وذلك في لقاء مع صحيفة الواشـنطن بوسـت «ليس هناك أدنى شـك في وجود موجة شـعبية قوية» ـ وأكمل قائـلًا «لقـد اسـتلزم بناء ذلك أربع سـنوات. إن الأمريكيـين يؤمنون بأن واحـدة من العقبات الرئيسـية للتقـدم في التعامل مـع أكثر التحديات أهميـة ـ الرعاية الصحيـة والطاقة، وهو تأثير المصالح الخاصة للشركات على جدول أعمال الإدارة».

إن تلـك هي الأشـياء التي تسـاهم في زيادة موجـة الغضب في مجتمع ما، قـد فقد إيمانه في النخبـة السياسـية والاقتصادية، وعلى الرغم مـن هذا فإنه ظلت نتائج اسـتفتاء أوباما مرتفعة، ولكن على الصعيد الآخر ظلت ثقة الشعب في الحكومة منخفضة، ويجب على الرئيس أن يظهر نتائج عملية من خلال برنامجه خلال عامين، هذا إذا أراد الحفاظ على الأغلبية في الكونجرس، وهـو يعلـم تمامًـا أنه لا يسـتطيع تحقيق ذلـك إلا إذا عاد النظـام المالي للعمل بكفـاءة على وجه الخصوص. نجد في أمريكا اليوم أن النخبة من رجال الأعمال يقعون تحت نيران الهجوم المستمر

بسبب فشلهم في إدارة الاقتصاد بنجاح، وكذلك لظهور أدلة على خيانة الأمانة، والجشع، وعدم الكفاءة والتي يبدو أنها تزداد يومًا بعد يوم. إن الرئيس يعلم جيدًا أنه يحتاج إلى ثقافة أعمال صحية حتى تعود الصحة إلى الاقتصاد الأمريكي؛ لأنه في حاجة ماسة إلى تحقيق النجاح.

ستتوالى الأحداث بسرعة كبيرة حتى إنه سيشوب السلوك الأمريكي بعض الاضطراب لبعض الوقت في المستقبل. إن تعلم كيفية فهم حاجة أمريكا للتغيير وكيفية إدارة ذلك هو خيار أفضل من المراقبة، في ظل حالة من فقدان الثقة والتي تؤدي بالفرد إلى استنتاج أنه ليس من المستحيل التعاون مع أمريكا في نهاية المطاف، أو قد يكون الأمر سواء، كما كان الحال في السنوات الأخيرة حتى إنه أمكن استنتاج أن السلوك الأمريكي على درجة من الغرابة بحيث تسخر معظم احتياجات البلاد في العالم للحفاظ على الاستقرار، والتي أصبحت بالفعل في حد ذاتها سببًا لعدم الاستقرار.

إن النظام الأمريكي كالكتاب المفتوح أمام الجميع، ويأتي الغرض من هذا الكتاب هو تزويد القراء بالمساعدة اللازمة لقراءة الرسائل التي ترسلها اليوم الولايات المتحدة، والتي من السهل استقبالها، ولكن يصعب حل شفرتها. كيفية تعامل أوباما مع التحديات المقبلة، سوف توفر فرصة جديدة للتعرف على السلوك القومي الأمريكي، وسوف تمدنا أيضًا بالكثير من الأدلة حول أفضل سبل التعامل مع «أمريكا الجديدة» الخاصة بأوباما في السنوات القادمة.

ثلاث أمريكات جديدة خلال خمسة وسبعين عامًا

لنبدأ برؤية أوباما لأمريكا الجديدة، سنجد أن أكثر الكلمات شيوعًا في الاستخدام في الإنجليزية الأمريكية هي كلمة «جديد»، فنحن نتاج «العالم الجديد»، وطبقًا للتعريف فإنه يجب على كل شيء نقوله أو نفعله أن يكون جديدًا، وكما شرحنا في الفصول السابقة إن جوهر الوجود الأمريكي هو إعادة الاختراع (التشكيل). إن المستوطنين الأوائل عزموا على إعادة تشكيل المجتمع الغربي، كذلك سعى المهاجرون في القرن التاسع عشر إلى إعادة تشكيل أنفسهم في تلك البيئة الجديدة.

وهكذا الأمر أيضًا بالنسبة للسياسة والحكومة الأمريكية؛ حيث كل رئيس جديد يأتي بمعتقد راسخ مفاده أنه يغير طريقة عمل أمريكا، ولكن لم يصادفهم كلهم النجاح في هذا الأمر، فعلى سبيل المثال انتمى إيزينهاور Eisenhower للحزب الجمهوري ولم يكن لديه أدنى اهتمام أو شغف نحو إنهاء «الصفقة الجديدة»، وأيضًا بيل كلينتون Bill Clinton الذي انتمى للحزب الديمقراطي والذي تعايش بسهولة مع الريجانية، إن هؤلاء كانوا رؤساء صالحين ولكنهم قاموا بإدارة نظام قائم ليس أكثر، وبعد أربعين عامًا من تطبيق المبدأ الرأسمالي القائل «دعه يعمل، دعه يمر» أو ما يعرف برأسمالية عدم التدخل، انتاب الجمهوريين قلق أكبر حول مستقبلهم الاقتصادي أكثر من قلقهم من النظريات الاقتصادية، لقد انتهت حرب السبعينيات الثقافية منذ وقت طويل، ولم يعد الناخبون مهتمين بالأيدلوجيات بعد الآن، هم فقط يريدون من الحكومة أن تتقدم وتقوم بحماية مصالحهم، لقد اختاروا أوباما من أجل إعادة صياغة أمريكا في صورة جديدة، صورة أكثر مراعاة وأكثر عملية.

وصف بيتر بينارت Peter Beinart الموقف في مجلة تايم Time قائلًا: «تمثل تلك على حد سواء بالنسبة إلى أوباما تحديًا كبيرًا وفرصة كبيرة في نفس الوقت؛ حيث إذا استطاع أن يفعل ما فعله فرانكلين روزفلت ـ والذي جعل الرأسمالية الأمريكية أكثر استقرارًا وأقل وحشية ـ فإنه سينجح في التأسيس لأغلبية ديمقراطية والتي ستحكم بدورها السياسة الأمريكية على مدى جيل كامل».

اختار الرئيس هذا الموضوع ليضمنه في خطابه الافتتاحي بعد توليه الرئاسة؛ حيث قال: «بدءًا من اليوم، يجب علينا أن ننهض بأنفسنا، ننفض الغبار عنا ونبدأ العمل مرة أخرى من أجل إعادة إصلاح أمريكا».

كم من الرؤساء سيخاطر بإلقاء خطاب كاسح كهذا في أول خطاب رسمي له للأمة؟ لقد جرب نيكولا ساركوزي Nicholas Sarkozy الرئيس الفرنسي شيئًا مماثلًا في خطابه وتعرض للسخرية بسبب ذلك؛ حيث لا يوجد مواطن فرنسي جاد قد يعتقد أن أمة معقدة التركيب من الممكن أن يتم إعادة إصلاحها.

ولكـن في حالـة أوباما لم يأتِ تعهـده كأمر جديد؛ حيث إن تعهـده بتغيير عهد الجمهورية المحافظـة كان في الحقيقـة مماثـلا لوعد رونالد ريجـان بتحطيم بقايا «الصفقـة الجديدة» الخاصة بروزفلـت عنـد انتخابه عـام 1980، وبالطبع محا فرانكلين روزفلت تقريبًا كل ما تركه أسـلافه من الجمهوريين عند توليه السلطة.

لذلك لدينا في الواقع ثلاث أمريكات جديدة خلال مدة الخمس والسـبعين عامًا الماضية، وهنـا نصادفًـا فارقًا بسـيطًا وهامًـا؛ حيث نجـد أن معظم دول العـالم تعمل من خـلال قاعدة ثابتـة ومسـتقرة من العادات، والسـلوكيات والتاريـخ، والتي تطورت عبر السـنين والقرون. أمـا بالنسـبة لهم، نجـد أن وعد أوباما بأمريـكا جديدة لا يعدو في الواقع أكثـر من مجرد محاولة التحول أو الانتقال إلى عهد سياسي جديد، والذي فيه تنتقل القوى من حزب إلى آخر، ولكنه بالتأكيد ليس إعادة بناء للأمة؛ حيث إن اقتراح إعادة بناء شـامل للأمة في خضم أزمة كبيرة تمر بها يعد بمثابة انتحار سياسي.

حتـى بعـد مـرور عقود مـن التغيرات الحـادة والعنيفـة مثل تلـك التي حدثـت في القرن العشريـن، فإن مجتمعات مثل ألمانيـا، واليابان، أو حتى الصين، عـادت إلى عاداتها القديمة من أجـل أن يسـتند إليهـا وجودها الجديـد. إن انضمام ويلي برانت Willy Brandt إلى السـلطة في ألمانيـا عـام 1969 كان حدثًا هامًّا، ولكن لم يتـم تصويره على أنه ظهـوره «ألمانيا جديدة»، حتى تولي شـارل دي جول Charles de Gaulle السـلطة في فرنسا كان ينظر له على أنه قائد يستعيد التقاليد والعادات الفرنسية بدلًا من إعادة بناء البلاد.

ولكـن التاريـخ الأمريكـي مختلـف؛ حيث لم يكتـب في قرون بـل في فصـول، ويركز على الأشـخاص والمعتقـدات وليـس الأحزاب السياسـية؛ حيـث إن التغيير الحـادث في كل عصر يمثل في حقيقة الأمر ما هو أكثر من مجرد تغيير في الأحزاب السياسـية، ويمثل في نفس الوقت اسـتحواذ مجموعة مختلفة تمامًا من الأشـخاص ذوى جدول أعمال مختلف على كل من الشـعور الشـعبي (العـام) والحكومة. إن العصـور الجديدة تبدأ برؤية جديـدة وفصل جديد من فصول

الحيـاة الأمريكيـة، فبالنسـبة للأمريكيـين، إن مجرد فتح فصـل جديد من هـذا القبيل يصف في الواقع «أمريكا جديدة».

مـن وجهة النظر الأوروبية ـ جاء الكاتب الشـهير أوسـكار وايلـد Oscar Wild محقًا عندما أشـار إلى أن الولايات المتحدة هي الأمة الوحيدة التي سـتمر من مرحلة الهمجية إلى مرحلة الانحدار الحضاري دون الاسـتمتاع بمرحلة الحضـارة بينهما؛ حيث إن «الحضارة» من وجهة نظره هي عبارة عن شـبكة من الحوادث السـابقة والتغيرات السياسـية والثقافية التي تشكل بدورها الإطار العام للحياة الأوروبية. إن الحضارة تمد المجتمع بالخيوط المتينة التـي تربط المجتمع بعضـه ببعض بغض النظر عن رياح التغيير المتكررة، كذلك هي تصف عمـق وثـراء الحياة اليومية التـي توفر كلًا من الراحـة والتوجيه للمواطنـين بينما يخوضون تحديات الحياة.

إن المفكريـن والمثقفـين يلعبون دورًا مهمًا في مثل تلك الحضـارات؛ حيث يتمتعون بمكانة خاصـة مثلهـم مثل الأجانب الذين يفسرون ويقومون بالتغيير في النسـيج المجتمعي الثابت في أغلب الحالات، ويتم الاعتراف بهم كمصدر فهم لثقافة الفرد.

يمثـل الأجانـب في أمريـكا عائقًـا في الطريق؛ حيـث لا يتمتعون بأي مكانـة خاصة، ولا توجد حاجة إليهم لتعريف التغيير، وتلك هي أحد الأسـباب التي من أجلها يرفض المفكرون والمثقفون الأوروبيون أمريكا بشـدة؛ حيث يتغير النسـيج المجتمعـي بسرعة كبيرة جدًا بحيث يسـتحيل معهـا إقامة أي تواصل فكـرى قد يضيف بـدوره عمقًا ودقة للثقافـة، ويتضح ذلك جليـا عندمـا نرى باراك أوباما يبدأ في حل الأزمة الاقتصادية؛ حيث لا يضع في اعتباره القرون الطويلة من الإجراءات السابقة والتي توجه صناع القرار الأوربيين، أو الهنود، أو الصينيين بل هو في الواقع يرفضهم وذلك لصالح بناء شيء جديد... أمريكا جديدة.

إن الافتقـار إلى وجـود إطار حضاري تقليدي في الثقافة الأمريكيـة عادة ما يزعج في كثير من الأحيان أولئك الذين اعتادوا على وجود واحد في وطنهم. ومن واقع خبرتي، أجد أن ذلك

يعيق أيضًا قدرة الأمريكيين على الوصول إلى التوافق مع شركائهم من الأجانب؛ حيث إن الأمريكيين يؤمنون بأن غرائزهم هي المرشد الوحيد الذي يحتاجونه، وبطبيعة الحال غالبًا ما يتجاهل ذلك تعقيدات النظم الوطنية الأخرى.

هناك شيء ما آخر يزعج غير الأمريكيين بخصوص تلك البلد الصاخبة والمثيرة، ولكن يطلبون بعض الوقت حتى يمكنهم الإشارة بوضوح لموضع انزعاجهم، وعندما يحدث هذا، فإنهم غالبًا ما يعرفون ذلك بالسطحية والخداع، وببساطة أكثر عدم وجود معايير دائمة للحياة في الولايات المتحدة، والأمر الذي لا يفهمونه دائمًا هو أهمية الحيوية التي تولدها مثل تلك الحضارة، وغالبًا ما يجدون صعوبة في بث مثل تلك الحيوية في ثقافتهم السياسية الخاصة.

التقينا لأول مرة مع فرانسيس تورلوب Frances Trollope في الفصل الرابع، وهي امرأة إنجليزية عاشت في الولايات المتحدة لعدة سنوات في عشرينيات القرن التاسع عشر، ولقد علقت على ذلك الجانب من الشخصية الأمريكية على النحو التالي: «إذا كان المواطنون الأمريكيون بتلك الوطنية التي يدعون أنهم عليها، إذن لن يقحموا أنفسهم في تلك المطاردة العنيدة والصعبة من أجل إثبات أنهم أول وأفضل جنس بشري، وأنه ليس هناك ما يمكن تعلمه بل ما الذي يمكنهم تعليمه، وأنه لا يستحق أن تحتفظ بشيء أنت لا تملكه من الأساس».

رؤية شعبية للمستقبل

أشرت في فصل سابق إلى إن الرؤساء الأمريكيين المنتخبين في الواقع يمثلون الدستورية الملكية والذين تحدد سياستهم، وسلوكياتهم، بل وحتى أسرهم معالم الحقبة التي سيشغلون خلالها البيت الأبيض، لقد رفض الآباء المؤسسون الطبقة الأرستقراطية الوراثية وأسلوب الحياة الملكي الأوروبي، ولكنهم فهموا واستوعبوا أن بلدًا بهذا التنوع يتطلب مسؤولًا تنفيذيًا

قويًّا، إن سلطات الرئيس تقيدها مبادئ فصل السلطات والتي تعد أحد أسس الدستور، ولكن بحكم منصبه وحرية التعبير التي يتمتع بها ومكانته العليا، يضعه كل ذلك بلا شك في مكانة أعلى من أي مسؤول حكومي آخر.

اعتقد تيودور روزفلت Theodore Roosevelt بأن الرئيس يجب أن يكون أقرب لدور الواعظ منه إلى السياسي، وربما كان على حق؛ حيث إن مصدر القوة الأساسي لأي رئيس هو مدى قدرته على وضع جدول الأعمال وتحديد الاتجاهات اللازمة، وذلك ليس للحكومة بل للأمة، وكما ناقشنا في الفصل الرابع، فإن تعريف «أمريكا الجديدة» الخاصة بأوباما يأتي مصدره في المقام الأول مصدره من المجتمع الأمريكي الحيوي الجديد، والذي تطور على مدى الخمسة عشر عامًا الماضية.

إن الاضطرابات التي تسبب حالة الهلع الموجودة الآن مصدرها اقتصادي وليس ثقافيًّا؛ حيث إن جيل الألفية لا يعير لمعارك الماضي الأيديولوجية الكثير من الانتباه، ولكنهم مهتمون بشدة باستعادة المجتمع الأمريكي لحالة الازدهار التي كان عليها، وهذا يعنى أن أوباما سيمضي الكثير من الوقت في الاستماع إلى الأمة، وكذلك في التحدث إلى التجمعات في جميع أنحاء البلاد، وذلك بطريقة سيأخذها قليل من زعماء أوروبا في الاعتبار، وسيتم تحديد ملامح تعريفه لـ «أمريكا الجديدة» الخاصة به من خلال تلك اللقاءات.

تحدثنا سابقًا عن الشعور بالمصير الوطني والذي يمثل أساس تأثير الحياة السياسية الأمريكية، ولقد حاول ألكسندر فون هومبولت Alexander von Humboldt شرح تلك الظاهرة للملك البروسي على النحو التالي: «يا صاحب الجلالة، إن أمريكا لديها حكومة لا يشعر بها أحد ولا يراها أحد، ولكنها في نفس الوقت أقوى عدة مرات من تلك التي لديك».

وبكلمات أخرى، فإن أمريكا أوباما الجديدة يتم بناؤها بواسطة رئيس ذكي وبهي الطلعة وذلك بمساعدة الأمة التي أنتجته، أما في النظام البرلماني الأوروبي، نجد أن الأحزاب تختار مرشحيها، والذين بدورهم يضعون برامجهم ويقومون بتقديمها لجمهور الناخبين، ثم يقوم الناخبون باختيار من الذي ينبغي عليه أن يشكل الحكومة ويلتزم بميثاقها.

بعد ذلك، تقل الاتصالات بين الحكومة والشعب، وتكون ذات صفة رسمية في الأغلب الأعم، أما بالنسبة لأنواع الخطب والنداءات المباشرة والتي يفضلها الرؤساء الأمريكيون، فهي غير معروفة تقريبًا للأوروبيين، ويحدث التفاوض على الأهداف والبرامج عادة من خلال المؤسسات البرلمانية المختصة والحكومة.

تناقش واضعو الدستور الأمريكي لشهور حول مقدار الديمقراطية المباشرة التي تبنى على أساسها الحكومة، وفي النهاية توصلوا إلى تسوية معقدة بمقتضاها تقسم السلطة بين ثلاثة فروع ثم بداخل الفروع مرة أخرى، وتم إعطاء الولايات نوعين من السلطة ـ واحدة لإدارة شؤونهم الخاصة والأخرى للحكومة الوطنية من خلال التمثيل البرلماني في واشنطن، وأي شخص تسنى له زيارة أحد المكاتب في الكونجرس بواشنطون، سيعلم على الفور أن الممثل البرلماني يمثل ولايته فقط وليس الأمة ككل.

إن أساس السلطة السياسية في واشنطون، كما هو الحال في الأماكن الأخرى، يمكن العثور عليه في النقاط التي يتحدث عنها الناخبون، وبشكل مباشر أكثر من خلال العملية الانتخابية. في الولايات المتحدة الأمريكية لا تعتبر تلك القناة المباشرة هي الرئيس الذي يتم انتخابه لمدة أربع سنوات، ومسموح له بفترتين انتخابيتين فقط، وليست في عضو مجلس الشيوخ والذي ينتخب كل ست سنوات، بحيث تقدم كل ولاية اثنين ممثلين لها في الكونجرس، بل توجد في مجلس النواب الذي يتكون من 475 عضوًا يتم انتخابهم كل عامين، يعاد توزيعهم كل عشر سنوات على أساس التعداد الوطني.

يعنى هذا أن المسؤولين في واشنطون في حالة حملات انتخابية طوال الوقت وذلك من أجل إعادة انتخابهم، حتى غير الأعضاء من مجلس النواب يجب عليهم تنظيم جدول أعمالهم ليتفق مع متطلبات الانتخابات التي تقام كل عامين.

لقد جعل الآباء المؤسسون المعادلة أكثر تعقيدًا، وذلك بمنح مجلس النواب وحده الحق في الشروع في الإنفاق الحكومي، حيث لا يوجد بنس واحد ينفق أو يقترح إنفاقه دون دعم

رئيس مجلس النواب، ولا يوجد دولار واحد يتم الالتزام به دون أن تعرض الفكرة على اللجنة المناسبة في المجلس.

اختيار باراك أوباما لرام إيمانويل كرئيس لموظفي البيت الأبيض ليس من قبيل المصادفة إذن، لما عرف عنه أنه عضو في مجلس النواب عن شيكاجو وذو نفوذ قوي بين الأعضاء في مجلس النواب، ومما له صلة بالموضوع أيضًا أن ننوه بأنه لأول مرة في التاريخ يأتي الرئيس الأمريكي ونائبه ووزير خارجيته مباشرة من مجلس الشيوخ.

إن حقيقة تمتع الديمقراطيين بأغلبية كبيرة في مجلس الشيوخ والنواب لهي ميزة أيضًا، ولكن ربما ليست ميزة كبيرة كما قد يعتقد البعض؛ حيث إن الدستور الأمريكي يمنح السلطة التشريعية بدرجة متساوية لكل من مجلس الشيوخ والنواب والرئيس الأمريكي، أما المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض يأتي في المرتبة الثالثة في البلاد، وهذا يعني أن وجود أغلبية كبيرة كهذه قد يمثل ضعفًا كما قد يمثل قوة.

نادرًا ما يوافق زعماء الكونجرس على كل شيء اقترحه الرئيس بشكل تلقائي، بل من النادر أكثر أن يميلوا إلى القيام بذلك في حالة امتلاكهم أغلبية كبيرة، ويكون من شأنها أن تمرر جميع التشريعات والقوانين.

تستطيع أن ترى دور الكونجرس بوضوح من خلال النقاش حول برنامج الرئيس التحفيزي، حيث لم يجبر الرئيس فقط على إجراء المفاوضات مع الجمهوريين، بل أجبره أيضًا على التنازل عن مبادئه الخاصة بهذا الموضوع ومشروع قانون الإنفاق الذي يتمسك الديمقراطيون فيه بمطالبهم بشدة. إن معظم الضغط جاء من مجلس النواب؛ حيث سيواجه العديد من الديمقراطيين الذين يقضون فترة ولايتهم الأولى، وجولة إعادة الانتخاب خلال مدة زمنية أقل من عامين.

هذا يعني أن برنامج الرئيس سيصبح شعبيًا بعدة طرق؛ حيث سيتبع رؤى الأجيال الجديدة التي ساعدته في الوصول إلى منصبه، ويعنى أيضًا انتهاج مقاربات تقدمية بالنسبة

للقضايا الاجتماعية والبيئية، والتي أعلن الرئيس عن الكثير منها في الأسابيع الأولى من ولايته، كذلك من خلال التحكم في موضوعات مثل معتقل جوانتانامو، والبيئة، وأبحاث الخلايا الجذعية، وحقوق المثليين... إلخ، يستطيع أوباما ترسيخ قاعدته الشعبية.

سيكون هناك صعوبة أكثر في الحفاظ على الولاء داخل الكونجرس؛ حيث هناك العديد من المصالح الخاصة التي تنتشر خلال خمسين ولاية، والتي لا يمكن لبرنامج واحد تغطيتها جميعًا، ثم هناك قضايا الكونجرس الخاصة مثل جماعات الضغط، وهناك ما يدعي بالمخصصات المالية وهي عبارة عن أذون إنفاق خاصة تم إضافتها بواسطة أعضاء الكونجرس الفرديين إلى مشاريع قوانين لا علاقة لها بها، ولقد شدد أوباما على معارضة مثل تلك الممارسات تمامًا كما فعل جون ماكين John McCain من قبل، ولكنه اضطر إلى قبول معظمها من أجل الحصول على إقرار مشروع قانون الإنفاق.

توجد مسألة أخرى ذات أهمية دولية، ويمكن أن تتأثر بسبب تلك النبرة الشعبية، ألا وهي التجارة الدولية، لقد تردد أوباما بشأن الحديث عن التجارة منذ بداية حملته الانتخابية، فهو يصرح بأنه سيقف بجانب تطبيق التجارة الحرة، ويشير تاريخه إلى أنه سيفعل، ولكن الحزب الديمقراطي يحظى بدعم كبير في الولايات الصناعية.

سيعتمد العديد من أعضاء الكونجرس على أصوات الطبقة العاملة من أجل إعادة انتخابهم، وهذا هو بالضبط سبب تعرض الشعوب للأذى بسبب الاستعانة بمصادر خارجية، والواردات، واتفاقيات التجارة.

على الرغم من أن الاقتصاديين يقولون بأن اتفاقيات مثل اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية عززت بالفعل الصناعة الأمريكية والنقابات العمالية، فإنهم قالوا أيضًا إنها كلفت أكثر من مليون أمريكي وظائفهم في قطاع الصناعة، وأن العجز التجاري بينها وبين المكسيك قد قفز من 10 مليارات في عام 1994 إلى 74 مليار دولار في عام 2006. إن هذه الأرقام متاحة

للمناقشة، ولكن تبقى حقيقة أن الكثير من الناخبين الأمريكيين يعتقدون أن التجارة تسبب الكثير من الأذى لبلادهم.

حاولت إدارة أوباما التأكيد على دعمها للتجارة الحرة، وذلك لتفادي المواجهات، ولكن التصريح بذلك يتطلب معايير توظيف ومعايير اجتماعية واضحة في أي اتفاقيات جديدة للتجارة يتم التفاوض عليها، ويبدو أنه من غير المحتمل أن تتم مناقشة أي اتفاقيات جديدة قريبًا، وهذه النقطة تعد نقطة أكاديمية إلى حد كبير، ومن المرجح أن تظل التجارة نقطة خلاف مع الشركاء التجاريين لبعض الوقت.

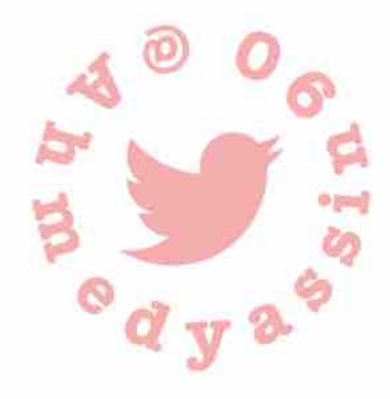
التحول والتجديد

كما سعينا للوصف في ذلك الكتاب، أمريكا ليست فقط بمكان أو ليست فقط ببلد، هي في حد ذاتها رحلة، فبالنسبة للأمريكي أو الأمريكية، إن حياة كل فرد أمريكي سواء كان مهاجرًا أو ولد فيها، هي عبارة عن رحلة رمزية من ماضي غير مستقر في العالم القديم إلى مستقبل باهر في العالم الجديد.

ألقى باراك أوباما الضوء على الرحلة الوطنية الأمريكية خلال الثلاثة أيام التي سبقت توليه منصبه، وذلك عندما استقل القطار واتبع نفس المسار الذي اتبعه إبراهام لينكولن Abraham Lincoln في عام 1861، حيث غادر سبرينجفيلد Springfield في ولاية إلينوي Illinois إلى واشنطن حيث البيت الأبيض.

أثناء محطات التوقف على طول الطريق، أكد على الهدف من تحويل أمريكا، في فيلادلفيا Philadelphia «المدينة التي انطلقت منها الرحلة»، ربط أوباما أهدافه بالآباء المؤسسين بقوله «ما هو مطلوب الآن هو إعلان استقلال جديد، ليس فقط لأمتنا بل في حياتنا أيضًا؛ حيث نتحرر من الأيدولوجية والتفكير والضيق، والتحامل والتعصب الأعمى، إن هذا هو نداء ليس فقط لغرائزنا السهلة ولكن أيضًا للملائكة الموجودة بداخلنا».

تنتهـي هنـا رحلتنا إلى أمريكا، عـلى الأقل في الوقت الراهـن، إن الولايات المتحدة تدخل الآن مرحلة تجديد لم يسبق لها أن دخلتها في التاريخ من قبل، والتي سوف ينتج عنها أمة متغيرة، وبالتبعية سـوف تغير العالم معها. نسـتطيع جميعًا أن نأمل أن ترشدنا الملائكة التي دعا إليها من قبل لينكولن في خطاب تنصيبه خلال تلك المهمة.




@Ahmedyassin90

